سلسلة

ندوات وحوارات «مؤمنون بلا حدود»

(7)

حوارات مع الدكتورة ميادة كيالي

الأمومة والكتابة، المرأة والألوهة المؤنثة، محطاتٌ في الذاكرة

إعداد وتحرير وتقديم

د. حسام الدين درويش

سلسلة
ندوات وحوارات «مؤمنون بلا حدود»
(7)

إعداد وتحرير وتقديم
د. حسام الدين درويش

حوارات مع الدكتورة ميادة كيالي

الأمومة والكتابة، المرأة والألوهة المؤنثة، محطاتٌ في الذاكرة

إدارة الندوات والحوارات والإعداد الفكري لها
د. حسام الدين درويش

الإشراف على تنظيم الندوات والحوارات وتقديمها
د. ميادة كيالي

المشاركات والمشاركون

أ. بشرى فرج الأحمدي
د. حسام الدين درويش
د. ساري حنفي
د. ماريز يونس
د. ميادة كيالي

الإشراف على الإخراج الفني
أ. مأمون الغاني

تفريغ التسجيلات والتدقيق اللغوي
د. عبد السلام شرماط

حوارات مع الدكتورة ميادة كيالي

Ḥiwārāt ma‘ Dr. Mayyādah Kayyālī

مشاركة: مجموعة من الباحثين

عدد الصفحات: 258

قياس الصفحة: 14,5X21,5 سم

تاريخ الطبعة: 2026م

رقم الطبعة: الأولى

التصنيف الموضوعي: 080

الترقيم الدولي: 978-9953-64-162-1

Shared by: Group of researchers

Pages: 258

Size: 14.5 X 21.5 cm

Edition Date: 2026

Edition No.: 1st

Subject Classification: 080

ISBN: 978-9953-64-162-1

جميع الحقوق محفوظة

مؤمنون بلا حدود

للنشر والتوزيع

All rights reserved

Mominoun Without Borders

for Publishing and Distributing

لبنان - بيروت

الحمراء - شارع ليون - بناء تور دي ليون - ط2

ص.ب 6306-113

هاتف: 1747422 961+

فاكس: 1747433 961+

Email: publishing@mominoun.com

Lebanon - Beirut

Al-Hamra - Lyon St. - Tour de Lyon Build. - 2 Fl.

P.O.Box 113-6306

Tel: +961 1747422

Fax: +961 1747433

Email: publishing@mominoun.com

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة

مدينة الشارقة للنشر

المنطقة الحرة - ص.ب 33439

هاتف: 97124469426+

Email: publishing@mominoun.com

United Arab Emirates - Al-Sharjah

Publishing City Free Zone Al-Sharjah

P.O.Box 33439

Tel: +97124469426

Email: publishing@mominoun.com

library.mominoun.com

Email: info@mominoun.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع

المحتوى

تقديم السلسلة 9

تقديم الكتاب 19

مقدمة 33

الفصل الأول: ميادة كيالي: من التخطيط الهندسي إلى تأملات الفكر والدين 37

الفصل الثاني: المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين 69

الفصل الثالث: البحث عن الذات: محطات في الذاكرة 93

الفصل الرابع: في الأمومة والكتابة: أثرٌ من الحبر والحبّ معاً 123

الفصل الخامس: جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ، حكاية عن الحب والأمومة والنجاة (1) 145

الفصل السادس: جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ، حكاية عن الحب والأمومة والنجاة (2) 163
الفصل السابع: بين التجربتين الفكرية والذاتية: قراءةٌ نسويةٌ لوضع المرأة العربية 193
خاتمة 247
التعريف بالمشاركات والمشاركين 251

تقديم السلسلة

د. حسام الدين درويش

«**لا نقدِّم أنفسنا، بوصفنا دار نشرٍ ومنصةً فكريةً تديرها كفاءاتٌ عاليةٌ فحسب، بل نمثِّل ونمارس، أيضاً، رؤيةً تقوم على الإيمان بقوة الفكر والمعرفة في بناء المجتمعات، وتحرير العقول، ومواجهة الاستبداد، أياً كان شكله أو مصدره. ولهذا، نؤمن بأن دورنا، اليوم، يتجاوز نشر الأبحاث والدراسات، إلى لعب دورٍ حقيقيٍّ في دعم الحوارات والنقاشات المعرفية الرصينة التي تفتح آفاقاً جديدةً للأمل في سوريا والمنطقة العربية**». هذا ما قالته وكتبته وشددت عليه الدكتورة **ميادة كيالي**، المديرة العامة لمؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، في أكثر من مناسبةٍ، ومنها في بعض ندوات هذه السلسلة. وانطلاقاً من ذلك وغيره، يمكن القول إن **مؤمنون بلا حدود** لم تكن، يوماً، مجرد دار نشرٍ، فقد غيَّرت معنى أو مفهوم «دار النشر»، وأعطت تعريفاً جديداً، وقيمةً إضافيةً، لماهية دار

النشر. فلم تعد تقتصر على نشر الكتب، وتوزيعها، فقط، بل أصبحت، أيضاً، تعتني بالكتب وبموضوعاتها، وتحتفي بها وبأصحابها وبقرّائها، وتقيم الندوات والحوارات والفعاليات الفكرية حولها.

أثناء عملي كباحثٍ رئيسٍ في مركز الدراسات المتقدمة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية «**علمانيات متعددة: ما وراء الغرب، ما وراء الحداثات**»، في جامعة لايبزيغ، في ألمانيا، قدم أحد الباحثين دراسةً عن وضع علم اجتماع الدين والدراسات الإسلامية، في العالم العربي، وذكر مؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، بوصفها (إحدى) أبرز المؤسسات العربية المهتمة بهذا الموضوع، كما يظهر، واضحاً، في الندوات والنشاطات التي تقيمها، والكتب والمجلات والنصوص التي تنشرها. لم أُدهش أو أتفاجأ، حينها، فقد كانت لديّ، مسبقاً، معرفةٌ قويةٌ بالنتاج المعرفي الرصين **لمؤسسة مؤمنون**، وكانت الكتب الصادرة عنها ضمن مراجع أي بحث أو كتابٍ صدر لي، في السنوات الأخيرة. وأكثر ما كان يدهشني ويعجبني، في منشورات **مؤسسة مؤمنون**، هو تنوعها، وعدم اقتصارها على توجّهٍ فكريٍّ ضيقٍ، أو مجالٍ معرفيٍّ واحدٍ أو أحاديٍّ، أو على رؤيةٍ معياريةٍ واحدةٍ. فمنشوراتها تتضمن كتباً في الفلسفة، وفي مختلف فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، إضافةً إلى كتب الفكر العربي، والدراسات الإسلامية، التقليدية التراثية والحديثة أو المعاصرة. وكان كيف وكمّ الكتب والأبحاث

المنشورة، في الفترة ما بين 2016–2020، يدلّان على أن المؤسسة تسير في الاتجاه الصحيح، بطريقةٍ تحيِّر، ليس «الأعداء» فقط، بل الأصدقاء والأحباب أيضاً.

وقد كنت محظوظاً بالانضمام إلى فريق **مؤمنون بلا حدود**، منذ معرض تونس الدولي للكتاب، في مايو 2023، حيث التقيت، هناك، بمديرة المؤسسة، الدكتورة **ميادة كيالي**، فتعارفنا، وسرعان ما قمنا بتنسيق عددٍ من النشاطات الثقافية هناك، حيث تولّيت إدارة ندوةٍ، لإطلاق ثلاثة كتب حواريةٍ صادرةٍ، حديثاً آنذاك، عن «**مؤمنون بلا حدود**». كما كانت هناك ندوةٌ لإطلاق كتابي الصادر، حديثاً آنذاك، عن «**مؤمنون بلا حدود**»: «**في فلسفة الاعتراف وسياسات الهوية: نقد المقاربة الثقافوية للثقافة العربية الإسلامية**». بعد تلك «التجربة الناجحة»، والتعارف والتقارب المثمر، تعاونتُ مع الدكتورة **ميادة** في تنظيم وإدارة العديد من الندوات والحوارات، في معارض الكتاب في أبو ظبي، وفرانكفورت، وتونس. ومنذ منتصف 2024، بدأنا بتنظيم سلسلةٍ من الحوارات، عبر تقنية الزوم، مع مؤلفي أحدث وأهم الكتب الصادرة عن «**مؤمنون بلا حدود**»، كما نظمنا، للغرض نفسه، عدداً من الندوات، الافتراضية، أو الحضورية، في لبنان، وتونس، والمغرب، وفي عددٍ من معارض الكتب، في الرباط، وإسطنبول، وفرانكفورت، وتونس، وأبو ظبي.

في ندوة إطلاق الكتب الحوارية الثلاثة المذكورة، في تونس،

شدد الدكتور **نادر حمامي**، محقّاً، على أنه في كلّ الندوات الحوارية التي أدارها، وفي كلّ النصوص التي نشرها، كان يتصرف ويكتب، بحريةٍ كاملةٍ، ولم يتدخل أيُّ شخصٍ في تغيير أي حرفٍ مما قاله أو كتبه، فلم يكن عليه أي رقيبٍ أو حسيبٍ، في هذا الخصوص. وقد بدا تأثُّر الدكتورة **ميادة** بهذه الشهادة المهمة، وشكرته عليها، لكونها تعبِّر، بصدقٍ، عن أجواء العمل الفكري في «**مؤمنون بلا حدود**». وانطلاقاً من معرفتي الشخصية والوثيقة بما كان وراء كواليس المؤسسة، وأمامها، أيضاً، ومن نشرها لأربعة من كتبي، ومن إدارتي لعشرات اللقاءات والندوات والحوارات المنشورة في هذه السلسلة، أتبنّى، عموماً، الشهادة المذكورة آنفاً، وأشهد، بدوري، بالانفتاح المبدئي الكبير للمؤسسة على نشر أيّ نصٍّ يتضمّن معرفةً رصينةً، في الموضوعات والمجالات المعرفية التي تهتم بها، من دون أيّ تمييزٍ (سلبيٍّ) بين الأسماء الشابة والأسماء المعروفة، أو بين النتاج المعرفي المؤلف باللغة العربية والمترجم إليها، أو بين الدراسات الإيمانية والدراسات غير الإيمانية ...إلخ. وينطبق هذا، إلى حدٍّ كبيرٍ، على كلّ فعاليات هذه السلسلة من الحوارات والندوات، وعلى كلّ نصوصها المنشورة.

تتضمن هذه السلسلة من الكتب نصوص معظم الندوات والحوارات التي نظمتها مؤسسة «**مؤمنون بلا حدود**»، منذ مايو 2023 حتى سبتمبر 2025. وقد ارتأينا نشرها في عشرة كتبٍ. وكان المعيار الأساس في تصنيف هذه النصوص، وتوزيعها على الكتب

المختلفة، هو مضامينها، ومدى تناغم نصوص كلّ كتابٍ بما يسهم في تشكيل وحدةٍ فكرية متكاملة الأجزاء.

أما المواضيع و/ أو العناوين المختارة مبدئيّاً لهذه الكتب العشرة، فتأتي - وفقاً لترتيب عمليات إعدادها وتحريرها وتقديمها - كالآتي:

1. **الإسلام الحركي والدولة وأوضاع المرأة في سوريا والعالم العربي.**
2. **دراساتٌ إسلاميةٌ وقرآنيةٌ: مستقبل الدراسات الإسلامية، قراءات المصحف، تأويل الآيات القرآنية.**
3. **دراساتٌ أنثروبولوجيةٌ وسوسيولوجيةٌ: في الدين/ الإسلام، والدولة، ونقد الليبرالية.**
4. **في الهيرمينوطيقا/ التأويلية (العربية): أعلامها، مواضيعها، إشكالياتها، اتجاهاتها.**
5. **حواراتٌ وقراءاتٌ (نقديةٌ): في فكر حسام الدين درويش.**
6. **في الفلسفة الحديثة والمعاصرة: الهيغلية، البرغسونية، الوجودية، الاعترافية، الهيرمينوطيقية.**
7. **حواراتٌ مع الدكتورة ميادة كيالي: الأمومة والكتابة، المرأة والألوهة المؤنثة، محطاتٌ في الذاكرة.**
8. **جدل الإلهي والإنساني: في الفكر العربي والإسلامي المعاصر.**
9. **ما وراء الغرب: في الترجمة، والكونية، والفلسفة العربية.**
10. **في الفلسفة والدين وفلسفة الدين (في العالم العربي).**

هذه العناوين أوليةٌ أو مبدئيةٌ، ويمكن أن يطرأ عليها، وعلى نص تقديم هذه السلسلة، بعض التغييرات أو التعديلات. فقد كُتِب هذا التقديم، أثناء إعداد وتحرير الكتاب الأول. ثم أُجريت بعض التعديلات على بعض العناوين، وعلى بعض مضامين التقديم، مع سير عمليات إعداد وتحرير الكتب التالية. وكما هو واضحٌ من العناوين الأوّلية للكتب العشرة، فإنّ التنوع في مضامينها كبيرٌ؛ إذ تشمل ميدانيْ الفلسفة والدين، وعدداً من حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية، إضافةً إلى الدراسات الإسلامية والقرآنية، والنصوص والإشكاليات أو المشكلات التي تنتمي إلى الفكر و/ أو الواقع العربي و/ أو الإسلامي المعاصر. وتزداد قوة هذا التنوع إذا أخذنا في الحسبان أن عدد فعاليات الندوات والحوارات ناهز الخمسين فعالية، شارك فيها أكثر من ثمانين باحثةً وباحثاً، وحضرها عددٌ كبيرٌ من المهتمّات والمهتمّين بموضوعات هذه الفعاليات. وعلى الرغم من هذا التنوع المذكور، فإن ثمة تداخلاً وتقاطعاً بين بعض مواضيع الكتب العشرة. لهذا، ارتأينا أنه من الضروري، أو المفيد، وضع بعض النصوص - أربعة أو خمسة نصوصٍ، على الأكثر - في أكثر من كتابٍ من كتب هذه السلسلة.

وقد تعزَّز تنوُّع المنظورات والمقاربات التي قُدِّمَت في الندوات بتنوّع المشاركات والمشاركين فيها؛ إذ إنهم ينتمون إلى معظم الدول العربية تقريباً، فضلاً عن مشاركة أشخاصٍ من دولٍ أخرى غير عربيةٍ. كما كانوا يمثلون شرائح عمريةً مختلفةً، ومجالاتٍ

معرفيةً وعلميةً متنوّعةً، ويعملون في جامعاتٍ ومراكز أكاديميةٍ، عربيةٍ وغربيةٍ مختلفةٍ، ويتبنّون منظوراتٍ معرفيةً ومعياريةً مختلفةً... إلخ. والجدير بالذكر أن بعض الندوات والحوارات جرَت باللغة الإنكليزية، ولم نرَ من المناسب تضمينها في هذه السلسلة المكتوبة باللغة العربية. كما تجدر الإشارة، أيضاً، إلى أنه في بداية كلّ كتابٍ، وفي بداية كلِّ نصٍّ حواريٍّ فيه، توجد قائمةٌ بأسماء المشاركات والمشاركين؛ وفي نهاية كلّ كتابٍ، توجد تعريفاتٌ مفصَّلةٌ بهم.

لقد خضعت النصوص المفرغة المنشورة، غالباً، لمراجعة أصحابها الذين أجروا عليها بعض التعديلات، لتتناسب مع الانتقال من اللغة المحكية الشفهية إلى اللغة المكتوبة. وحين تعذّر على بعض الأشخاص مراجعة نصوصهم، قمنا بتنقيحها وتحريرها، مع الحرص على الالتزام بالأمانة العلمية في نقل المعنى والمبنى أيضاً، قدر المستطاع. وفي المقابل، استثمر معظم الباحثات والباحثين، واستثمرنا معهم، فرصة مراجعة النصوص، للقيام ببعض التعديلات والتنقيحات والإضافات المفيدة. ولإنجاز هذه المهمات وغيرها، كان هناك **فريق عملٍ متكاملٍ**، بإشراف وقيادة الدكتورة **ميادة كيالي**، التي كانت تقوم بالتواصل مع الأطراف المختلفة، والتنسيق بينها، لتنظيم هذه الندوات، على أكمل وجهٍ ممكنٍ، ونشر نتاجها، في أحسن حلّةٍ ممكنةٍ.

وأتوجّه بالشكر الجزيل، وأعرب عن بالغ الامتنان والتقدير

الكبيرين، إلى كل القائمات والقائمين على مؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، وإلى كلّ الداعمات والداعمين لها، وكافة أعضاء فريق العمل فيها، الذين أسهموا في تنظيم وإنجاح هذه السلسلة من الندوات والحوارات، ونشرها كتسجيلاتٍ مصورةٍ على «اليوتيوب»، ونصوصاً على الموقع، ومن ثم، في هذه الكتب العشرة، وهم، مع حفظ الألقاب، السيدات والسادة: **أُنس الطريقي، جمال المودن، رانية الكردي، صابر سويسي، عبد السلام شرماط، كنزة أولهبوب، مأمون العاني، مهيار الكردي**. أما الشكر الأكبر، فموصولٌ إلى صديقتي العزيزة، وشريكتي في تنظيم هذه الندوات، الدكتورة **ميادة كيالي**، على جهودها الكبيرة والطيبة، في المضي بمشروع **مؤمنون بلا حدودٍ**، إلى أقصى وأفضل حدٍّ ممكنٍ - على الرغم من الصعوبات الكثيرة والكبيرة - وعلى حسن ورقيّ تعاملها الودّي والمحترم والمهني، معي شخصيّاً، ومع جميع من كانت لهم صلةٌ بمؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، عموماً، وبهذه السلسلة من الندوات والحوارات، خصوصاً.

عندما أخبرت الباحث في جامعة لايبزيغ، عام 2021، أن هناك تباطؤاً في نشاط مؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، وأن هناك أقاويل تشير إلى احتمال إغلاق أبوابها، بدا مندهشاً أو مصدوماً وغير مصدّقٍ، وكأنه يقول: «هرام/ حرام». وعندما سألني عن السبب، أخبرته بجهلي، في هذا الخصوص. وكنت أشاركه الشعور بالدهشة والصدمة من إمكانية إغلاق مثل هذه المؤسسة الناجحة، بعد أن

أصبحت صرحاً فكريّاً عظيماً تنبغي الإضافة إليه، ويمكن ويجب البناء عليه، وليس هدمه أو تدميره.

وخلال العقد الأخير، كانت **مؤمنون بلا حدود** الواجهة الفكرية أو الثقافية المضيئة لدولة الإمارات، وإحدى أبرز المؤسسات العربية في عالم المعرفة الرصينة والفكر والثقافة. وقد عبرت الدكتورة **ميادة كيالي** عن الروح التي أُريد لهذه المؤسسة أن تتسم بها عموماً، ولهذه السلسلة من الندوات والكتب الحوارية خصوصاً، بقولها: «تنطلق هذه السلسلة من الكتب الحوارية من رؤيةٍ تؤمن بأن المعرفة لا تكتمل إلا بالحوار، وبأن التفاكر أو التفكير المشترك هو السبيل الأرقى، لبناء الوعي، وتجديد الفكر العربي. وإصدارها اليوم ليس مجرد توثيقٍ لندواتٍ فكريةٍ احتضنت الحوار، بل هو رحلةٌ في معنى الحوار ذاته؛ حوارٌ يعيد للكلمة حضورها، وللاختلاف جماله، وللعقل مكانه، في زمنٍ يعلو فيه الضجيج على المعنى. لقد جاءت هذه اللقاءات الفكرية، في إطار مشروع **مؤمنون بلا حدود**، لتعيد الاعتبار لقيمة السؤال، وتفتح فضاءاتٍ للنقاش، بين الباحثين والمفكرين، في مجالات الفلسفة والدين والعلوم الإنسانية، حيث يتقاطع المحلّي بالكوني. فسعت هذه الحوارات إلى تجاوز النمط الأكاديمي الجامد نحو فكرٍ حيٍّ نابضٍ بالتفاعل الذي يؤمن بأن الاختلاف مصدر ثراءٍ، وبأن الحقيقة لا تُمتلك، بل تُكتشف في تعدد الأصوات والرؤى. وتمثل هذه السلسلة شهادةً على حيوية المشروع الثقافي الذي تقوده مؤسسة

مؤمنون بلا حدود، وتجسيداً لإصرارها على أن تبقى الثقافة فعلاً مقاوماً للتراجع، ومنبراً مفتوحاً للبحث عن الإنسان فينا، ولتحويل الفكر إلى ممارسةٍ حيّةٍ للحرية، تؤمن بأن الكلمة، حين تُنطَق من موقع الوعي، تصبح طريقاً نحو التغيير والمعرفة معاً».

في ختام هذا التقديم، وهذه السلسلة الطويلة والجميلة من الفعاليات الفكرية مع مؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، آمل أن يكون هذا النتاج المعرفي مفيداً لكل المهتمّات والمهتمّين بالموضوعات التي تم تناولها في هذه الفعاليات، وأن تكون الفائدة المتحققة متناسبةً مع الجهود الكبيرة التي سُخِّرت، من أجل إقامة تلك الفعاليات، ونشر نتاجها المعرفي.

تقديم الكتاب

د. حسام الدين درويش

«**من التخطيط الهندسي إلى تأملات الفكر والدين**»، **ومن بحثٍ في** «**المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين**» **إلى** «**البحث عن الذات**» **وعن** «**محطاتٍ في الذاكرة**»، **ومن حواراتٍ في** «**الأمومة والكتابة**»، **من حيث إنهما** «**أثرٌ من الحبر والحبّ معاً**»، **ومن** «**جسدٍ مقيمٍ في سريرٍ**»، **والـ**«**حكاية عن الحب والأمومة والنجاة**»، إلى الحديث عن «**التجربتين الفكرية والذاتية**»، وتقديم «**قراءةٍ نسويةٍ لوضع المرأة العربية**». هذه هي العناوين الرئيسة، ليس، فقط، لفصول هذا الكتاب، ونصوصه الحوارية السبعة، وبعض كتبها، وبعض الحوارات التي أُجريت معها، بل لأجزاء من المراحل الحياتية والفكرية المختلفة للدكتورة **ميادة كيالي** أيضاً، ولخبراتها ورؤاها الفكرية والشخصية، لا سيما في العديد من المسائل والموضوعات المطروحة في الفكر والواقع عموماً، والفكر والواقع العربيين خصوصاً.

نُشرت **الفصول أو النصوص الحوارية السبعة**، جميعها، سابقاً، في موقع «مؤمنون بلا حدود»، لكن مضامينها، والجوانب الشخصية والفكرية التي تناولتها، في حياة وفكر الدكتورة **ميادة كيالي**، لم تكن بلا حدود، على الرغم من أنها شملت معظم مراحل حياتها الأساسية، وتناولت، كما هو واضحٌ، في العناوين المذكورة أعلاه، موضوعاتٍ مختلفةً ومهمةً. وللاستزادة، وتجاوز الحدود المذكورة، يمكن العودة إلى مؤلفات الدكتورة **ميادة**، سواء الإبداعية منها أو الفكرية، أو التي تمزج بين الجانبين بطريقةٍ وصيغةٍ يصعب معهما الفصل أو التمييز بين الجانبين: **أحلام مسروقة** (2010)، **رسائل وحنين** (2013)، **المرأة والألوهة المؤنثة** (2015)، **هندسة الهيمنة على النساء: الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة** (2018)، **في ظلال الياسمين** (2023)، و**جسد مقيم في سرير: حكاية عن الحب والأمومة والنجاة** (2025). كما يمكن مشاركتي انتظار إصدارها لمذكراتها أو سيرة حياتها الشخصية والفكرية، الذاتية الموضوعية، التي أعرف أنها في صدد كتابتها، وقد صدر جزءٌ صغير منها، فقط.

في **الفصل أو النص الحواري الأول**، الموسوم بـ«**ميادة كيالي: من التخطيط الهندسي إلى تأملات الفكر والدين**»، يشترك المتحاوران، د. ساري حنفي ود. ميادة كيالي في الكثير من القواسم المشتركة، فإضافةً إلى اشتراكهما في اللطف والطيبة وسماحة النفس - بحسب شهادتي أنا، الذي أزعم أنني أعرفهما جيداً -

كلاهما درس الهندسة المدنية وحصل على شهادة جامعية فيها، قبل الانتقال إلى ميدان العلوم الاجتماعية، حيث تلقيا العلم أو التعليم من بعض الأساتذة المشتركين، ولديهما الكثير من المعارف والذكريات المتقاطعة في هذا الصدد. ولا يقتصر الحوار على تناول عملية أو مرحلة الانتقال «من التخطيط الهندسي إلى تأملات الفكر والدين»، كما قد يوحي عنوانه، بل يتناول أيضاً، وخصوصاً، المرحلتين السابقة واللاحقة، ويتطرق، بإيجازٍ غالباً، مع تقديم أفكارٍ ومعلوماتٍ مهمةٍ، إلى التجربة التي جمعت الدكتورة **ميادة** مع **محمد شحرور**، ودورها الرائد والتأسيسي في قيام مؤسسة **سراج**، ومن ثم مؤسسة **مؤمنون بلا حدود**، إضافة إلى الإنجازات التي حققتها هاتان المؤسستان وصلة المؤسستين عموماً، وصلة الدكتورة ميادة خصوصاً، بالدراسات والشخصيات الفكرية العربية والإسلامية، مثل جمال البنا، ونصر حامد أبو زيد، وغيرهما. وكان التساؤل عن معنى اسم مؤسسة «**مؤمنون بلا حدود**» مدخلاً مناسباً للحديث عن كونية القيم التي تبنتها المؤسسة، وعن جمعها بين الدراسات الدينية الإيمانية والدراسات القرآنية والإسلامية من جهةٍ، ودراسات الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية من جهةٍ أخرى، إضافةً إلى اهتمامها الكبير بترجمة الأعمال المهمة، في هذا الخصوص، من اللغات الأجنبية عموماً، والإنكليزية والفرنسية والألمانية خصوصاً. ولم يكن غريباً اهتمام وسرور الدكتور **ساري حنفي**، صاحب كتاب «**علوم الشرع والعلوم الاجتماعية: نحو**

تجاوز القطيعة»، بالجمع المذكور. وكانت خاتمة الحوار سؤالين وإجابتين عن زيارة **ميادة كيالي** لسوريا بعد سقوط/ إسقاط النظام الأسدي، وما صاحبها من مشاعر وانطباعاتٍ وتطلعاتٍ، والندوات التي نظمتها مؤسسة **مؤمنون بلا حدود** في هذا الخصوص.

يحمل **الفصل أو النص الحواري الثاني**، عنوان كتاب **ميادة كيالي «المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين»**، ويتناول مضامين هذا الكتاب الذي كان في الأصل رسالة ماجستير، وقصة تأليفه ونشره، بمناسبة ترجمته إلى اللغة الإنكليزية على يد الدكتور نجيب عوض، وبمناسبة كونه باكورة منشورات «مؤمنون بلا حدود»، باللغة الإنكليزية أيضاً. وقد ابتدأ الحوار بتناول النقطة الأخيرة تحديداً، وبمناقشة مدى أهمية أن تكون الترجمة باتجاهين، من وإلى العربية، إضافةً إلى الأهمية الخاصة أو الشخصية، لدى **ميادة كيالي** نفسها، لترجمته إلى اللغة الإنكليزية. والسبب في ذلك يعود إلى أن لغة القراءة الأساسية لدى ولديْها؛ فارس وكريم - وكل أعمالها مهداة إليهما - وبعض المقربين منها، والكثير من معارفها في الإمارات وخارجها، هي اللغة الإنكليزية.

وفي سردها لقصة هذا الكتاب، أعربت عن امتنانها للدكتور **خزعل الماجدي**، المشرف على رسالتيها في الماجستير والدكتوراه، وأشارت إلى أنها عندما كانت تدرس الحضارات والأديان القديمة، لم يكن في بالها أن تدرس موضوع المرأة تحديداً، لكن الموضوع جذبها إلى درجة أنها لم تعد تستطيع القول

إنَّها اختارته، بل الموضوع هو الذي اختارها. وإضافةً إلى شرح أطروحة الكتاب ومناقشتها، تناول الحوار الكتاب الثاني للدكتورة **ميادة** في هذا المجال، «**هندسة الهيمنة على النساء: الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة**»، الذي كان في الأصل أطروحتها للدكتوراه، ويمثل امتداداً طبيعيّاً لرسالة أو كتاب الماجستير. وقبل اختتام الحوار بالسؤال عن الانقسام أو الجمع، في حياة **ميادة كيالي**، بين تخصص الهندسة والبحث في العلوم الإنسانية، بين العمل الإداري والعمل البحثي، تناولت الأسئلة، ومن ثم الإجابات، رؤية الدكتورة ميادة للمسألة النسائية عموماً، وللاتجاهات أو المنظورات النسوية. وقد كان هذا الموضوع موضع اهتمام كل الحوارات في هذا الكتاب وفي غيره، ومن منظوراتٍ وزوايا متعددةٍ ومختلفةٍ.

يحمل **الفصل أو النص الحواري الثالث** عنوان «**البحث عن الذات: محطات في الذاكرة**»، وقد كان الغرض منه تقديم الدكتورة **ميادة كيالي** (نفسها)، لن أقول في صيغة اعترافاتٍ، بل في صيغة عرضٍ لمراحل من تاريخها، مع محاولة النظر إلى هذه المراحل من أكثر من زاويةٍ: رؤية **ميادة** الإنسانة، والمثقفة، والمفكّرة، والمديرة، والمهندسة، من مختلف الجوانب. ولتحقيق ذلك الهدف، تناول الحوار المرحلة التي بدأت فيها ميادة تشكّل صوتها الخاص، والتي بدأت تجرؤ فيها على قول «لا»، لا رفضاً عبثيّاً، بل بحثاً عن ذاتها وعن حقّها في الفهم والاختيار، وكيف كان

تمردها في المسألة الدينية، أو في المواضيع المتعلقة بالأفكار الدينية مزدوجاً: تمرّدٌ معرفيٌّ نابعٌ من وجود أمورٍ غير مقنعةٍ أو بلا أسسٍ معرفيةٍ مقنعةٍ؛ وتمردٌ أخلاقيٌّ؛ نابعٌ من رفض بعض الأحكام التي تحط من قيمة المرأة وتحتقرها، كمسألة أن لمس المرأة مثل الكلب الأسود ينقض الوضوء. و«في النهاية»، قادها ذلك التمرد، الذي لم يكن وليد لحظةٍ واحدةٍ، بل ثمرة مسارٍ طويلٍ إلى التعامل مع الدين، لا بوصفه منظومةً مغلقةً من الأوامر والنواهي، بل مجالاً مفتوحاً للتساؤل وإعادة النظر. وكان لقاؤها **بشحرور** وبفكره فرصةً ثمينةً لها لإعادة تثبيت القاعدة الإيمانية/ الدينية والمعرفية على أسسٍ عقليةٍ وإنسانيةٍ، لتبدأ منها بناءً جديداً. وفي المراحل اللاحقة، لم تعد المسألة أو الفكرة مجرد تمردٍ فرديٍّ أو قناعةٍ شخصيةٍ، بل تحوّلت إلى مؤسسةٍ، إلى عملٍ جماعيٍّ منظمٍ، في مؤسستيْ **سراج** و**مؤمنون بلا حدود**، فأُتيح لها، من خلالهما، أن تشارك مع آخرين الهمّ نفسه: همّ الإصلاح الديني والفكري، وفهم العلاقة العميقة بين الدين والمجتمع، وبلورة دراساتٍ ومشاريع تُترجم تلك الأفكار إلى فعلٍ ملموسٍ، ووضع حجر الأساس لمسارٍ معرفيٍّ جديدٍ كان له الكثير من الثمار المهمة والمؤثرة.

كما تناول الحوار نشأتها الاجتماعية والأوضاع التي دفعتها إلى اختيار الهندسة، ومن ثم التفرغ الكامل لدورها كزوجةٍ وأمٍّ، لتمتلك، بالتالي، خبراتٍ ومهاراتٍ ونجاحاتٍ في الهندسة، والتصميم، والرسم، والطبخ، والعمل الإداري والتنظيمي،

والكتابة الفكرية، والكتابة البحثية والأكاديمية، والكتابة الإبداعية،...إلخ. وقد ركَّز الحوار تركيزاً خاصّاً على علاقتها بالكتب، قراءةً وكتابةً ونشراً، والتي بدأت منذ عام 2004، وما زالت مستمرةً حتى وقتنا الحاضر. وتم اختتام الحوار بمناقشة ماهية الذات التي تبحث عنها **ميادة كيالي** التي رأت أن بحثها عن الذات هو «بحث عن التوازن بين الداخل والخارج، بين ميادة الطفلة، بعفويتها ودهشتها وخوفها من الفقد، وميادة الظاهرة أمام الناس، التي تتولى المسؤوليات وتواجه العالم بقوة وثقة؛ وأن سرّ الأمان الذي تشعر به، اليوم، هو أن المسافة بين الاثنتين باتت قصيرة جداً، فلم تعد بحاجةٍ إلى إخفاء واحدة خلف الأخرى. وأقتبس هنا قولها الجميل: "أنا، اليوم، لا أبحث عن ذاتٍ ضائعةٍ، بل أسعى إلى صون الذات التي وجدتها بعد رحلة طويلة من التناقضات والمواجهات. هي ذاتٌ تصالحت مع ماضيها، وتعيش حاضرها بوعيٍ عميقٍ، وتؤمن أن الطريق إلى الحقيقة ليس خارج الإنسان، بل في أعماقه. ولهذا أقول دائماً: إنّ أجمل ما في رحلة البحث عن الذات، أنها لا تنتهي؛ لأننا نتجدد كل يومٍ، ومع كل تجربةٍ نولد من جديدٍ. لقد وُلدتُ أكثر من مرةٍ، لكنّ ولادتي الحقيقية كانت حين عرفت من أنا، وحين أدركت أنّ البحث عن الذات لا يعني العثور عليها، بل الحفاظ على نورها مشتعلاً مهما تغيّر الزمان والمكان».

في **الفصل أو النص الحواري الرابع** - الموسوم بـ«**في الأمومة**

والكتابة: أثرٌ من الحبر والحبّ معاً» - تتحدث **ميادة كيالي** عن نفسها بوصفها أمّاً وكاتبةً، وعمن كان له دور فاعل في حياتها، حتى تكون من هي وما هي عليه الآن، وعن كيفية جمعها بين الأمومة والكتابة، وعن تمزُّقها الذهني بين مهام الأمومة والكتابة، وعن أبرز التحديات التي واجهتها في هذا الجمع، وفي كل مسألةٍ على حدةٍ. فعلى الرغم من التمزق المذكور، ومن الأمومة التي (قد) تجعل المرأة أو المرأة المتفانية تذوب وتفقد نفسها في دوامة العطاء المطلق والكتابة، ترى الدكتورة **ميادة** أن الكتابة تصبح، في مثل هذا السياق، أو هذه الحالة، «بمنزلة العودة إلى الجوهر، كأنها تعيد ترميم روحها بحروفها الخاصة». وقد كتبت، في هذا الصدد: «الكتابة كانت طريقي للعودة إلى ذاتي، ليس لرفض أمومتي، بل لتحويلها إلى مصدر قوتي. الكتابة لم تكن ترفاً، بل كانت وسيلتي لأبقى حيةً وسط كل الأدوار التي طُلب منّي أن أؤديها». وترفض **ميادة كيالي** في الحوار وخارجه، الحديث عن «جانب مظلم للأمومة»، كما تناقش مفهوم الأمومة بين المثاليات والواقع، وتؤكد ضرورة تفكيك الأساطير والصور النمطية السلبية وعمليات شيطنة عمل المرأة. وتشير، أيضاً، إلى أن الحياة الحديثة جعلت الأمومة أصعب، من عدة نواحٍ: اقتصاديةٍ، واجتماعيةٍ، ونفسيةٍ، مما يستوجب ويقتضي إعادة تعريف الأمومة وتحريرها من (الكثير من) القيود. كما تناقش الاختلافات بين الأبوة والأمومة، والأسباب أو العوامل التي تساعد الرجال على الإنتاج الأدبي، وتعرقل إبداعات

النساء، في هذا المجال، وفي غيره من المجالات: التفاوت في امتلاك الوقت، والذنب المترسّب في الوعي النسائي، والرقابة الاجتماعية المستمرة. ورأت ميادة كيالي أنّ كتاب «**نساء على أجنحة الحلم**» **لفاطمة المرنيسي** هو كتابٌ يمثلها، على الرغم من أنه ليس «رواية أمومة»، بل سيرة طفولة مُفكَّر فيها، تُعيد عبرها **المرنيسي** بناء ذاكرة الحريم، بوصفها مختبراً لمساءلة علاقات السلطة والحدّ، والاختلاط بين التقليد والحداثة. لذا يلتقي الكتاب مع انشغالات **ميادة كيالي** حول الصوت النسوي وتشكّله، من دون أن يجعل الأمومة محوراً سردياً أو مفهومياً، وختمت الحوار بالتشديد على أن «الأمومة والكتابة ليستا طريقين متوازيين، بل خيطان متداخلان في نسيج حياتها، يتشابكان ليصنعا هويتها».

الفصلان أو النصان الحواريان الخامس والسادس مخصصان لحوارين أو لحوارٍ من جزئين عن كتاب الدكتورة **ميادة** الأخير «**جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ، حكاية عن الحب والأمومة والنجاة: سيرة ولادة**»، الذي يتضمَّن مجموعةً من النصوص كتبتها الدكتورة **ميادة** بعد أشهرٍ قليلةٍ من ولادة طفليها عام 1999، ثم عادت إليها عام 2007، قبل أن تضع اللمسات الأخيرة عليها، وتخرجها إلى النور، بنشرها عام 2025. وقبل الاستقرار على العنوان الأخير واعتماده، كان العنوان الأولي للكتاب «**سبعة أشهر في حياتي**»، لكنني، شخصيّاً، رأيت إمكانية عنونة الكتاب، أيضاً، بـ«**ناجية من (عدم) الولادة**»، على غرار كتاب الصديق **محمد برّو** «**ناجٍ من**

المقصلة». والنجاة هنا مزدوجةٌ: من الولادة، ومن عدم الولادة، في الوقت نفسه. فهي نجاةٌ من عدم القدرة على الحمل، ومن ثم الولادة، وهي تجربةٌ عانت منها الزوجة **ميادة كيالي** لخمس سنواتٍ تقريباً. وتُعدُّ عدم القدرة على الإنجاب وصمةً اجتماعيةً فظيعةً تعاني منها المرأة، وعانت منها الدكتور **ميادة** كثيراً، بغض النظر عن أنها لم تكون مسؤولةً عن المشكلة، بأكثر من معنىً لهذه الكلمة. فالولادة تزيل تلك الوصمة وتعيد للمرأة مكانتها الاجتماعية، وتسمح لها باستعادة شيءٍ من إنسانيتها المفقودة، ومداواة ومداراة جانبٍ من صورتها المجروحة والنازفة. وقد كانت النجاة من الولادة نفسها، أيضاً، بسبب الآلام الفظيعة والمريعة التي عانت منها - والتي تسرد تفصيلاتها في الكتاب بعمقٍ فكريٍّ وجمالٍ أدبيٍّ - إلى أن حصلت الولادة المبكرة، وإلى ما بعد ذلك أيضاً.

والكتاب ليس مجرد سيرة ولادة؛ على الرغم من أنه يوضح خصوصية هذه التجربة وكيف تمتزج فيها مشاعر الألم مع الأمل، والتوتر والخوف مع عدم القدرة على التحمل في لحظاتٍ معينةٍ. وفي كل الأحوال، الولادة هنا، وفي مثل هذه الحالات، ليست ولادة الطفل أو الطفلين فحسب، بل هي ولادة الأم أيضاً. فبعد الولادة، تعود الأم لتبدأ وتقوم بترتيب أولوياتها من جديد. ومن ثم، تُولد كامرأةٍ من جديدٍ، كإنسانةٍ، وكأمٍّ من جديدٍ.

وفي الحوار وخارجه، شجعتُ الدكتورة ميادة على الاستمرار في هذا النمط من الكتابة؛ لأنّها تكتب فيه من روحها، ومن تأثرها

العميق بتجربتها، وتجيد التعبير عنها، بطريقةٍ معبِّرةٍ معرفيّاً وموضوعيّاً، ومؤثرةٍ أخلاقيّاً ووجدانيّاً. وسرّتني نيتها المسبقة في الاستمرار في ذلك المسار، وفي مواصلتها كتابة سيرتها الذاتية الموضوعية التي آمل أنها ستتناول كل المواضيع الأساسية، بلا حدود، سوى تلك التي تقتضيها الرصانة المعرفية والمبادئ الأخلاقية العامة. وقد تضمن الحوار أو الحواران عن هذا الكتاب الكثير من الأفكار والإشكاليات التي يصعب إجمالها أو اختزالها في هذا التقديم القصير. لذلك سأترك للقرَّاء، مسألة الاطلاع عليها، وتذوقها مباشرةً بأنفسهم، وأجرؤ على إعطائهم وعداً بأنهم لن يكونوا على ذلك من النادمات أو النادمين.

الفصل والنص الحواري السابع والأخير هو لندوةٍ حواريةٍ انعقدت مع الدكتورة **ميادة كيالي** والدكتورة **ماريز يونس**، وتضمنت خوضاً في أسئلة النسوية وأوضاع المرأة العربية، من خلال تجارب ذاتيةٍ وفكريةٍ غنيةٍ ومركّبةٍ. وقد شاركت الضيفتان، بصفتهما شخصيتين نسائيتين ونسويتين، وشخصيتين عامتين ومؤثرتين في المجال المعرفي والفكري، ومديرتين لمؤسستين ثقافيتين، وبصفتهما مرّتا بخبرات الابنة والأخت والزوجة والأم ...إلخ. وقد تقاطع، في الحوار الموسوم بـ«**بين التجربتين الفكرية والذاتية: قراءة نسوية لوضع المرأة العربية**»، وتداخل، الشخصي الخاص مع الكلّي العام، الجندري الاجتماعي مع الاقتصادي والسياسي، الفردي المنعزل مع المؤسساتي المتكرر والبنية الثابتة. وناقشت

الندوة مسألة تعرض النساء (العربيات) لخبراتٍ متشابهةٍ، على الرغم من اختلاف الظروف، ومسألة المعاني المتعددة للنسوية، ومدى ضرورة أن يكون النقد الموجَّه للنسوية نسائيّاً ونسوياً، لكي يكون مناسباً وفعَّالاً، وذا مصداقيةٍ ومقبوليةٍ. ويتعلق السؤال العام الذي انطلق منه الحوار بوضع المرأة في العالم العربي، مثل لبنان، وتونس، والمغرب، وسوريا، والجزائر، بشكلٍ عامٍّ، من دون تهويلٍ أو دراما، وإلى أيّ حدٍّ من المناسب معرفياً، الحديث عن أوضاع النساء في العالم العربي بعموميةٍ، أم إن هناك ضرورةً للأخذ في الحسبان الاختلاف الكبير لتلك الأوضاع بين البلاد والسياقات المختلفة؟

الفصول والنصوص الحوارية السبعة حصيلة لقاءاتٍ أو حواراتٍ جرت في أوقاتٍ وأماكن وطرائق مختلفةٍ؛ أحدها (الفصل الرابع: **في الأمومة والكتابة: أثرٌ من الحبر والحبّ معاً**) جرى عبر المراسلة الكتابية، ونُشر في موقع **مؤمنون بلا حدود** في 25 أبريل 2025، وسيكون جزءاً من كتابٍ سيصدر، قريباً، للكاتبة **بشرى فرج الأحمدي**، التي حاورت الدكتورة **ميادة كيالي** فيه. واثنان منها (الفصل الأول «**ميادة كيالي: من التخطيط الهندسي إلى تأملات الفكر والدين**»، والفصل السابع: «**بين التجربتين الفكرية والذاتية: قراءةٌ نسويةٌ لوضع المرأة العربية**») جريا في مقرّ **مؤمنون بلا حدود** في بيروت، في فترتين مختلفتين. الأول، أجراه الدكتور **ساري حنفي** في نهاية شهر يناير/ كانون الثاني 2025، ونُشِر تسجيل

الحوار في يوتيوب **مؤمنون بلا حدود** في 25 تموز/ يوليو 2025، ثم نُشر نصُّه في موقع **مؤمنون بلا حدود** في 5 أيلول / سبتمبر 2025. والثاني أجريته بحضور ومشاركة الدكتورة **ماريز يونس** في منتصف شهر مايو/ حزيران 2025، ونُشر في يوتيوب مؤمنون بلا حدود في 29 حزيران/ يونيو 2025، ثم نُشر نصُّه في موقع **مؤمنون بلا حدود** في 22 آب، أغسطس 2025. أما الحواران الآخران، وهما (الفصل الثاني «**المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين**»، والفصل الثالث «**البحث عن الذات: محطات في الذاكرة**»)، فجرى كلّ منهما في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب 2023، و2024. الأول جرى في فترة انعقاد المعرض 29 نيسان/ أبريل - 5 أيَّار/ مايو عام 2024، ونُشِر تسجيل الحوار في يوتيوب مؤمنون بلا حدود في 5 حزيران/ يونيو 2024؛ والثاني جرى قبل عامٍ من ذلك التاريخ تقريباً، في 22-28 نيسان/ أبريل 2023. وجرى الحواران اللذان يتناولان كتاب «**جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ، حكاية عن الحب والأمومة والنجاة**»، في الفصل الخامس والسادس، في معرض إسطنبول الدولي للكتاب الذي انعقد في الفترة ما بين 9-17 آب/ أغسطس 2025، ونُشر تسجيل الحوارين، في يوتيوب مؤمنون بلا حدود، على التوالي، في 13 و17 كانون الأول/ ديسمبر 2025. وقد كتب الدكتور **عبد السلام شرماط** خاتمة لهذا الكتاب.

بعض الموضوعات التي تتناولها الفصول أو النصوص الحوارية

السبعة لهذا الكتاب، يمكن تصنيفها بأنها تتوزع بين الخاصّ والذاتيّ الشخصيّ، وبعضها الآخر يمكن تصنيفه بأنه عامٌّ وموضوعيٌّ عموميٌّ. لكن، في مثل هذه السياقات، يمتزج الخاص بالعام، والذاتي بالموضوعي، والشخصي بالعمومي، بطريقةٍ أو صيغةٍ تبين ذاتية الموضوعي، وموضوعية الذاتي، وخصوصية وشخصانية العام والعمومي، وعمومية الخاص والشخصي. وعلى هذا الأساس، كان حديث الدكتورة **ميادة كيالي** عن نفسها، بوصفها امرأةً أو أمّاً أو زوجةً أو باحثةً أو مديرةً لمؤسسةً ...إلخ، يخص كلّ النساء والأمهات والزوجات والباحثات والمديرات، بل يخص الرجال والآباء والأزواج والباحثين والمديرين، أيضاً. وفي كل الأحوال، كان حديثها عن ذاتها، بوصفها إنسانةً، يعبر عن أفكارٍ وقيمٍ وتطلعاتٍ تخصُّ أو تمسُّ كل البشر، من حيث المبدأ، ويعبِّر عن أوضاع وفكر وقيم كثيراتٍ وكثيرين منهم. وهذه السمة الكونية ليست ناتجةً عن السمة الأدبية الجميلة والمؤثرة في الوجدان لصياغة النصوص فحسب، بل هي ناتجةٌ، أيضاً، عن الكثافة الفكرية والعمق في المعاني، وقد ارتبطت ببلاغة المباني المعبِّرة عنها.

مقدّمة

د. ميادة كيالي

لم تكن هذه السلسلة حدثاً عابراً في روزنامة «**مؤمنون بلا حدود**»، بل كانت ثمرة رؤيةٍ تراكمت خبراتها عبر المعارض والندوات والحوارات التي تم تنظيمها، خصوصاً ما بين 2023 و2025، حضورياً وافتراضياً، في أبو ظبي وبيروت وتونس والرباط وإسطنبول وفرانكفورت وغيرها. ما جمعناه اليوم، في هذه الكتب العشرة، ليس أرشفةً محايدةً، بل صياغةٌ لمنهج عملٍ يؤمن بأنَّ المعرفة لا تكتمل إلا بالمساءلة، وأن الحوار ليس تزييناً للكتاب، بل امتدادٌ بحثيٌّ له.

في هذا الجزء الخاصّ بي، اخترنا ثلاثة محاور تبدو متباعدةً للوهلة الأولى: الأمومة والكتابة، المرأة والألوهة المؤنثة، ومحطاتٌ في الذاكرة. لكنّ الخيط الناظم بينها واحدٌ: البحث عن المعنى في مفترق الشخصي والعام، وفي التوتر الخلّاق بين التجربة والسؤال. حين كتبتُ عن الأمومة، لم أكتب «حكاية خاصة» بقدر ما دوّنتُ تمريناً على استعادة الصوت وسط ضجيج الأدوار؛ وحين

بحثتُ في **الألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين**، لم أكن أطارد موضوعاً تاريخيّاً فحسب، بل كنتُ أختبر قدرة التاريخ على إنصاف المرأة في تمثّلاتها الأولى؛ وحين عدتُ إلى الذاكرة، كنتُ أراجع قابلية الذات لأن تولد مراراً دون أن تفقد جوهرها.

تأتي هذه المقدّمة لتضع تجربتي داخل بنية السلسلة التي قدّم لها الدكتور **حسّام الدين درويش** تقديماً جامعاً، وحدّد، في تقديمه الخاص بهذا الكتاب، مسارات نصوصه وسياقاته وأزمنته. وانتقى الأصوات والموضوعات وفق معيارين متكاملين؛ الرصانة المعرفية وحيويّة السؤال. وأشهد، من موقعي، على ما أكّده الدكتور **حسّام** في أكثر من موضع، وهو مساحة الحرية التي عمل فيها ضيوفنا ومحرّرونا ومحاورونا؛ فقد كانت حريةً مسؤولةً، تُدقَّق لغويّاً ومنهجيّاً، دون وصايةٍ على الفكرة.

لسنا، هنا، بصدد إعادة نشر تسجيلاتٍ أو نصوصٍ كما هي؛ فقد انتقل الكلام من الشفهي إلى المكتوب عبر تحريرٍ أمينٍ أتاح للمشاركات والمشاركين مراجعة نصوصهم، كما أتاح لنا إضافة ما يضمن وضوح الأطروحات وتوثيق الإشارات. لذلك، يَصحّ النظر إلى كلّ كتابٍ من هذه السلسلة على مستويين: وثيقةٌ تلتقط مزاج الأسئلة العربيّة الراهنة في الدين والفلسفة والعلوم الإنسانيّة، ومختبرٌ تتجاور فيه المناهج من التأويلي والتاريخي إلى النقدي والنسوي، بما يسمح للقارئ أن يكون شريكاً لا متلقّيّاً.

وبقدر ما تعنيني الموضوعات، يعنيني **أدبُ الاختلاف** الذي

تُجسّده هذه النصوص: الإصغاء الذي لا يساوي بين الآراء، والنقد الذي لا يختزل المختلفين، والاعتراف بأنَّ الحقيقة لا تُمتلك، بل تُقارب من زوايا متعدّدةٍ. إنّ تنويع الفضاءات (ندوات كتبٍ في المعارض، لقاءات زوم، جلسات حوارٍ أكاديمية) لم يكن إجراءً لوجستياً فقط، بل خياراً معرفياً يُدخل الفكرة في امتحان المجال العمومي، ويمنحها فرصة التشذيب والإنضاج.

أدينُ بالشكر لكلّ من حمل معنا هذا المشروع إلى أن بلغ صورته الراهنة: فريق العمل التحريري واللغوي والفني الذي ذُكرت أسماؤه في تقديم السلسلة، وضيوف الحوارات الذين فتحوا عقولهم وقلوبهم بسخاء. وأخصّ بالشكر الدكتور **حسّام الدين درويش** ليس فقط على مساهمته في إنجاح هذه الحوارات من خلال التحضير المنقطع النظير، وفن إدارة الحوار، بل أيضاً على يقظته التحريرية، وعلى روح التعاون التي حفظت للسلسلة وحدتها، دون أن تُفقد كلَّ كتابٍ خصوصيته.

أعرفُ أنّ ما يجمع هذه النصوص ليس اكتمال الإجابات، بل شجاعةُ توسعة الأسئلة؛ وما أرجوه من القارئ أن يتعامل معها لا كـ«نصوصٍ مؤلّفة» فحسب، بل كـ«حواراتٍ مفتوحة» تستدعي إضافته ونقده، أيضاً. فإذا شعر بعد القراءة، أنّ الأمومة يمكن أن تُكتب بغير قوالب مثاليةٍ، وأنّ الذاكرة تصلح حقلاً للفهم لا للحَنين فحسب، وأنّ تاريخ الألوهة المؤنثة ليس هامشاً في تاريخنا، بل مرآةٌ لأسئلتنا، أكون قد وفيتُ للكتاب حقّه.

الفصل الأول

ميادة كيالي
من التخطيط الهندسي
إلى تأملات الفكر والدين[1]

د. ساري حنفي - د. ميادة كيالي

د. ساري حنفي:

أهلاً وسهلاً بكم في حلقة جديدة من سلسلة بودكاست ربط البحث الاجتماعي بالمجتمع. معكم ساري حنفي، مدير مركز الدراسات العربية والشرق أوسطية في الجامعة الأمريكية في بيروت، ومؤسس البوابة الإلكترونية حول الأثر الاجتماعي للبحث العلمي في

---

(1) جرى هذا الحوار في نهاية شهر يناير/ كانون الثاني 2025، في مقر مؤسسة مؤمنون بلا حدود في بيروت. وتجدون التسجيل الكامل له على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=-unkXe0WPaI.

كما تجدون النص المنشور على موقع مؤمنون بلا حدود:
https://www.mominoun.com/articles/حوار-مع-الدكتورة-ميادة-كيالي--من-التخطيط-الهندسي-إلى-تأملات-الفكر-والدين-10121

ومن العالم العربي: بوابة «أثر». ويسرّني اليوم كثيراً أن أقدّم الزميلة الدكتورة ميادة كيالي. مرحباً بكِ ميادة، ويسرّني جداً استضافتك.

د. ميادة كيالي:

أهلاً وسهلاً بك.

د. ساري حنفي:

قبل أن أبدأ، أودّ الإشارة إلى أمر يجمعنا: نحن الاثنان مهندسان مدنيّان، وهناك فارق سنتين بيننا في كلية الهندسة. هل يمكنك أن تحدثينا عن مسارك؟ كيف انتقلتِ من الهندسة المدنية إلى الاهتمام بالدراسات الدينية، والتركيز على التاريخ؟ هل يمكن أن توضحي لنا السياق الذي كان في سوريا آنذاك؟

د. ميادة كيالي:

منذ عهدٍ بعيدٍ، منذ المراهقة، كان واضحاً أنّ قلبي ينجذب إلى السؤال الديني ودوره في حياتي. السبب أنّني، وأنا في الصف الثامن الإعدادي، انتقلت إلى ثانوية «زكي الأرسوزي». يومها قررت المديرة أن تجمع متفوقات الصف السابع الإعدادي من مدارس دمشق في شعبةٍ واحدةٍ، حتى تشتغل علينا المدرسة، وتُراهن بنا على رفع مستواها، عندما نصل إلى الصفوف الثانوية. وفي تلك الأجواء التقيتُ بمدرّسة التربية الدينية «**نهيدة طرقجي**»، التي اشتهرت آنذاك بأن نصف بنات الشام تحجبن على يديها. كانت غزيرة العلم، رقيقة الصوت، تُبكينا وهي تتلو القرآن، وقد نفذت كلماتها إلى قلوبنا، لكنها، في الوقت نفسه، زرعت، في داخلي،

أولى الخيبات. كنت حريصةً على أن أدهشها بتحضيري المسبق للدروس، حيث كنت أبحث عن المعلومات، وأعرضها أمامها بفخرٍ، حتى قالت لي مرة: «آه يا ميادة، أنتِ بئرٌ عميقٌ... لكن ينقصك شيءٌ»، ثم صمتت، في إشارةٍ واضحةٍ إلى قضية الحجاب.

كنت أُحبُّ أن أدافع عن الدين وعن قيمه الجميلة، فلم أقتنع مثلاً أن قراءة القرآن ينبغي أن تقتصر على التلاوة كعبادةٍ. كنت أرى أن العبادة الحقيقية تكمن في تدبّره وفهمه. لذلك حاولت أن أقرأه بختماتٍ مختلفةٍ، ومعي ورقةٌ وقلمٌ، أدوّن فيها ما يلفتني في كل سورةٍ: قصص، حكم، وتشريعات.

ثم جاءت الحادثة التي هزّت يقيني ببعض المسلّمات: حين كان أحد أصدقاء العائلة يعلق على الحديث النبوي: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مراتٍ إحداهن بالتراب». رافضاً العمل به، فأخذت موقف المدافع وقلت: «العلم أثبت أن هناك جرثومة لا يقتلها إلا التراب». لكنه ردّ عليّ باستهزاء: «معقول يا ميادة؟ في زمن كل هذه المعقّمات والمنظفات الحديثة، لا يبقى إلا التراب ليقتل الجرثومة؟» حينها وقفت وجهاً لوجه أمام السؤال الكبير: هل مهمتنا أن نُلبس كلّ حديثٍ لباس العلم الحديث، أم إن وراء النصوص حكماً ومقاصد أبعد من التبريرات السطحية؟ منذ تلك اللحظة، بدأ داخلي يبحث عن المعنى الحقيقي، وبدأتُ أرى أنّ السؤال الديني أوسع وأعمق من الأجوبة الجاهزة التي كنّا نُلقَّنها.

ثم واصلت طريقي ودخلت كلية الهندسة المدنية. وكما تعلم،

في سوريا لم يكن الاختيار، تماماً، بيد الطالب، بل تحدده العلامات، حيث كانت الكليات العلمية تحظى بالأولوية على حساب العلوم الإنسانية. ومع ذلك، لم يكن دخولي الهندسة مفروضاً بالكامل؛ كنتُ، فعلاً، أميل إليها بما أملكه من شغفٍ بالرسم وحبٍّ للرياضيات. رفضتُ خيار الطب الذي كان يفضّله الأهل، واخترت الهندسة بقناعةٍ، ولم أندم يوماً على ذلك. وفي الكلية كان اللقاء المفصلي مع الدكتور **محمد شحرور**. في السنة الثانية درسنا معه «ميكانيك التربة»، وفي الخامسة «هندسة الأساسات». لكنه لم يكن أستاذاً تقليدياً؛ كان يربط الأرقام بفلسفة الهندسة، بمعنى البناء وهوية التربة وخصائص المواد. هذا العمق ترك في داخلي أثراً كبيراً، وأسهم، لاحقاً، في تحوّلي من الحسابات الهندسية إلى عوالم الفكر والتأمل الفلسفي.

د. ساري حنفي:

ما أثار انتباهي هو مدى إخلاصه للتعليم، وإلى آخره، لكن لم ألاحظ اهتماماته الثقافية الأخرى التي تتجاوز الهندسة. لذلك، عندما صدر كتاب: «القرآن»، كتابه الأول، شككتُ: هل هو نفسه؟ أم لا؟ لكنني أعتقد أنني أذكر جيّداً، كان مكتوباً على الغلاف الدكتور المهندس محمد شحرور، فعرفت أنه هو نفسه. واشتريتُه وقتها.

د. ميادة كيالي:

نعم. بعد تخرّجي عام 1986 من كلية الهندسة المدنية، كان

لقائي مع الدكتور **محمد شحرور** يتجدّد دائماً؛ إذ إن مكتبه كان يقع خلف بيت أهلي مباشرةً، فكنت أراه في طريقي بشكلٍ مستمرٍّ، وأسلّم عليه. بعد التخرّج، عملت، مباشرة، في شركة «**جبل قاسيون**» ولمدة سنتين، ثم انتقلت إلى مخبر محافظة دمشق، وهو المكان الذي شكّل المرحلة الأخيرة في عملي الهندسي قبل أن أترك المجال. وفي المخبر تعرفت عن كثب على واحد من أهم الأقسام الحيوية في العمل الهندسي واكتسبت من خلاله خبرة واسعة؛ خاصة وأنَّ مخبر المحافظة كان المرجع المعتمد للمشاريع الكبيرة في دمشق، لتصديق نتائج عينات مواد البناء، والخلطات الخرسانية، والأسفلت، وكل ما يتعلّق بميكانيك التربة.

كان مكتب الدكتور **شحرور** من أهم المكاتب التي تُصدر تقارير التربة، ولذلك كان يتردّد على مخبر المحافظة باستمرارٍ. كنا وصديقتي المهندسة **جيهان** والكيميائية **رغدة** نعمل معاً في غرفةٍ واحدةٍ، وكان الدكتور **شحرور** يقضي معنا وقتاً طويلاً، يفتح النقاشات، ويطرح علينا أسئلةً جريئةً في العقيدة، والعبادات، والمحرمات، بل حتى في معنى الإيمان نفسه.

في تلك الفترة؛ أي ما بين 1988 و1990، لم أكن أدرك إطلاقاً أنّه يشتغل على مشروعٍ فكريٍّ متكاملٍ سيُحدث كلّ هذا الجدل، لاحقاً. كنا نأخذ تلك الحوارات كأحاديث ممتعةٍ ومختلفةٍ عن السائد، إلى أن علمنا، لاحقاً، بصدور كتابٍ جديدٍ له، ثم صدر، فعلاً، عام 1990. عندما قرأت الكتاب، شعرت وكأنني

وجدت ما كنت أبحث عنه في محاولاتي للتمرّد على التفسيرات التقليدية؛ وجدت صدى لأسئلتي وقلقي، ووجدت في أفكاره دعماً دفعني لأن أتحمّس أكثر، وأدخل في نقاشاتٍ علنيةٍ بكل جرأة. لقد صنع الكتاب حالةً غير مسبوقة بالفعل، وأشعل في داخلي رغبةً أعمق في متابعة هذا المسار الفكري.

د. ساري حنفي:

أنا كنت في فرنسا، لذلك لا أعلم، بالضبط، ماذا حدث، لكنني علمتُ أن محمد شحرور أقام ندواتٍ في دمشق بعد صدور الكتاب.

د. ميادة كيالي:

بمجرّد صدور الكتاب، واجه رفضاً عنيفاً. أذكر أنّ الشيخ **محمد سعيد رمضان البوطي** كان من أبرز المعترضين، حتى قيل إنه وزّع في الجوامع منشورات بعنوان «شذوذات محمد شحرور»، ويُقال إنه هو من كتبها. ومنذ تلك اللحظة، بدأ سيل الردود والكتب المضادّة. لكن بالنسبة إليّ، كنت قد استمعت إلى **شحرور** سنتين كاملتين، قبل صدور الكتاب، ولذلك كان عندي تهيؤٌ لما سيأتي. وعندما صدر، قرأت المقدمة وحدها - وكانت نحو مئتي صفحة - أربع أو خمس مرات، لصعوبتها عليّ. كنت أتساءل: كيف يمكن أن يخرج الرد بهذه السرعة؟ كيف يُكفَّر الكتاب، قبل حتى أن يُقرأ بتمعّن؟ ربما اليوم، مع وجود الذكاء الاصطناعي، يمكن لشخص أن يسرع في إعداد ردٍّ أو مراجعةٍ، لكن، في تلك الفترة، كان من

المستحيل أن تُقرأ هذه المقدمة، وحدها، في أيامٍ قليلةٍ، فضلاً عن نقدها بموضوعيةٍ. والنقد، في نظري، أمر صحّيٌّ وإيجابيٌّ، لكن الذي جرى، حينها، لم يكن نقداً بقدر ما كان إدانةً مسبقةً، أقرب إلى تكفير صاحب الكتاب من الدخول في نقاشٍ فكريٍّ جادٍّ معه.

د. ساري حنفي:

أنتِ تحاولين أن تقولي لنا إن النقد كان مبنيّاً على مبدأ «أستاذ في الهندسة، ما علاقته بتفسير القرآن الكريم؟»

د. ميادة كيالي:

كان الاعتراض المتكرر أن يقال: «ما عهدناه على موائد العلماء»، وكأنَّ المعرفة حكرٌ على فئةٍ محددةٍ. حتى عندما كنتُ أطرح أفكار **شحرور** في النقاش، كانوا يسألونني: «هل نقدر، نحن، أن نناقشك في الهندسة المدنية؟ نحن لا نفهم شيئاً في الهندسة». وكأنَّ الأمر قياسٌ على كلّ المعارف: إذا لم تكن مختصاً، فلست مؤهلاً للنقاش. وأذكر أن مدرِّسة دينٍ مشهورةٍ في دمشق، كانت تجتمع عندها نحو مئتي امرأة، قالت لي بلهجةٍ حاسمةٍ: «وكذلك نحن لا نناقش»، فأجبتها: «ولماذا لا نناقش؟ ما الذي يمنع أن أكون مهندسةً ومؤمنةً، في الوقت نفسه، وأن أقرأ كتاباً نزل بلغتي العربية؟ أليس القرآن خطاباً ورحمةً للعالمين؟ الله لم يطلب مني أن أتتلمذ، بالضرورة، على يد شيخٍ أو أن أدرس في معهدٍ دينيٍّ، بل خاطبني مباشرةً: لا إكراه في الدين، وعلى عاتقي أن أتبيّن الخطأ من الصواب».

د. ساري حنفي:

حدث انقطاعٌ، ثم ذهبتِ إلى الإمارات، كيف كان لقاؤك مع شحرور، وبدايتك، هناك؟ بدأت تعملين، عملياً، ضمن فريق مع محمد شحرور. هل يمكنك أن تحدّثينا عن هذه المرحلة؟ لأنها، في رأيي، مهمّةٌ جداً.

د. ميادة كيالي:

دعني أشير إلى المرحلة التي سبقت ذلك. فمنذ صدور كتاب **شحرور** عام 1990 وحتى عام 1994، كانت تلك سنوات الحراك الأول، حيث أُقيمت له لقاءاتٌ وصالوناتٌ فكريةٌ، وبدأ اسمه يتردّد بقوةٍ في الأوساط الثقافية. أذكر أن محاضرةً له أُلغيت في مكتبة الأسد في دمشق، بسبب الإقبال غير المسبوق؛ إذ وضعت شاشاتٌ خارج القاعة لاستيعاب الحضور الكبير، لكنهم خافوا من هذا الزخم، فألغوا المحاضرة.

بعد عام 1994، تزوجت وانتقلت إلى لبنان. ومنذ ذلك الحين وحتى عام 2006، اقتصرت علاقتي مع **شحرور** على تلقي كتبه الجديدة مع إهداءٍ شخصيٍّ منه. كنت قد انعزلت، نسبيّاً، عن الحياة الأكاديمية والفكرية، وتفرغت لتربية أولادي ورعاية أسرتي. ثم جاء عام 2006، وكان عاماً مفصلياً. فبعد حرب تموز، وما خلّفته من دمارٍ، اضطررت إلى مغادرة لبنان مع أولادي إلى الإمارات. وهناك التقيت **شحرور** من جديدٍ، في أجواءٍ يسودها احترامٌ واسعٌ لفكره. وكان هو قد بدأ التفكير جدياً في نقل مشروعه إلى اللغة الإنجليزية.

فشكّل فريقاً صغيراً، وقال لي يومها: «ميادة، هل لديك مانع أن تعملي معي؟» فأجبته على الفور: «أنا أتمنّى ذلك، وأنتظر، منذ زمنٍ، أن أعود إلى الفكر وإلى هذا الحراك». وقد بدأنا العمل معاً على تلخيص الأفكار الأساسية في كتبه الخمسة الأولى، لتُقدَّم إلى الدكتور **أندرياس كريسمان** الذي أشرف على تحريرها وصياغتها للقارئ الأجنبي، بينما تولّى الدكتور **ديل أكلمان** تقديم الكتاب.

كانت تجربةً بالغة الأهمية بالنسبة إليّ؛ لأنها لم تُعدني، فقط، إلى فكر **شحرور**، بل أعادت اكتشاف قدراتٍ أخرى في شخصيتي، شكّلتها دراستي للهندسة: القدرة على التنظيم، وإدارة الوقت، والتخطيط المتقن حتى يكتمل العمل. تابعتُ أدق التفاصيل: من التحضير، والتنسيق مع دار النشر، وتحديد مواعيد الإصدار، إلى بروتوكولات الاجتماعات مع **أندرياس** و**ديل أكلمان**، مروراً بالعمل الجماعي والتحضيرات المؤسسية لاحتضان المشروع

د. ساري حنفي:

كيف تمأسس هذا الاهتمام، من خلال «سراج»؟ هل يمكنك أن تحدّثينا عن دخولك إلى مؤسسة «سراج»؟

د. ميادة كيالي:

من خلال عملي مع الدكتور **شحرور**، انفتح أمامي أفقٌ جديدٌ: تأسيس مركزٍ يُعنى بالفكر المتنوّر، والدراسات المعمّقة، في هذا المجال الذي كنت أبحث عنه، وأحبه. هكذا وُلدت مؤسسة «**سراج**»، كمشروعٍ يقدّم الأبحاث والدراسات الفكرية. وقد كانت

التجربة غنيّةً جدّاً بالنسبة إليّ؛ إذ أُتيح لي، للمرة الأولى، أن ألتقي بمفكرين ومثقفين من مختلف أنحاء الوطن العربي. ومع بداية تكوين الشبكة الفكرية، كنت أختار الأفراد، انطلاقاً من معيارٍ بسيطٍ تبنيته من تجربتي مع الدكتور **شحرور**: إذا كان الشخص قد كوّن موقفاً من **شحرور**، سواء اتفق معه أو تحفّظ على بعض أفكاره، فهذا يعني أنه قرأه وتفاعل معه، وبالتالي يمكن أن يحمل أدواتٍ فكريةً ورؤيةً نقديةً. هذا المعيار ساعدني، في البداية، على تحديد من هم أصحاب الاهتمام الحقيقي، ومن أين يمكن أن نبدأ في بناء هذا المشروع.

د. سار حنفي:

هل يمكن القول إن مركز «سراج» كان مهتمّاً بالفكر الإسلامي المتنور، وتحديداً بتجديد الفكر الديني؟ وما علاقة «سراج» بمؤسسة «مؤمنون بلا حدود»؟

د. ميادة كيالي:

من خلال عملي في «سراج»، تعرّفت على مجموعة من الباحثين العرب الذين كانوا يملكون خلفياتٍ متباينةً ورؤىً متنوّعةً، لكن هذا التفاوت الفكري كان، بالنسبة إليّ، ثراءً حقيقياً. بعضهم انخرط في أعمال «**سراج**»، ومن خلال هذه التجربة، أدركت أنّ الحاجة لا تقتصر على صوتٍ فكريٍّ واحدٍ، بل على عملٍ مؤسسيٍّ يتّسع **لشحرور** وغيره، ولكلّ المدارس والتيارات التي تشتغل على تجديد الفكر الديني. وقد كنت قد وصلت في تلك المرحلة إلى

قناعةٍ بأنّ **شحرور** «حالة منفردة». وعلى الرغم من أنني نظرت إلى مشروعه كحلقةٍ في مشروعٍ أوسع، وحاولت أن تكون له مؤسسةً تُعطيه إطاراً جامعاً، يتسع للاختلاف والتنوع، ويتيح التعاون والتشارك في نشر الأبحاث وتداولها، فإنني تأكدت، لاحقاً، أن **شحرور** حالةٌ بحد ذاتها، متفردةٌ ومتميزةٌ ويصعب مأسستها. وهنا حدث الانفصال، وكانت الشرارة الأولى لفكرة «**مؤمنون بلا حدود**».

وقد بدأ هذا الانفتاح من خلال التعارف على أولئك الباحثين في إطار «**سراج**»، ثم اتسع، لاحقاً، إلى شبكاتٍ أكبر، حيث صار المجال أوسع لاجتماع أصواتٍ عديدةٍ تعمل، كلّها، على غايةٍ مشتركةٍ: إعادة التفكير في الدين وتجديد الخطاب الديني. وأذكر أن المفكر **جمال البنا**، نفسه، تواصل معي في تلك الفترة، بعد لقاءٍ جمعنا في مصر، وعبّر عن رغبته في أن أساعده في الحفاظ على مكتبته؛ لأنه لمس عندي هذا الهمّ الثقافي، فكان ذلك تأكيداً إضافياً لي بأن الطريق لا بد أن يكون مؤسسياً، وأن مؤسسة «**سراج**» لم تكن إلا البداية التي مهّدت لولادة مؤسسة «**مؤمنون بلا حدود**».

د. ساري حنفي:

هل يمكنك أن تقدمي للقارئ ولمن لا يعرف، من هو جمال البنا؟

د. ميادة كيالي:

جمال البنا، على الرغم من أنه شقيق حسن البنا، إلا أنه كان

على النقيض، تماماً، من توجهه الفكري. فقد كان من أوائل من فتحوا الباب أمام وجود رؤيةٍ ثانيةٍ في الفقه، وأظهر مرونةً كبيرةً في مقاربة القضايا الفكرية، وسعى إلى التخفيف من الأعباء التي كبّلت العقل الديني طويلاً.

د. ساري حنفي:

وكان أيضاً مناضلاً نقابيّاً، وله اهتمام بالسوسيولوجيا في مصر.

د. ميادة كيالي:

نعم، وله مؤلفاتٌ ضخمةٌ، ومكتبته، وحدها، كانت تحتوي على نحو أربعين ألف كتابٍ. وأذكر أنه طلب مني، يوماً، من خلال إدارتي لـ«سراج»، أن أساعده في الحفاظ على مكتبته، لتبقى منارةً مفتوحةً أمام طلاب العلم والباحثين الذين لا يمتلكون الإمكانيات. كان حريصاً على دعمهم حتى آخر لحظةٍ، سواء بطباعة أبحاثهم أو بمساندتهم ماديّاً، على الرغم من ظروفه الصعبة. لكن الحديث عن **جمال البنا** وتجربته يحتاج، لوحده، إلى تسجيلٍ كاملٍ. ولم يقتصر الأمر عليه، بل تواصل معي، أيضاً، طلاب ومحبّو المفكر السوداني الراحل **أبو القاسم حاج حمد**؛ إذ كانت هناك مخطوطاتٌ لا تزال بخط يده، ولم تُنشر بعد، فعملنا على هذا المشروع، أيضاً. وكذلك الدكتور **مصطفى بوهندي**، الذي كان يحلم بإنشاء «مركز أديان» في المغرب، وتمكنا، فعلاً، من تحقيق ذلك له أيضاً.

كنت أشعر أنني بدأت بحلمٍ صغيرٍ في «سراج»، لكنه سرعان ما اتسع، وفتح أمامنا المجال لأحلامٍ أكبر بكثيرٍ، ووفّر لنا أرضيةً

للتواصل مع مشاريع فكريةٍ متعددةٍ، ورموزاً مؤثرةً في ساحة التجديد الديني.

د. ساري حنفي:

أعدتم نشر أعمال نصر حامد أبو زيد؟

د. ميادة كيالي:

طبعاً، إعادة نشر أعمال **نصر حامد أبو زيد** جاءت، لاحقاً، مع تأسيس «**مؤمنون بلا حدود**». كانت الفكرة الجوهرية للمؤسسة أننا لسنا بحاجةٍ إلى مكانٍ جغرافيٍّ محددٍ ليجمع هذه الشبكة من الباحثين، بل يكفي فضاء العالم الافتراضي ليكون ساحة لقاءٍ وحوارٍ. هذه كانت الفكرة الأساسية: أن يكون التجمع عابراً للحدود، ومفتوحاً على الجميع.

د. ساري حنفي:

وما معنى عبارة «بلا حدود»؟

د. ميادة كيالي:

يتركب الاسم من كلمتين: «مؤمنون» و«بلا حدود». وقد استلهمنا «بلا حدود» كما في «أطباء بلا حدود»؛ أي إننا نعمل مع مؤمنين من كلّ مكانٍ، دون قيودٍ جغرافيةٍ أو فكريةٍ ضيقةٍ. وأحياناً يسأل البعض: ألا يمكن أن يُفهم الاسم وكأنكم «ملحدون»؟ فأجيب: بالتأكيد لا، على العكس تماماً. نحن «مؤمنون بلا حدود»؛ أي مؤمنون بخيرية الإنسان، وبقدرته على صنع الخير، ومؤمنون بالقيم والأخلاق، وبأهمية احترام الاختلاف والتعددية.

هذه هي الرسالة التي أردنا أن يحملها الاسم، منذ البداية. وفي الحقيقة، كان «**بلا حدود**» انعكاساً لطموحنا أيضاً: أن يكون للفكر أفقاً يتجاوز الجغرافيا، وأن يتحرّر من كل القيود التقليدية، ليصل إلى كلّ مكانٍ، ولكل من يبحث عن المعرفة.

د. ساري حنفي:

وهذا هو ما جعلكم تفتحون أبواب العلوم الاجتماعية، فلو قمتُ بتحليل مضمون موقع «مؤمنون بلا حدود»، أجد فيه جانباً يتعلق بفلسفة الدين وسوسيولوجيا الدين، لكن هناك، أيضاً، جانباً يتعلق بفهم النظريات الحديثة في علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والفلسفة. هذا ما جعلكم تفتحون بما يتجاوز العلاقة التقليدية بين العلوم الاجتماعية والإنسانية والدين، أليس كذلك؟

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ. نحن انطلقنا من قناعةٍ أنَّ الدين حاضرٌ في كل العلوم الأخرى، ولا سيما بالنسبة إلى العقل العربي. فالدين، عندنا، ليس مجرد حقلٍ مستقلٍّ، بل عنصرٌ رابطٌ يتخلل السياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة. لذلك سعينا إلى دراسة هذه العلاقات المتقاطعة: كيف يتفاعل الدين مع السياسة، كيف يتداخل مع الاجتماع، كيف ينعكس في التاريخ، وكيف يُقرأ في الفلسفة، حتى نبني دراساتٍ أكثر عمقاً وشموليةً. وإلى جانب ذلك، أولينا عنايةً كبيرةً بالترجمة؛ لأننا أدركنا أن أي مشروعٍ فكريٍّ لا يكتمل إلا بالاطلاع على منجزات الفكر العالمي. فخصصنا جزءاً كبيراً من

عملنا لترجمة أمهات الكتب إلى اللغة العربية، حتى وصلنا، في مرحلةٍ من المراحل، إلى أن يشكّل الإنتاج المترجم نحو 25% من مجمل ما نشرناه.

د. ساري حنفي:

لاحظت من الأسماء التي استكتبتموها، أن هناك أسماءً كانت، قبل سنواتٍ قليلةٍ، مغمورةً، وواضحٌ من سيرهم الذاتية، ومن تعريفهم، أنهم شبابٌ يحملون ماجستيراً، وبعضهم كانوا في طور إتمام الدكتوراه أو تخرجوا قبل سنةٍ أو سنتين، ثم صاروا، لاحقاً، نجوماً، أو، على الأقل، صاروا أساتذةً. هل هذا التوجه باتجاه الشباب كان مقصوداً؟ هل هذا حدث صدفةً، أم لأن الشباب، وخصوصاً طلاب الدكتوراه، كما تعلمين، هم من يجددون المعرفة؟ حدثينا عن هذه النقطة، بوصفها نقطةً ميزت مؤمنون بلا حدود.

د. ميادة كيالي:

إن أيّ متابع للندوات الحوارية التي نقدّمها منذ سنواتٍ، أنا والدكتور **حسام الدين درويش**، لمناقشة الكتب والمشاريع الصادرة عن «**مؤمنون بلا حدود**»، سيلاحظ أنني، كثيراً، ما أتوقف عند أسماء مؤلفين تعرّفت عليهم منذ عام 2008؛ أي حتى قبل تأسيس مؤسسة «سراج». كان بعضهم، حينها، في مرحلة الماجستير، وآخرون في طور إعداد الدكتوراه، ثم واصلوا مسيرتهم البحثية. جزءٌ منهم استمر معنا، وفتحنا لهم المنصة ليظهروا من خلالها،

فنضجت أبحاثهم، وتحوّلوا، لاحقاً، إلى أساتذةٍ وباحثين معروفين. ولقد حرصنا على ذلك، بشكلٍ واعٍ. صحيحٌ أننا لم نهمل الأسماء المخضرمة ذات الحضور والسمعة، وكان لدينا، بالفعل، تعاونٌ مع مفكرين كبارٍ، لكننا، في الوقت نفسه، أصررنا على أن نمسك بيد الجيل الجديد. أنشأنا جوائز بحثيةً، وأفسحنا المجال للباحثين الشباب الذين لم يكن لهم حضور يُذكر، ووجدنا أن بعضهم قدّم دراساتٍ وكتباً مهمةً فعلاً، وبرز، من خلال المؤسسة. ومع الوقت، بدا وكأننا أسسنا عائلةً فكريةً أو تياراً كاملاً، أصبح معروفاً باسم «**تيار مؤمنون بلا حدود**»، وانتشر حضوره في المغرب، وتونس، ولبنان وحتى سوريا. وأذكر أنه حين عدت إلى سوريا، بعد غيابٍ طويلٍ، إذ كانت آخر زيارةٍ لي عام 2009، فوجئت، عند عودتي في بداية العام، بأنهم يعرفونني جيداً، وكأنني لم أغب؛ لأنَّ حضوري كان قائماً من خلال «**مؤمنون بلا حدود**». لذلك، يمكن القول إنَّ تركيزنا على جيل الشباب كان خياراً استراتيجيّاً، وهو ما ميّز المؤسسة فعلاً، وجعل كثيراً من المقالات والدراسات تُكتب عنا، بوصفنا مؤسسةً منفتحةً على الطاقات الجديدة، وراعيةً لجيلٍ جديدٍ من الباحثين.

د. ساري حنفي:

أودّ العودة إلى الحديث عن «مؤمنون بلا حدود» حتى آخر نقطةٍ، لكن لا أريد أن أفقد مرحلةً مهمةً في حياتك؛ فأنتِ رياديةٌ في مجال البحث، وباحثةٌ أولاً، وأيضاً روائيةٌ (سأترك الحديث عن

الروايات إلى مرحلةٍ لاحقةٍ). لكن أريد أن أتحدث، الآن، عن لحظة البحث العلمي؛ اهتمامك بقضايا المرأة العربية، ووضعها في سياقها التاريخي، وأنتِ أتممتِ الماجستير والدكتوراه في الحضارات القديمة. هل يمكنك أن تحدثينا، قليلاً، عن سبب قيامك بذلك؟ وأريد أن أعرف، أيضاً، هل شعرتِ، وأنتِ ترسمين مسارك كباحثةٍ رائدةٍ، أنكِ واجهتِ تقبلاً مختلفاً عما لو كنتِ رجلاً؟ حدثينا عن هذه المرحلة من شغلك وحياتك.

د. ميادة كيالي:

لا أنكر أنني، في بدايات تأسيسي لمركز «**سراج**»، قلتُ للدكتور **محمد شحرور**، رحمه الله، إنني أتمنى أن أكمل دراساتي العليا بفكره، وربما أنجز أطروحة دكتوراه حول مشروعه. عندها أجابني: «هذا ضروريٌّ جداً. أنتِ تديرين مركز دراساتٍ فيه دكاترةٌ، ويجب أن تكوني أنتِ، أيضاً، حاملةً لشهادة دكتوراه». كان **شحرور** يرى أن إدارة البحث والباحثين تتطلب أن أحمل الدرجة العلمية نفسها، بينما كان شغفي بالحصول على الدكتوراه يعود، بالأساس، إلى أمرين: أولاً، تلبية حلم والدتي، رحمها الله، التي كانت تتمنى أن أتابع مساري الأكاديمي حتى نهايته. وثانياً، رغبتي العميقة في إنجاز دراسةٍ علميةٍ متكاملةٍ عن مشروع **شحرور** نفسه. هو، رحمه الله، لم ينتبه، ربما، إلى أن ما أملكه من مهاراتٍ، في الإدارة والتنظيم، لا يرتبط، بالضرورة، بالشهادات العليا، بل هو جزءٌ من تكويني الشخصي والمهني. ومع ذلك، ظلّت كلماته، بالنسبة إليّ،

دافعاً إضافياً، وحافزاً، جعلني أرى أن طموحي الأكاديمي لا يتناقض مع خبرتي الإدارية، بل يكملها.

د. ساري حنفي:

بما أن الموضوع سوسيولوجيٌّ، يهمنا أن نعرف: ماذا كانت تعمل والدتك؟ هل كانت متعلمةً؟

د. ميادة كيالي:

أمي، رغم أنها لم تكن متعلمةً، كانت تُعظّم العلم وتقدّس قيمة العمل. وحين تعرّض والدي لحادثٍ جعله غير قادرٍ على العمل كما يجب، وقفت بجانبه، وتعلمت مهنة الخياطة، ثم فتحت مشغلاً صغيراً، بالتعاون مع خياطٍ لبنانيٍّ مشهورٍ كانت تخيط ثيابها عنده. بجهدها هذا دعمتنا حتى أنهينا دراستنا الجامعية. كانت تؤمن أنَّ التعلّم لا يرتبط بعمرٍ محددٍ، وتردد دائماً: «مهما كان عمركِ، إذا بقي لك يومٌ واحدٌ في حياتك، تستطيعين أن تتعلمي فيه شيئاً جديداً، فيجب أن تتعلمي؛ لأنكِ لا تعرفين ما الذي سيحدث في المستقبل، ومتى تحتاجين ما تعلمتيه». وأذكر أنها، قبل وفاتها بعشرين يوماً فقط، عام 2003، وكانت تقيم عند أختي في الإمارات، قالت لي جملةً ظلت محفورةً في قلبي وعقلي، حتى اليوم: «أنا لم يحزني شيءٌ في مسارك، يا ابنتي، إلا أنك تركتِ استكمال دراستك العليا». فأجبتها بأنني لم أملك الوقت الكافي، وأنَّ تفرُّغي لأولادي وأسرتي كان على حساب كل طموحاتي الأخرى. فقالت لي: «ليست **ميادة**، من لا تستطيع أن تجمع كل

تلك الأشياء معاً»، ثم أضافت: «إذا جاء الإنسان إلى هذه الحياة، ورحل دون أن يترك شيئاً يتذكره الناس بعده، كأنَّه لم يولد ولم يعش». وقد كانت تلك آخر وصاياها لي، وقد صنعتني بحقٍّ. بعد رحيلها، وجدت نفسي أستعيد جزءاً من **ميادة** عبر الكتابة؛ فبدأت أنشر مقالاتٍ في جريدة «العصر» اللبنانية ما بين 2004 و2006، وكانت بمثابة طوق نجاةٍ أعادني إلى الحياة، وجعلني أشعر أنني موجودةٌ. ومع مرور الوقت، كونت لي حضوراً بين أهل زحلة، وأسمع كثيرين منهم يقولون لي: «قرأنا مقالتك، أحببناها، وجدنا فيها ما نحتاجه، ننتظر بشوقٍ العدد القادم».

أما والدي، فكان ينتمي إلى عائلة «**كيالي**» الشهيرة بالعلماء والشعراء ورجال الدين. ومن بينهم وزير الثقافة **حسن كيالي**، والأستاذ **عبد الرحمن كيالي** صاحب «**دار الكيالي للمطبوعات**»، التي تم تأميمها، لاحقاً، للأسف. وكان والدي، بحكم عمله مع ابن عمه عبد الرحمن، بعد تقاعده من الجيش، قد أغرق بيتنا بالكتب. أتذكر أنني، وأنا في الصف الرابع أو الخامس الابتدائي، وجدت بين يديّ كتاب «**هكذا تكلم زرادشت**»، وحاولت أن أقرأه. الجو الفكري في بيتنا، بين الكتب والمكتبة والقراءة، شكّل البذرة الأولى لمساري العلمي والفكري.

د. ساري حنفي:

كان مسارك، هابيتوس على الطريقة البوردية إذا حللنا الأمر. لماذا موضوع المرأة؟

د. ميادة كيالي:

جاء اختياري لموضوع المرأة بصورةٍ شبه عَرَضيةٍ، عبر بوابة دراستي للتاريخ؛ ففي عام 2010، حاولت الالتحاق بماجستير «**تاريخ الفن والمتاحف**» في «**جامعة السوربون**» بأبو ظبي. كنت مؤهلةً من حيث الكفاءة، لكن القبول كان محدوداً جداً، والدراسة النهارية الكاملة لم تكن ممكنةً بالنسبة إليّ؛ إذ كنت أدير مؤسسةً، وأتنقل كثيراً في السفر، وأتابع تربية توأمي وحدي. ومن هنا كان الخيار العملي هو الانضمام إلى جامعةٍ افتراضيةٍ أكثر مرونةً. ولم أبحث طويلاً، فبحكم عملي في مؤسسة «**سراج**»، التقيت بالدكتور **خزعل الماجدي**، الباحث المتخصص في علم الأديان والحضارات القديمة، فشجعني على خوض التجربة عبر مؤسسته الجامعية في هولندا، ويكون هو الأستاذ المشرف على دراستي في الماجستير والدكتوراه. وقد ساعدني نظام الجامعة على خوض سنةٍ تحضيريةٍ لتعويض الفارق بين الهندسة المدنية والعلوم الاجتماعية، ثم التحقت ببرنامج الماجستير.

في السنة الأولى، كلَّفني الدكتور الماجدي ببحثٍ تحضيريٍّ عن **دور المرأة في الحضارة السومرية**. وهنا اكتشفت كنزاً حقيقياً: تاريخاً غنيّاً كانت فيه المرأة كاتبةً وقاضيةً وعازفةً وشاعرةً وموظفة حساباتٍ في القصور، بل حاكمةً ومحاربةً، أيضاً. وكانت هذه الومضة الشرارة التي أطلقت شغفي بالحضارات القديمة، وكلما تعمقت أكثر، ازداد إعجابي بثراء التجربة الإنسانية للمرأة في تلك العصور. وفي السنة الثانية، وضعت خطة أطروحتي، وكان

موضوعي الأساسي هو البحث في «**تاريخ النساء**». لم يكن مجرد بحثٍ أكاديميٍّ بالنسبة إليّ، بل شعرت أنه امتدادٌ لتاريخي وتاريخ جداتي، وتاريخ والدتي رحمها الله، تلك المرأة البسيطة التي لم تكمل تعليمها، لكنها كانت تملك من القوة ما يكفي لتربّي سبعة أبناءٍ، وتدعم زوجها، وتقيم أسرةً متماسكةً.

كان البحث، بالنسبة إليّ، بحثاً عن نفسي أيضاً، وعن إرثي الشخصي. وهنا لعب د .**خزعل الماجدي** دوراً مهماً في دعمي؛ ليس على الصعيد الأكاديمي فحسب، بل، أيضاً، حين كان يُذكّرني، دائماً، بأهمية أن أبذل أقصى طاقتي، وألا أسمح لمسؤولياتي الكثيرة أن تضعف عزيمتي. أذكر أنه قال لي مرةً، حين لم يكن عطائي الأكاديمي على قدر طموحي: «هذا ليس عمل ميادة المهندسة. أنتِ مهندسةٌ يا ميادة، وتمتلكين عقلاً هندسيّاً رياضيّاً، والمطلوب أن تشتغلي بذات الجدية والطاقة». هذه العبارة أعادتني، مباشرةً، إلى وصايا والدتي، فبكيت يومها، وأدركت أن المسار الذي اخترته كان وفاءً لها واستمراراً لقوتها في داخلي.

د. ساري حنفي:

كان للهندسة أثر واضح عليك، كما يتجلّى في عنوان كتابك الثاني «هندسة الهيمنة على النساء: تاريخ الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة»؟

د. ميادة كيالي:

نعم وبكل تأكيدٍ، فالعنوان ذو وجهين؛ من جهةٍ، استعدت فيه

حضور الهندسة كمفردةٍ، ومن جهةٍ أخرى، حضورها كفعلٍ يشي بأنَّ هناك تخطيطاً لما حصل في التاريخ القديم. وهنا لا بد أن أتوقف عند صدور كتابي الأكاديمي الأول «**المرأة والألوهة المؤنثة**»، الذي هيأ للكتاب الثاني «**هندسة الهيمنة على النساء**»، فبعد أن أنهيت الماجستير، أتذكر أن مدير **المركز الثقافي**، الأستاذ وصديقنا العزيز **بسام الكردي**، طلب مني إرسال الأطروحة ليطّلع عليها، وبعد الاطّلاع، قال لي إنّه يتشرف بطباعتها ككتاب؛ لأنها بحثٌ رصينٌ يستحق ذلك.

د. ساري حنفي:

عذراً على المقاطعة، أنت تتحدثين عن مدير المركز الثقافي العربي؟

د. ميادة كيالي:

نعم، كان السيد **بسام الكردي** يدير، حينها، «**المركز الثقافي العربي**»، ونشرنا معه حوالي مئة عنوان كنشرٍ مشتركٍ مع مؤسسة «**مؤمنون بلا حدود**». قبل أن يؤسس «**المركز الثقافي للكتاب**»، ونطلق، نحن، دار نشر «**مؤمنون بلا حدود**». **وأيضاً**، جاءني تشجيعٌ من المفكر والفيلسوف الدكتور **فهمي الجدعان**، الذي بعث لي رسالةً إلكترونيةً شجّعني فيها على طباعة الكتاب، وتحويله إلى كتابٍ ورقيٍّ. فتولّد لديّ شعورٌ بالرضا عن الإنجاز الذي حققته في تلك الظروف، لكنني أعترف أنني تكاسلت قليلاً عن متابعة الدكتوراه. ليأتي الصديق الدكتور **موسى برهومة**، أستاذ الإعلام

لدى «**كلية محمد بن راشد للإعلام**» في «**الجامعة الأميركية في دبي**»، وعمل معنا لسنواتٍ في «**مؤمنون بلا حدود**»، ليشجعني، وبقوةٍ، على مواصلة الدراسة، وعدم التوقف عند أعتاب الماجستير، كما شجعني على الاستمرار في الموضوع نفسه الذي بدأته؛ أي تاريخ المرأة، وكل ما يتصل بها. قال لي: «هذا ملعبك، حرامٌ أن تتركيه». نعم شكري العميق هو للدكتور **موسى**؛ لأنَّه كان المشجّع الأكثر إلحاحاً عليّ، لمتابعة موضوع الدكتوراه، لإيمانه الحقيقي بجهدي وإرادتي في الاستمرار. وفعلاً، أكملت الدكتوراه، بعد أن أتمَّ أولادي مرحلة البكالوريا عام 2017 بنجاح، وحصلت عليها في أوائل 2018، وكانت أطروحتي في هذا الموضوع، وبعنوانٍ دخلت فيه الهندسة كما أشرت د .**ساري**.

بالنسبة لي، تعني كلمة «الهندسة» أن هناك مخططاً في التاريخ، ورغبةً في تشكيل وسحب البساط من تحت المرأة والسيطرة عليها، بعد أن كانت تمتلك جميع أسباب القوة، وتشكل المجتمع الأبوي بما فيه من مؤنثٍ ومذكرٍ. وفي علم الاجتماع، يقولون إن الصورة التي تمثل الشخص الحاكم على الأرض يقابلها، في الميثولوجيا، إلهٌ متناغمٌ مع جنس المسيطر على الأرض، وهذا صحيحٌ؛ فالمرأة كانت تملك ثروات المعابد، وكان النسب يُنسب إليها، وكانت المسؤولة الأولى، وهي صاحبة اكتشاف الزراعة، التي كانت أول ثورةٍ في التاريخ على يدها. لقد كانت المرأة الحامية للنار، ومبتدعة الصناعات الحرفية الأولى التي بدأت من بين يديها، ليس هذا

فحسب، بل شهدت رسوم الكهوف، التي كان المؤرخون يطلقون عليها اسم «معابد الإنسان القديم»، على تواصلها مع العالم القدسي. وتشير بعض الأبحاث إلى أن 75% من بصمات الرسومات في الكهوف - المعابد تعود إلى النساء. وقد نشرت مجلة **ناشيونال جيوغرافيك**، بالتعاون مع جامعة أمريكية، هذا البحث المهم، وكأنَّ المرأة هي التي رسمت المشاعر الأولى للتواصل مع العالم القدسي وعبّرت عن محاولة فهم فعل الخلق، بعد أن اختبرته أيضاً، وعاشته في جسدها.

د. ساري حنفي:

هل أثر اهتمامك بالمرأة وبالنسوية، وعملك على الدراسات الدينية وتجريد الفكر الديني، في تفكيرك في النسوية الإسلامية من أمينة ودود إلى سيليني في تونس، إلى آخره؟ هل فكرت في هذا الموضوع؟ هل فكرت كيف يمكن أن تتخذي هذا المسار المهم، الفكري والمهني، في لحظةٍ، لنقل، راهنةٍ ومليئةٍ بالإشكاليات المعاصرة واليومية؟

د. ميادة كيالي:

نعم، فكرت في هذا الموضوع بجديةٍ، خاصة بعد عام 2020، حين جاءت جائحة كورونا لتضع حدّاً لمسار «**مؤمنون بلا حدود**» كمؤسسة بحثية، وتحوّلت التجربة إلى طورٍ آخر من خلال دار النشر، التي واصلت حمل إرثها. لكنها لم تكن دار نشرٍ عاديةٍ، بل عملت على الكتاب بوصفه مشروعاً معرفياً متكاملاً: من التحكيم

والمراجعة العلمية، إلى الإخراج والنشر، ثم مرافقة الكتاب بندواتٍ ومناقشاتٍ. وبهذا المعنى، صار النشر، نفسه، فعلاً من أفعال إنتاج الفكر.

وفي هذا السياق، أدركت وجود ما يشبه «العداوة المبطّنة» بين الدراسات الدينية والدراسات النسوية. فبمجرد أن أقدم نفسي كنسويةٍ، أشعر وكأن بعضهم يراني في مواجهةٍ مع الدين، وعلى المقلب الآخر، وداخل الأوساط النسوية، هناك من يرفض أصلاً فكرة وجود «**نسوية إسلامية**»، وكأنها تناقضٌ ذاتيٌّ. أرى في ذلك إجحافاً كبيراً؛ لأنَّ واقعنا العربي، سواءٌ المحافظ أو العلماني، وكأنه لا يسمح للنسوية أن تتواصل مع الدين، الذي يشكل عنصراً مركزياً في الوجدان الجمعي وفي الحياة اليومية.

أنا أؤمن بوجود نماذج مشرّفةٍ لنساء يمكن اعتبارهن **نسوياتٍ إسلامياتٍ**، سواء ممن رحلن، أو ممن ما زلن بيننا. أذكر هنا، مثلاً، **عفراء جلبي**، التي أراها تجسِّد هذا التيار، وتشتغل عليه، بوعيٍ ومسؤوليةٍ. فلماذا نضع حداً فاصلاً، ونقول: «لا وجود لنسويةٍ إسلاميةٍ»؟ ولماذا نُقرّ، ضمنياً، أن الدين والنسوية على طرفي نقيضٍ؟ بالنسبة إليّ، يمكن أن يلتقيا، بل يجب أن يلتقيا؛ لأنَّ أي نسويةٍ، في فضائنا العربي والإسلامي، لا يمكن أن تتجاهل الدين، بوصفه مكوّناً أساسياً في وجدان الناس وحياتهم.

د. ساري حنفي:

أنا مسرور لأن «مؤمنون بلا حدود» أتاحت تسليط الضوء على

عمل عفراء جلبي، التي، عملياً، ليست معروفةً كثيراً في العالم العربي، فهي تقيم في كندا. وبالمناسبة، لمن لا يعرف، فهي ابنة أخت الشيخ جودت سعيد، وابنة خالص جلبي.

د. ميادة كيالي:

هي من أوائل النساء اللواتي أَمَمْن المصلّين في صلاة العيد، وكانت إمامةً وخطيبةً، وتمتلك خطاباً مؤثراً جداً، يسعدني أن أستمع إليه دائماً. وأذكر أنني سمعت عنها أول مرةٍ من الدكتور **محمد شحرور** - رحمه الله - حين قال لي: «ميادة، هل سمعتِ عن عفراء جلبي؟ لقد خطبت في صلاة العيد وأمّت الناس». أظنّ أن ذلك كان عام 2009 تقريباً. كان **شحرور** معجباً جداً بالشيخ **جودت سعيد**، خالها، الذي وصف **شحرور** قائلاً إنه: «**نيوتن العرب**». وبالنسبة لنا، نحن السوريات، فقد عشنا الكثير من الغبن في حقوقنا، بسبب ظروف البلد والتشرذم الذي طالنا. كثيرات منّا وجدن أنفسهنّ في الشتات، ما انعكس على ضعف الاشتغال بالإنتاج الفكري السوري عموماً، والنسوي خصوصاً. لذلك أشعر، اليوم، أن من واجبي أن أركِّز أكثر على هذا الاجتهاد النسوي. والشيء بالشيء يُذكر: إن غياب الدولة والمراكز الفكرية جعل الناس يجدون بدائلهم في الفضاءات الصغيرة؛ حتى مجموعات «الواتساب» تحولت، عند كثيرين، إلى ما يشبه «العالم الآمن»، حيث يبحث كل فرد عن مجموعةٍ ينتمي إليها، ويعيد من خلالها تشكيل هويته.

د. ساري حنفي:

تعلمين، أنا من جلب «الكتاب والقرآن» للشيخ جودت سعيد. كنت أزوره في «بير عجم». ولدي صديقٌ من السعودية اسمه صفوان النوشري، وكنا نذهب معاً لزيارته. وأتذكر أننا حملنا له كتباً لمحمد عبد الجابري ولحسن حنفي، وهكذا. طبعاً، كان يعرف كلاسيكياتٍ أخرى، لكن نحن حملنا له هذا النمط من الكتابة الدينية؛ لأننا كنا في العاصمة، ونعرف من هم المفكرون الجدد. آسف، كان هذا مجرد تعليق بين قوسين.

د. ميادة كيالي:

جميل هذا التقاطع بيننا. وأعود إلى فكرة **الواتس آب**، حيث صرنا نتوجّه إلى بعضنا البعض، وتنشأ معرفةٌ وثيقةٌ بيننا، قدر الإمكان. بعض الندوات لم تكن تُسجَّل مطلقاً، ومع ذلك كانت في غاية الأهمية. في إحدى هذه الندوات، تعرّفت على العزيزة **رحاب شاكر**، وهي مترجمةٌ بارزةٌ في هولندا أسست فضاءً ثقافياً سمّته «**بيت النرجس**»، فيه أقسامٌ عدةٌ: قسمٌ للقراءة النسوية، وقسمٌ للقراءة العامة مثل الروايات، وقسمٌ ثالثٌ خصصته لتجديد الفكر الديني وقضايا المرأة. وقد دعتني **رحاب** إلى هذا الفضاء، قائلةً: «أعتقد أن لديك ما تضيفينه هنا، ما رأيك؟» أجبتها بما يُشبه المثل: «اروِ عذرك ولا تروِ بُخلك». شرحت لها أن وقتي مزدحمٌ للغاية، لكنني سأشارك، ولو بقدرٍ يسيرٍ، لأتعرف على هذا الحراك. ومن خلال «**بيت النرجس**»، تعرّفت على الدكتورة **عفراء**، وكذلك

على الدكتورة **نعمت برزنجي**، صاحبة الكتابات المهمة والتأويلات المبتكرة للنصوص، والتي تُعد من الأصوات النسوية الإسلامية البارزة. وفي المقابل، قدّمتُ لهنّ بدوري مفكرين آخرين من تيار التجديد. كان هذا التبادل أشبه بجسرٍ حيٍّ بين دوائر مختلفة، جمعنا على قضايا المرأة والفكر الديني، ومنحنا طاقةً جديدةً للعمل.

د. ساري حنفي:

أنتِ باحثةٌ سوريةٌ، قادمةٌ، حديثاً، من زيارة سوريا. أولاً: ما هي مشاعرك في أول زيارةٍ بعد «تحرير» سوريا؟ وثانياً: هل هناك مشاريع مستقبليةٌ لسوريا؟ نحن، جميعاً، اليوم، يجب أن نكون ورشات عملٍ، ونفكر في كيفية الانتقال نحو مرحلة انتقالٍ ديمقراطيةٍ حقيقيةٍ مدنيةٍ، إلخ. فهل يمكنكِ أن تحدثينا عن ذلك؟

د. ميادة كيالي:

حين كتبتُ على «فيسبوك» عن زيارتي الأخيرة إلى سوريا، قلت إن إحساسي كان أشبه بإحساس أمٍّ تُستدعى لاجتماع أولياء الأمور في المدرسة. تجلس أمام هيئة التدريس، كل أستاذ يحدّثها عن جوانب القصور، وما ينبغي أن يُبذل من جهدٍ. وهي، بوصفها أمّاً، تحضر محمّلةً بالمسؤولية، وتشعر بأنها وحدها معنيّةٌ بمستقبل هذا الطفل الذي هو أغلى ما تملك، حتى لو كان بين أيادٍ أمينةٍ. لكنها، وحدها، تشعر بالمسؤولية تجاهه. وهذا، بالضبط، كان شعوري تجاه سوريا. بلدٌ يشبه روحي. كثيراً ما سُئلت: هل ستعودين إلى سوريا؟ وكنت أجيب بلا تردّدٍ: مستحيلٌ، طالما أن ذلك المجرم

هناك، لم يكن عندي استعدادٌ أن أرى وجهه في الوطن، حتى لو رُفع الحظر عنه.

عندما عدت، بعد سنواتٍ طويلةٍ، وجدت نفسي أشعر بحريةٍ لم أعرفها من قبل. تحدثت مع أصحاب المحال التجارية، ومع سائقي سيارات الأجرة، دون خوفٍ من أن يكون أحدهم عنصراً للمخابرات، كما كان في الماضي. اكتشفت أن الناس، على الرغم من كل الدمار والعذاب، ما زالوا يحتفظون بروح التفاؤل. والأجمل أن جيل الشباب بدا أكثر تفاؤلاً منا، نحن جيل النكبات. تراهم في الشوارع حيويين، منفتحين على وسائل التواصل، مدركين لما يجري من حولهم، وأحلامهم تبدو ممكنةً. نحن انتظرنا نصف قرنٍ، وأكثر، لنرى بارقة أملٍ. أما هم، فلديهم، اليوم، فسحةٌ أوسع للحلم وصناعة المستقبل. لا شيء، بالنسبة إليّ، كان يعادل عودتي وعودة صوتي معي، فلا أصعب من أن تولد وتعيش من دون حنجرةٍ.

د. ساري حنفي:

أنا مسرورٌ؛ لأنني شاهدت ثلاث ندواتٍ نظمتها مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، بالتعاون مع المستشار والصديق حسام الدين درويش، الفيلسوف السوري المهم، وكانت حول سوريا ومعناها. فعلاً، نحن الآن في الجامعة الأمريكية، أُعدّ مع زميلتي ريما ماجد سلسلة عن «سوريا ما بعد الأسد». نشعر وكأننا في انتظار انطلاق حوارٍ وطنيٍّ، يمكننا من خلاله أن نقيم مؤتمراً، وربما مؤتمراً

سياسياً. المقصود أن من واجبنا أن نستمع إلى بعضنا، وأن نستمع إلى الاتجاهات المختلفة، ريثما يحدث شيءٌ رسميٌّ في سوريا. سأكمل سؤالي لكِ، ميادة: هل ستواصلون العمل في هذا المجال؟

د. ميادة كيالي:

بالتأكيد، نحن، في «**مؤمنون بلا حدود**» سنواصل هذا العمل، لقد نظمنا، حتى الآن، ثلاث ندواتٍ. الأولى كانت بعنوان «سوريا الحاضر والمستقبل: بين الآلام والآمال[1]». أما الندوتان التاليتان فخصّصتا جانباً مهماً لموضوع المرأة[2]، انسجاماً مع الحراك الراهن. وهذا طبيعيٌّ؛ لأن المرأة ستكون عنصراً أساسياً في المرحلة المقبلة. لا يمكن اليوم القبول بإقصائها، أو إعادة إنتاج التنميط بحقها، فهذا زمنٌ قد انتهى. فالمرأة، في هذه السنوات العصيبة، لم تكن أمّاً فقط، بل حملت، أيضاً، أدوار الأب والراعي والحامي والمعيل معاً. لهذا، فإن حضورها ليس خياراً، بل ضرورة.

وأسمح لنفسي أن أشارك تجربةً شخصيةً: في عام 2017، عندما عاد معرض الكتاب بعد انقطاع طويل ليقام في مكتبة الأسد بدمشق، كنت مترددة جداً في المشاركة من عدمها. جزءٌ مني كان يميل إلى مقاطعته، كما فعلت دور نشرٍ كثيرةٌ، لكنني شعرت، في

(1) https://www.youtube.com/watch?v=RVjL-w9X9Mw

(2) الندوة الأولى https://youtu.be/RVjL-w9X9Mw?si=DI-JkaCodjHl64Kg
الندوة الثانية https://youtu.be/x5JvHAAHcfs?si=03sIIyMUe8SEeeEP

الوقت نفسه، أن من واجبي أن أشارك. قلت لنفسي: «إدخال كتب **مؤمنون بلا حدود** إلى سوريا أهم من غصتي الشخصية»، فابتلعتها وشاركت. فعلت ذلك لعامين متتالين، كنت أعلن عن مشاركتي فيه بوصفه «**معرض دمشق للكتاب**»، وليس «معرض مكتبة الأسد للكتاب» كما هو اسمه، ثم توقفت عن المشاركة بعدها، بعدما اعتبرت أن الغاية قد تحققت، وهي: وصول الكتاب إلى القارئ السوري.

أعرف حجم العطش للكتاب، اليوم، في سوريا، وقد عايشت حرمان الكثيرين من الحصول عليه، وحتى بالتهريب لم يكن ممكناً. لهذا، أعتبر أن أقلّ ما أستطيع فعله، اليوم، هو أن أقدّم هذا المخزون من الكتب الذي بين يديّ إلى الجامعات والمراكز الثقافية، بكل الأشكال الممكنة. هذه مساهمتي المتواضعة، لكنها، بالنسبة إليّ، واجبٌ أخلاقيٌّ وثقافيٌّ.

د. ساري حنفي:

إن شاء الله يكون هناك من المعنيين من يستمعون إلينا، ويتواصلون معك.

د. ميادة كيالي:

إن شاء الله، وأتمنى أن يجد كلامنا آذاناً صاغيةً، وأن تُوفَّر السبل التي تتيح لي أن أقدّم ما أستطيع. فأنا أؤمن، أولاً وأخيراً، بأن المعرفة هي السلاح الأقدر والأمضى. كلّ شيءٍ في هذا العالم محكومٌ بقوانين، وهذه القوانين ليست عشوائيةً؛ إنها قدريةٌ. غير أن

الفضاء الحقيقي هو المعرفة. فبقدر ما نزداد معرفةً، نزداد قدرةً على صياغة قدرنا والتحكم في مساره. فلم يعد مقبولاً أن نترك القدر يوجّهنا كيفما شاء، بل نحن، من خلال المعرفة، نستطيع أن نعيد توجيهه نحو الخير، ونحو بناء سوريا الجديدة. وأجمل ما في الأمر أنّ جيل الشباب اليوم أكثر تفاؤلاً وانفتاحاً، وأكثر جرأةً على الحلم. هذا الجيل، الذي فتح عينيه على وسائل التواصل والمعرفة الرقمية، يملك طاقةً خلاقةً يجب أن تُستثمر. لذلك، أرى أن المعرفة ستكون الجسر الذي يحملهم - ويحملنا جميعاً- نحو مستقبلٍ مختلفٍ، أكثر عدلاً وإنسانيةً.

د. ساري حنفي:

بهذه الكلمة، أشكركِ كثيراً، ميادة، على هذا اللقاء اللطيف. كما أشكر حسن استماعكم، وإن شاء الله نلتقي في حلقةٍ قادمةٍ من بودكاست «ربط البحث الاجتماعي بالمجتمع». والسلام عليكم.

الفصل الثاني

المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين[1]

د. حسام الدين درويش - د. ميادة كيالي

د. حسام الدين درويش:

مساء الخير؛

هذه جلسةٌ خاصةٌ ومميّزةٌ، لأسبابٍ شخصيّةٍ وغير شخصيّةٍ. نلتقي اليوم لنحتفل بإطلاق، أو بالأحرى بترجمة، كتاب الدكتورة ميادة كيالي إلى اللغة الإنجليزية، والذي كان عنوانه بالعربية: «المرأة والألوهة المؤنثة في حضارة بلاد الرافدين». الجلسة مميّزةٌ؛

---

(1) جرى هذا الحوار في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب، في فترة انعقاد المعرض 29 نيسان/ أبريل - 5 أيّار/ مايوه عام 2024. وتجدون التسجيل الكامل له على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=wJYxNZnL8NY&t=2s

كما تجدون النص المنشور على موقع مؤمنون بلا حدود:

https://www.mominoun.com/articles/حوار-مع-الدكتورة-ميادة-كيالي-حول-كتابها-المرأة-والألوهة-المؤنثة-في-حضارات-وادي-10239

لأن الحدث، بحد ذاته، مميّزٌ؛ فهو أول كتاب يُترجم إلى الإنجليزية من إصدارات «مؤمنون بلا حدود»، وهو، أيضاً، أوّل كتابٍ لكِ يصدر بهذه اللغة. هاتان مسألتان تحملان دلالاتٍ خاصةً، فما الذي تقولينه لنا عن خصوصية هذا الحدث، بالنسبة إليكِ شخصيّاً، وبالنسبة إلى المؤسسة، أيضاً؟

د. ميادة كيالي:

في الحقيقة، يمثّل هذا الحدث، بالنسبة إليّ، أكثر من مجرد ترجمة كتابٍ؛ فهو بمنزلة جسر عبورٍ إلى فضاءٍ جديدٍ، إلى لغةٍ وثقافةٍ وقرّاءٍ لم يكن الكتاب العربي يصل إليهم من قبل. اعتدتُ، كما تعلمون، أن تكون حركة الترجمة في دار «مؤمنون بلا حدود» باتجاهٍ واحدٍ: من اللغات العالمية إلى اللغة العربية، وتشكّل الترجمات في مؤسستنا ما يقارب ثلث إصداراتها. لكنّ هذا الكتاب هو الاستثناء الذي حملني إلى الضفة الأخرى، حيث لا نكتفي بتلقّي المعرفة، بل نصدرها، ونشارك الآخرين ثمار فكرنا. كأنها لحظة ولادةٍ جديدةٍ للمؤسسة ولي، أنا شخصياً.

أما على الصعيد الشخصي، فيحظى هذا الكتاب بمكانةٍ خاصّةٍ في مسيرتي؛ لأنه كان ثمرة بحثي في مرحلة الماجستير في التاريخ والحضارات القديمة، وبدايتي الفعلية في الغوص في عوالم الإنسان الأول: المرأة، والرموز الدينية. لقد شكّل لي تحدّياً: أن أخرج من اختصاصي الأول في الهندسة، لأقف على أرضٍ راسخةٍ في العلوم الإنسانية. ومن هنا، أرى أن ترجمته إلى الإنجليزية

تحمل رمزيةً مضاعفةً أيضاً؛ فهي ترجمةٌ لمساري الشخصي بقدر ما هي ترجمةٌ للنص.

أؤمن أن الكتب ليست مجرد نصوصٍ، بل مصائر. والكتاب الذي يُترجم، إنما يفتح لنفسه حياةً ثانيةً، كأنّ الترجمة هي «الولادة بعد الولادة». لذلك، أرى هذا الحدث علامةً على أن المشروع الفكري الذي بدأته لم يكن حبيس اللغة العربية، بل هو قابلٌ لأن ينخرط في النقاشات العالمية حول المرأة والدين والتاريخ. «إذا كانت الحضارات بدأت بحكاية امرأةٍ وإلهةٍ، فإن نهضتها الحديثة تبدأ بامرأةٍ مؤمنةٍ بالمعرفة، ودار نشرٍ تحمل هذه المعرفة إلى العالم». أمازحك.

د. حسام الدين درويش:

لندخل «في البعد الشخصي» أكثر. هناك خصوصيةٌ في أن يكون الكتاب باللغة الإنجليزية تحديداً؛ أولاً، لأنها اللغة العالمية الأكثر انتشاراً، وثانياً، لأسبابٍ عائليةٍ، أليس كذلك؟

د. ميادة كيالي:

نعم، هناك خصوصيةٌ شديدةٌ لهذه الترجمة، تتجاوز بعدها الأكاديمي أو المؤسسي، لتلامس البعد الإنساني والعائلي. فأنا أهديت جميع أعمالي إلى أبنائي، لكن هذا العمل، على وجه الخصوص، كان هديتي المميزة إليهم. لقد أنجزت هذا الكتاب باللغة العربية، في واحدةٍ من أصعب مراحل حياتي، حيث كنت أحمل، في آنٍ واحدٍ، مسؤوليات عملي، وتربية أبنائي، ومتابعة

دراستي، وتحقيق طموحاتي. وكان يلازمني إحساسٌ دائمٌ بالذنب: مهما فعلت، ينبغي أن أقضي معهم وقتاً أطول. أما اليوم، وقد صار الكتاب مترجماً إلى الإنجليزية، فأشعر أن أبنائي سيقرؤون فيه، ليس فقط بحثاً في الحضارات القديمة، بل شهادةً على أنني اجتهدت من أجلهم، وأن كلّ تلك المسؤوليات لم تُبعدني عنهم، بل منحتهم إرثاً يضاف إلى حياتهم. وأنا سعيدةٌ جدّاً أن يقرؤوني باللغة التي يدرسون بها، ويتفاعلون من خلالها مع العالم، اللغة التي تشكّل جسرهم المعرفي الأوسع، وهي اللغة الإنجليزية. لم يكن يكفيني أن يعرفوا أن أمّهم كتبت كتاباً باللغة العربية فقط، بل كنت أطمح، أيضاً، إلى أن يقرؤوا فكرتي وصوتي بلغتهم المدرسية والحياتية. فبالنسبة لي، لا معنى لإنجازٍ فكريٍّ لا يستطيع أبنائي أن يتفاعلوا معه. ولقد حوّلت الترجمة هذا الكتاب، ليكون، ليس مجرد مشروعي الأكاديمي، بل رسالة حبٍّ مكتوبةٍ بلغة أبنائي. ولعل أجمل ما في الترجمة أنها قدمت ما اختبأ وراءها من العاطفة والذاكرة والدافع الخفي وراء المثابرة.

د. حسام الدين درويش:

وحتى جوليوس - مساعدك - كان مسروراً؛ لأنه سيحصل على نصٍّ يمكنه من خلاله التعرف على فكرك الأكاديمي باللغة الإنجليزية، بعد أن عرفك شخصيّاً.

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ، هذا الجانب كان حسّاساً بالنسبة إليّ؛ لأنه يمس

موضوع المرأة بالذات. وكما تعلم، أنا أعيش في بيئةٍ متعددة الجنسيات، حيث اللغة الإنجليزية هي الجسر المشترك بين الناس. وكلما تحدّثت عن مشروعي الفكري المتعلق بالمرأة في هذه الأوساط، كان السؤال يتكرر: هل هناك نسخةٌ بالإنجليزية؟ عندها شعرت أن الأمر لم يعد مجرد خيارٍ، بل ضرورةٌ: أن تكون هناك امرأةٌ من الشرق، من هذه المنطقة تحديداً، تقدّم رؤيتها حول المرأة والتاريخ والدين بلغةٍ عالميةٍ. إن حضور المرأة الشرقية في النقاشات العالمية حول قضاياها هو، بحد ذاته، فعلٌ رمزيٌّ ومعرفيٌّ مهمٌّ.

أنا أؤمن أن «القضية التي لا تُترجم تبقى أسيرة جغرافيتها»، لذلك كان لزاماً أن أفتح نافذةً أوسع، لا من أجل أن يُقرأ الكتاب فقط، بل، أيضاً، من أجل أن تكون المرأة الشرقية طرفاً حاضراً في الحوار الكوني. وقد أردت أن أقول للعالم: ها هي امرأةٌ من الشرق، مهد الحضارات، التي بدأت منها الأساطير، لا تزال قادرةً على أن تحكي قصتها، بلغتها وبأصوات أبنائها.

د. حسام الدين درويش:

كلّ كتابٍ له قصةٌ وتاريخٌ، منذ أن بدأ كفكرةٍ، ثم تحوّل إلى مجموعة أفكارٍ، وتطور وتبلور في نصٍّ أوليٍّ، ثم في كتابٍ باللغة العربية، ثم وصل إلى اللغة الإنجليزية ...إلخ. حدثينا عن قصة هذا الكتاب، وتاريخه؟

د. ميادة كيالي:

في البداية، لم يكن في بالي، مطلقاً، أن أسلك هذا الطريق.

كنتُ أدرس الحضارات القديمة والأديان القديمة، دون أن يكون موضوع المرأة حاضراً، بشكل مباشرٍ، في ذهني. لكنّ نقطة التحوّل جاءت حين كلّفني أستاذي المشرف، الدكتور **خزعل الماجدي** - وأحبّ، هنا، أن أوجّه له تحيةً وامتناناً - ببحثٍ حول «دور المرأة في الحضارة السومرية» كجزءٍ من متطلبات رسالة الماجستير. وحين شرعتُ في البحث، وجدت نفسي أمام مفاجأةٍ كبرى: اكتشفت أننا، كنساء، لا نعرف شيئاً، تقريباً، عن تاريخنا. كل ما وُرّث إلينا هو صورةٌ نمطيةٌ متكررةٌ: المرأة كائنٌ ضعيفٌ، خُلقت للأمومة فقط، ولأدوارٍ ثانويةٍ مغايرةٍ للرجل. لكنني حين دخلتُ إلى النصوص والأساطير والآثار، انكشف لي عالمٌ آخر تماماً: نساءٌ كنّ كاتباتٍ وشاعراتٍ، ملكاتٍ ووصيفاتٍ، محاسباتٍ في دواوين الدولة، عازفات موسيقى، بل محارباتٍ ومقاتلاتٍ أيضاً. أدوارٌ ساطعةٌ ومتعددةٌ، لا تقلّ شأناً عن أدوار الرجال. من هنا، شعرت أنني وجدت الخيط الذي كنت أفتقده. لم يكن بحثاً عابراً، بل كان كمن يفتح أمامي باباً سرّياً إلى تاريخ النساء، الباب الذي لم يخبرونا بوجوده. ومن تلك اللحظة، صار واضحاً لي أنني وجدت الخط الذي أريد أن أتابع السير فيه. وأحبّ أن أقول: أحياناً، لا نختار موضوعاتنا، بل هي التي تختارنا، وتكشف لنا عن ذواتنا، ونحن نظن أننا نبحث عنها.

د. حسام الدين درويش:

حين أنهيت رسالة الماجستير، صدر بعدها الكتاب سنة 2015.

د. ميادة كيالي:

الجميل أن تلك المرحلة - أقصد الحصول على الماجستير - ومن بعدها إصدار الكتاب، ترافقت مع لحظة ميلادٍ أخرى في حياتي، بعد أن تأسست «**مؤمنون بلا حدود**»، عام 2013، وانطلقت في رسالتها. كان الأمر مميزاً جداً بالنسبة إليّ، أن تكون ثمرة دراستي الأكاديمية -أي هذا الكتاب- واحدةٌ من الإصدارات الأولى للدار. وحين صدرت الطبعة الأولى عام 2015، كان ذلك بالشراكة مع دار نشرٍ أخرى كانت تتعاون مع المؤسسة في النشر. ثم جاءت الطبعة الثانية لتصدر، حصرياً، عن دار نشر «مؤمنون بلا حدود» التي تأسست نهاية عام 2015، باللغة العربية. واليوم، مع صدور الترجمة الإنجليزية، أشعر أن الكتاب يسلك رحلةً جديدةً، أشبه برحلة حياةٍ ثانيةٍ. ولا أنسى أن أشير بالامتنان إلى صديقي العزيز، أستاذ علم اللاهوت والفكر المسيحي بروفيسور **نجيب عوض**، الذي تولّى مهمة الترجمة. لقد كان لاختيار مترجمٍ أكاديميٍّ ومتميزٍ وقريبٍ من المؤلف أثرٌ كبيرٌ، حيث تكون الترجمة فعل حوارٍ حيٍّ، لا مجرد نقل كلماتٍ. فالترجمة، في رأيي، ليست، فقط، عبوراً من لغةٍ إلى أخرى، بل هي، أيضاً، جسرٌ للروح بين مؤلّفٍ ونصٍّ وقارئٍ جديدٍ.

د. حسام الدين درويش:

إنَّ ترجمة أعمال كاتبٍ ما أثناء حياته مسألةٌ إيجابيّةٌ ومفيدةٌ، من ناحيتين على الأقل. من ناحية أولى، تساعد على اطلاع المؤلف على مضامين الترجمة وربما إشرافه عليها جزئيّاً، وهذا يساعد على

تواصل المترجم معه، للتباحث في بعض الاختيارات اللغوية المتعلقة بالمبنى و/ أو المعنى. فوجود تواصلٍ وتفاعلٍ بين المترجم والمؤلف مهمٌّ، وهو مفيدٌ للطرفين. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ، ثمة قيمةٌ معنويةٌ خاصةٌ في أن يشهد الكاتب، في حياته، ترجمة أعماله إلى لغةٍ أو لغاتٍ أخرى. ما رأيك؟

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ تماماً، وهذا كان له أثرٌ كبيرٌ فيني على المستويين الشخصي والرمزي. فالترجمة ليست مجرد نقل كلماتٍ، بل هي بمنزلة شهادة حياةٍ للمؤلف؛ أن يرى نصه يولد، من جديدٍ، بلغةٍ أخرى، وأن يرافقه في هذه الولادة. بالنسبة إليّ، كان الأمر أشبه بأنني أعيد النظر في كتابي بعين قارئٍ جديدٍ، عبر لغةٍ جديدةٍ. لكن ما منحني معنىً خاصاً هو أن هذا الجهد صدر عن امرأةٍ وباحثةٍ من الشرق، وأنه خرج، اليوم، إلى فضاءٍ أوسع. قد يبدو كتاباً واحداً صغيراً في بحرٍ كبيرٍ، لكنه، بالنسبة إليّ، أشبه بـــ«قشّةٍ في مجرى التاريخ»، تحمل معها أثراً، وتترك بصمتها في مسيرة المرأة. أشعر أنني، عبر هذا العمل، أديت جزءاً مما عليّ تجاه قضيتي الكبرى: أن يكون للمرأة صوتها، وأن يقرأه الآخرون بلغتهم. ليس المهم حجم الخطوة التي تخطوها المرأة في المعرفة، بل قيمتها الرمزية: أنها تترك أثراً، وتفتح طريقاً لمن يأتي بعده.

د. حسام الدين درويش:

سنعود إلى موضوع المرأة كذات، والمرأة كموضوع. لكن

دعينا نشرح الأطروحة الأساسية لهذا الكتاب؛ فهو مؤلفٌ من فصلين مطولين، ويزيد عدد صفحاته عن 200 صفحة. فما الأطروحة الأساسية للكتاب؟

د. ميادة كيالي:

تتمثل الأطروحة الأساسية للكتاب في إعادة إضاءة تاريخ النساء، وإبراز حقيقة أنّ المرأة لم تكن كائناً هامشياً في مسيرة الحضارة، بل كانت فاعلاً ريادياً، بل مهيمناً في مراحل معينةٍ. فهناك مجتمعاتٌ أموميةٌ كانت قائمةً بذاتها تحت سلطة المرأة، سواءٌ على الأرض من خلال المجتمع والنظام الاجتماعي، أو في السماء عبر حضور الإلهة المرتبطة بالأساطير والطقوس والعبادات. كانت المرأة متسيّدةً، في هذه الأدوار جميعها، حاملةً صورة «الذات المقدسة» و«المرجع الأعلى». لكن، مع مرور الزمن، حصل الانقلاب الذكوري، فانتقل مركز السلطة إلى الرجل، وتمّ تهميش المرأة وإقصاؤها لتصبح تابعةً. وهنا تكمن أهمية هذه القراءة: أنها تطرح سرديةً بديلةً للتاريخ، تاريخاً لا يكتبه الرجال وحدهم، بل يشارك فيه النساء بقوةٍ. هذه ليست دعوةً للتطرف ضد الرجل أو لصالح المرأة، بل لإعادة التوازن للرواية التاريخية، وتأكيد أن المرأة كانت شريكاً أساسياً في صناعة الحضارة، وفي استقرار الإنسان. فالمرأة - كما تروي المصادر - حملت أول ثورةٍ في التاريخ، وهي الثورة الزراعية التي قادت إلى الاستقرار. وكانت صاحبة أول الصناعات اليدوية، وحارسة النار، بل إنها، كما يذكر

ول ديورانت، لم تُدجّن الحيوان فقط، بل ساهمت، أيضاً، في «تدجين الإنسان» وقيادته نحو المدنية. ويمكنني أن أقول إن جوهر الكتاب هو: إعادة كتابة التاريخ بمنظورٍ لا يقصي المرأة، بل يضعها في مكانها الطبيعي: شريكة في الخلق، وصانعة للحضارة.

د. حسام الدين درويش:

عندما كنا نتحدث مع البروفيسور هانس كوشلر، كان هناك مفهوم للتقدم لدى المنظمات الدولية، وهذا المفهوم قد يُستخدم، أحياناً، من منظور مركزيةٍ غربيةٍ، وقد يكون موضع شكٍّ في بعض الأحيان. من خلال سردك للأحداث، يمكن القول إن التغير التاريخي، والانتقال من مرحلةٍ إلى أخرى، لم يكن، دائماً، تقدّماً؛ إذ لا يمكن القول إن المرحلة التالية كانت، بالضرورة، أفضل، من ناحية حقوق الإنسان، على الأقل.

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ، فالتغيّر التاريخي لم يكن، دائماً، مرادفاً للتقدّم. أحياناً تفرض الظروف تحوّلاتٍ معينةً، لكن المشكلة تكمن في الإصرار على أن ما تلاها هو الشكل الأعلى والأمثل لتطور البشرية. خذ مثلاً ما أسمّيه «الانقلاب الذكوري».

د. حسام الدين درويش:

كانت له ضروراتٌ معينةٌ؟

د. ميادة كيالي:

تماماً، «الانقلاب الذكوري» ارتبط بظروفٍ اقتصاديةٍ أو

اجتماعيةٍ أو حتى سياسيةٍ، لكن المشكلة لم تكن في وقوعه، وحسب، بل، أيضاً، في استمرار هيمنة النظام الأبوي عبر القرون، حتى صار يُنظر إليه بوصفه النموذج الطبيعي والوحيد للحياة البشرية. نعم، حصلت تحوّلاتٌ كبرى كان لابدّ منها: اكتشاف المعادن، صناعة المحراث، بناء السفن، وصعود الرجل كمحاربٍ. كانت تلك مرحلةً جديدةً، وربما كانت ضرورةً في سياقها، لكن لا يمكن أن نعدّها «قانوناً أبدياً» أو مرحلةً أغلقت كل ما قبلها. لا يمكن أن نقول إن المرأة كانت مجرد عاطفةٍ و«طبيعةٍ» عابرةٍ انتهى زمانها، بينما الرجل هو «العقل» و«الثقافة»، وأنه من الطبيعي أن تهيمن الثقافة على الطبيعة، حتى قيام الساعة. ما حدث هو أنّ ظروفاً تاريخيةً واقتصاديةً وسياسيةً أدّت إلى تغيّر موازين القوى، لكن هذا لا يعني أن تلك الموازين قدرٌ محتومٌ. لذلك، حين أسمع، اليوم، من يكرر أن المرأة خُلقت ضعيفةً، أو أن أدوارها البيولوجية قدرٌ لا فكاك منه، أشعر أننا ما زلنا أسرى تلك الحتميات القديمة، بل إن بعض الفلاسفة نظروا إلى المرأة بوصفها «رجلاً ناقصاً»؛ أي إنساناً ناقصاً بالمعنى الوجودي!

إن الانتقال من مرحلةٍ إلى أخرى، لا يعني، بالضرورة، تحسين شروط الإنسان أو ضمان حقوقه. على العكس، يمكن أن تكون المراحل اللاحقة أشدّ قسوةً أو أكثر ظلماً، خصوصاً فيما يتعلق بالمرأة. فالمجتمعات الأمومية التي مثّلت لحظة إشعاع إنساني وحضاري، تم تقويضها لصالح سلطة الرجل، وهذا لم يكن

«تقدّماً»، بل تراجعاً عن مكاسب إنسانيةٍ عميقةٍ. وأرى أن مفهوم التقدّم بحاجةٍ دائمةٍ إلى مراجعةٍ نقديةٍ؛ لأن ما يُعدّ «قمة تطورٍ» في عصرٍ ما، قد لا يكون إلا تكريساً لأشكالٍ جديدةٍ من السيطرة والإقصاء. فليس كل تغييرٍ تقدّماً، وليس كل انتقالٍ ارتقاءً، بل أحياناً يكون ارتكاساً في لبوسٍ جديدٍ.

د. حسام الدين درويش:

في كلّ الأحوال، لا يجب أن يكون معياراً يُطبّق حالياً بدعوى أنّ هذه هي طبيعة الأمور. لقد تناولنا الموضوع كثيراً، وأعرف عنك الكثير، ومع ذلك فوجئت بأنك لست من اختار هذا الموضوع. أعتقد أنّه من «الطبيعي» أن تختاريه؛ فكل ما في حياتك وتاريخك يرتبط دائماً بالمرأة، وبكونك امرأةً، سواء عندما تحدثت عن علاقتك بالوالد، أو بالوالدة، أو بالمربّي، أو بالأستاذ في المدرسة، فإن مسألة المرأة كانت، دائماً، حاضرةً، ومع ذلك لم يخطر ببالك أن تتخذي دور الشارحة لوضعها والمدافعة عنها؟

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ، لم يكن في ذهني أن أختار هذا الموضوع، منذ البداية، رغم أن مسألة المرأة كانت تحضر في حياتي، بشكلٍ أو بآخر. السبب أننا، وللأسف، نعاني من نقصٍ واضحٍ في الدراسات التاريخية التي تتناول المرأة، فهي ظلّت مهمَّشةً ومغيّبةً عن سرديات التاريخ الكبرى. كنت أؤمن بقدراتي كامرأةٍ، لكنني لم أكن أملك تصوراً واضحاً لدور المرأة في التاريخ. وفجأةً، ومع البحث

والاطلاع، وجدت أن هناك أدواراً ساطعةً تم تغييبها. فذهبتُ أفتّش عنها، فوجدت نفسي أمام ضالتي: تاريخ آخر غير الذي رُوي لنا. صحيحٌ أنني لم أفترض هذا مسبقاً، حرصاً على الحياد العلمي، لكن البحث كشف لي أن الحياد لا يعني الصمت أمام السرديات الناقصة. لقد وجدت شيئاً مختلفاً عمّا ترويه الرواية السائدة، ووجدت أن عليّ أن أكتب هذا الاختلاف وأوثقه. باختصارٍ، نعم لم أختر موضوع المرأة، بل هو الذي اختارني، وكشف لي عن غيابه وأنا أبحث عنه في ظلال التاريخ.

د. حسام الدين درويش:

سأعود إلى مسألة الحياة الشخصية، ورؤيتك لمسيرتك المهنية والإنسانية. لكن دعيني أذكِّر بأن قضية وضع المرأة ومكانها ومكانتها؛ أي المسألة النسائية/ النسوية بشكل عام، حاضرةٌ في كتبك الأخرى الفكرية منها والإبداعية، مثل كتاب: «هندسة الهيمنة على النساء؛ الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة»، وهو عنوان لافتٌ. حدثينا عن هذا الحضور عموماً، ولا سيما في الكتاب المذكور؟

د. ميادة كيالي:

كلمة «هندسة» لم تأتِ اعتباطاً في العنوان، بل هي مفتاحٌ لقراءة التاريخ؛ لأنها توحي بأن ما جرى لم يكن تطوراً طبيعيّاً تلقائيّاً، كما يُقال أحياناً، بل كان هناك وعيٌ وتخطيطٌ وتدريجٌ. فحين نعود إلى آلاف السنين، نجد أن الرجل لم يكن يعرف دوره

البيولوجي في العملية الإنجابية. كان النسب الأمومي أمراً طبيعياً لا لبس فيه؛ فالمرأة وحدها كانت المرجع. لكن عندما اكتشف الرجل دوره، خاصةً بعد تدجين الحيوانات، بدأ يبحث عن وسيلةٍ لنقل النسب إلى جانبه. من هنا ظهرت أولى القوانين، وكان أولها تحريم تعدّد الأزواج للمرأة، بعد أن كان الأمر متاحاً لها من قبل. ومن ثم، بدأ الرجل يشرّع ويتحكّم في جنسانية المرأة، ويضع أولى اللبنات لنظامٍ قانونيٍّ يخدم مصلحته. ثم جاء دور الحرب والقتال؛ ففي السابق كانت المرأة تشارك فيهما، لكن بسبب قِصر العمر في تلك الأزمنة، كان الخطر كبيراً: لو خرجت المرأة للقتال بكثافةٍ، لانقرضت البشرية. وهكذا، جرى إبعادها تدريجياً عن أدوار الحرب، ثم عن أدوار الصيد، وتم حصرها في الإنجاب والتربية، حتى يضمن الرجل كثرة الأولاد، ويحوّل خط التوريث إلى جانبه.

هناك بالفعل «هندسة تاريخية» لوضع المرأة، تمت عبر القوانين والأساطير والطقوس. ويمكن أن نرى هذا التدرج بوضوحٍ: ففي الحضارة السومرية، ظلّت المرأة محافظةً على حضورها وهالتها المقدّسة، لكنها كلما ابتعدت عن سومر، تراجعت مكانتها. ففي أكاد كانت لا تزال متميزةً، لكن، مع بابل، بدأ التدهور أكثر، وهو ما يظهر، جليّاً، في أساطير الخليقة وخصوصاً الإينوما إيليش. ومع الآشوريين اشتدّ التشدد تجاه المرأة، وبدأت تظهر صورتها بوصفها مصدر الغواية والفتنة. وهذه الصورة لم تختفِ، بل تسلّلت إلى التشريعات في الأديان السماوية التي جاءت بعدها، فاستمرت

المرأة تُقدَّم على أنها ناقصةٌ، أو مدنّسةٌ، أو سببٌ للشرور، وظلّ يُفرض عليها حجابٌ اجتماعيٌّ أو دينيٌّ، بدرجاتٍ متفاوتةٍ، وصولاً إلى منعها، أحياناً، من حضور المعبد أو المشاركة في الدروس الدينية. حتى موضوع الحجاب نفسه له تقسيمٌ تاريخيٌّ، لا يمكن فصله عن هذا السياق الطويل من «هندسة الهيمنة». فبالتأكيد، لم يكن تراجع المرأة صدفةً، بل كان مشروعاً مؤسّساً وممنهجاً، بدأ بالقانون والأسطورة، وما زالت آثاره تلاحقنا إلى اليوم.

فهذا الكتاب جاء امتداداً طبيعياً لكتابي الأول «**المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين**». فبعد أن تتبّعتُ حضور المرأة كإلهةٍ مقدّسةٍ وفاعلةٍ كبرى في الحضارة الأولى، كان عليّ أن أبحث: كيف تراجع هذا الحضور؟ ومن أين بدأ الانقلاب الذكوري؟ فجاء كتاب «**هندسة الهيمنة على النساء**»، ليكشف أن الأمر لم يكن عفوياً أو مجرد تطورٍ طبيعيٍّ، بل كان عمليةً ممنهجةً، جرى فيها تحويل المرأة من مركز السلطة والمعرفة إلى هامش التبعية والوصاية. وبهذا المعنى، أرى أن الكتابين معاً شكّلا مسارين متكاملين: الأول يُظهر ذروة حضور المرأة، والثاني يشرح بداية أفولها. ومن خلالهما معاً، تتضح صورة التاريخ كما كان: تاريخاً لم يُكتب بالرجال وحدهم، ولا يمكن أن يُفهم دون استعادة صوت المرأة.

د. حسام الدين درويش:

الطريف في الأمر أنّك، بوصفك إنسانةً وفتاةً وامرأة، واجهت

هذه المسائل التي تتحدثين عنها تاريخياً في مجتمعك، وأعلنتِ اختلافك عنها، وخلافك مع أيّ طرفٍ يتبناها ويحاول فرضها، وتمرّدك عليها وعليه. ومع ذلك، أنت تُظهرين تفهّماً لهذه الأوضاع في إطار الرؤية التاريخية للتطور الحضاري، والثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، إلخ، وكأنك ترين أنّ هذا ربما كان مطلوباً في بعض السياقات التاريخية. وأذكر أنني خلال حديثٍ سابقٍ لنا قمت بإدانةٍ ما لأمرٍ يتعلق بوضع المرأة، ونفيتِ سمة التقدم عنها، وأشرتِ إلى إمكانية أن يكون ذلك مرتبطاً بالتقدم في جوانب أخرى، ولأسبابٍ حضاريةٍ مختلفةٍ. فبأيّ معنى يمكن أن نَصِف هذا بأنه نسويٌّ أو غير نسويٍّ؟ لأنك حين تبدين تفهماً لإخضاع النساء ولتدهور أوضاعهن في مراحل تاريخيةٍ، فإنك تتوقفين عن الرؤية المعيارية. فكيف تفهمين النسوية؟ وبأيّ معنى يمكن أن تصفي نفسك، أو تصفي غيرك بالنسوية أو عدم النسوية؟

د. ميادة كيالي:

هذا السؤال طُرح عليّ أكثر من مرةٍ: هل ترين نفسك نسوية؟ وإجابتي، دائماً، تعتمد على تعريف «النسوية». فإذا كانت النسوية تعني السعي إلى استعادة حقوق المرأة التي تستحقها، والمطالبة بالعدالة في التعامل معها، والاعتراف بأنها إنسانٌ كاملٌ، مسؤولٌ عن نفسه وجسده وحياته، فأنا نسويةٌ، وأبصم على ذلك بكلّ فخرٍ. أما إذا كانت النسوية تُختزل في أطرٍ أيديولوجيةٍ ضيقةٍ، أو تُحمَّل، أحياناً، بمفاهيم مشوّهةٍ تتعارض مع الإنسان والعدالة ذاتها، فأنا لا

أنتمي إلى هذه الصورة. أنا أرى نفسي باحثةً في التاريخ والإنسان، أحاول أن أفهم الشروط الحضارية والاجتماعية التي قادت إلى إخضاع المرأة، لا من باب تبريرها أو قبولها، بل من باب فهمها ونزع هالتها «الطبيعية» المزعومة. فالفهم هنا ليس تبريراً، بل تفكيكاً للسردية السائدة.

أستطيع أن أقول إنني أمارس نسويةً ذات جذورٍ معرفيةٍ وتاريخيةٍ، لا تتضمن صراعاً ضد الرجل، بقدر ما تتضمن بحثاً عن توازنٍ إنسانيٍّ. فالمرأة لا تحتاج إلى أن تكون ضد أحدٍ، بل إلى أن تُستعاد إلى مكانها الطبيعي: شريكة في الحياة، وشريكة في الحضارة. أنا نسويةٌ بقدر ما تكون النسوية بحثاً عن الإنسان، لا عن انتصار جنسٍ على آخر.

د. حسام الدين درويش:

إذن نسويةٌ عن نسويةٍ تختلف؟

د. ميادة كيالي:

نعم، فهناك نسويةٌ تنطلق من موقع الخصومة مع الرجل، وتضعه في موضع الخصم التاريخي والأبدي، فتحمّله، وحده، تبعات كل ما جرى منذ الأساطير الأولى، وكأن الرجل هو «مردوخ» الذي قتل «تيامَت» وشقّها نصفين. هذا النمط من التفكير يجعل الرجل العدو الوحيد، ويحوّل النسوية إلى معركةٍ ضد نصف البشر. لكن الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك؛ الرجل في مجتمعاتنا، أيضاً، مسحوقٌ في جوانب كثيرة، محرومٌ من حقوقه كمواطنٍ

وكإنسانٍ. فكيف أطالب رجلاً لم يُعترف بإنسانيته كاملةً أن يكون حاملاً لمشروع العدالة والمساواة؟ لذلك، لا أرى في «النسوية» معركةً ضد الرجل، بل أراها مشروعاً لاستعادة التوازن الإنساني، حيث يتحرر الرجل والمرأة معاً من قيود الهيمنة، كلٌّ بطريقته. وأحبّ أن ألخص الأمر بعبارة: «**حين يُسحق نصف المجتمع، لا يمكن أن ينهض نصفه الآخر؛ فالمرأة لا تتحرر، حقّاً، إلا بتحرر الرجل أيضاً**» .فأنا لا أبحث عن انتقام من الرجل، بل عن مصالحةٍ مع التاريخ، تُعيد للإنسان - رجلاً كان أو امرأةً - كرامته المفقودة.

د. حسام الدين درويش:

بهذا المعنى، النسوية ضد الذكورية، لكنها ليست ضد الرجولة. وإذا رجعنا إلى كتبك، فالمرأة حاضرةٌ في أكثر من كتابٍ، حتى في «ظلال الياسمين»، ليس فقط بوصفها إنسانةً، بل كامرأةٍ أيضاً. كيف تحكين لنا عن تجاربك الحياتية؟ بمعنى ما الذي دفعك إلى الاهتمام بهذه المواضيع، وكيف تعبّرين عن ذلك؟

د. ميادة كيالي:

تجاربي الحياتية واسعةٌ ومتنوعةٌ، لكن يمكنني أن أقول إن أجمل ما في التنظير أو الكتابة أو حتى النضال الفكري، أن تنبع من تجربةٍ معيشةٍ، لا من فكرةٍ مجرّدةٍ. فما نكتبه ونؤمن به يكتسب قوّته حين يكون متجذّراً في حياتنا. وأنا، شخصياً، نشأت في بيتٍ لم يكن فيه أيّ توزيعٍ جندريٍّ صارمٍ للأدوار. والدي، رحمه الله،

كان يرى فيّ قوةً وشجاعةً، وكان يقول إنني «سبعة من السباع». لم أشعر، يوماً، أنني أحتاج إلى الانتظار حتى يقوم أخي بعملٍ ما، أو أن هناك مهمةً تخص الذكور، وأخرى تخص الإناث. في بيتنا، الكل يعمل، والكل يتحمل المسؤولية.

حتى في موضوع المحاسبة، كانت العدالة حاضرةً: الوقت الذي كنت أقضيه خارج المنزل، كنت أحاسب عليه بالطريقة نفسها التي يُحاسب بها أخي، ومساءلتي عن أخطائي كانت مساوية تماماً لمساءلته. لم يكن هناك ميزانٌ مزدوجٌ للذكر والأنثى. لهذا، كبرتُ وأنا أشعر أنني إنسانةٌ كاملةٌ، لا ينقصني شيءٌ لأكون قادرةً على الفعل أو القرار. أظن أن هذه التربية زرعت في داخلي الثقة التي جعلتني، فيما بعد، أواجه التمييز حين رأيته في المجتمع، وأرفضه بالفكر والكتابة. وبالفعل، حين تنشأ الفتاة على المساواة، تكبر وهي لا تقبل أن تُعامل كناقصةٍ.

د. حسام الدين درويش:

إذن، أنت نشأتِ في بيئةٍ منصفةٍ، لكنك واجهتِ، أيضاً، بيئةً غير منصفةٍ؛ أي إن هناك حالتين متناقضتين أسهمتا في توجيه هذا المسار. كيف تفهمين تأثير كلٌّ من هاتين الحالتين في حياتك وفي رؤيتك الفكرية لأوضاع المرأة؟ وكيف ساعدك الإنصاف على أن تكوني ما أنتِ عليه اليوم؟ وهل اقتصر دور البيئة غير المنصفة على الإزعاج والعرقلة، أم إنها أثارت فيك الرغبة في المقاومة والسعي إلى التغيير؟

د. ميادة كيالي:

نعم، نشأت في بيئةٍ منصفةٍ داخل أسرتي، حيث شعرت، منذ طفولتي، أنني إنسانةٌ كاملةٌ مسؤولةٌ، مثل أخي، لا تُفرض عليّ قيودٍ، لمجرد أنني فتاةٌ. هذا الإنصاف منحني الثقة الداخلية، وأعطاني إحساساً بأن المساواة أمرٌ طبيعيٌّ، لا استثنائيٌّ. في المقابل، حين خرجت إلى المجتمع، اصطدمت بواقعٍ آخر يقوم على التمييز والقيود. هنا بدأت التناقضات: بيئةٌ منحتني القوة، وأخرى حاولت تقييدي. لم يكن تأثير البيئة غير المنصفة مجرد إزعاجٍ أو عرقلةٍ، بل على العكس، كانت الشرارة التي أيقظت رغبتي في المقاومة والسعي إلى التغيير. وأستطيع أن أقول إن الإنصاف ربّى في داخلي الإيمان بذاتي، والظلم حفّزني لأدافع عن كلّ امرأةٍ لم تجد من ينصفها. وهكذا اجتمع العاملان معاً ليشكّلا رؤيتي: **المساواة ليست حلماً بعيداً، بل تجربةٌ ممكنةٌ، والظلم ليس قدراً، بل حالةٌ قابلةٌ للتغيير.**

د. حسام الدين درويش:

دعيني أختم بسؤالٍ أخيرٍ يتعلق بذلك الانقسام في حياتك، أولاً بين الهندسة وغير الهندسة أو الفكر، وثانياً بين الأعمال الإدارية والأعمال الفكرية، كيف حصل هذا الانقسام؟ وما تأثيره في حياتك وفي مدى نجاحك في كلّ مجالٍ من المجالات المختلفة؟

د. ميادة كيالي:

درَستُ الهندسة، ومارستها، لثماني سنوات، وأحببتها كثيراً،

ثم توقفت تماماً عن العمل قرابة اثني عشر عاماً بعد الزواج، وانقطعت خلالها عن الهندسة وكل ما يتصل بها. ومع ذلك، اكتشفت لاحقاً أن الفكر الهندسي لم يغادرني، بل ظلّ حاضراً في طريقتي في التفكير وتنظيم حياتي. لقد علّمتني الهندسة كيف أحلّل الأمور بطريقةٍ منطقيةٍ، وكيف أضع لكل مسألةٍ مقاربةً عقلانيةً، وهذا ما انعكس، لاحقاً، على عملي الإداري والثقافي. وعندما انتقلت إلى الإمارات، وبدأت مسيرتي الجديدة في المجال الثقافي، لم يكن المشروع الذي عملت عليه، في البداية، ممأسساً، بل كان مجرد مشاركةٍ في فريقٍ لترجمة الأفكار الرئيسة في كتب المفكر السوري الراحل **محمد شحرور** للإنجليزية، وتقديمها إلى القارئ الغربي، لكن سرعان ما حولت هذا المشروع إلى مؤسسةٍ ضمت جملةً من المشاريع الفكرية، وتوسعت، بشكلٍ أكبر، لتضم خارطةً من المفكرين والباحثين، هذا التوسع كان عليّ أن أواكبه. فما تعلمته من الهندسة عاد ليخدمني في كل تفاصيل الإدارة ورحلة الإنجاز. وأستطيع أن أقول إنني لم أغادر الهندسة يوماً، بل ترجمتها إلى الفكر والإدارة؛ فهي التي منحتني القدرة على الجمع بين العقلانية والتحليل من جهةٍ، والشغف بالمعرفة والعمل الثقافي من جهةٍ أخرى. الهندسة أعطتني الأدوات، والفكر أعطاني الغاية. أحياناً، لا نترك مهنةً خلفنا، بل نحملها معنا في طرائق جديدةٍ، فتتحول الهندسة إلى إدارةٍ، ثم إلى فكرٍ، لكنها تبقى، دائماً، جزءاً من طريقة النظر إلى الحياة.

د. حسام الدين درويش:

ماذا عن الجانب الفكري؟ هل يمكن، بالفعل، الاستمرار في الكتابة والتأليف والعمل الفكري، على الرغم من مسؤولياتك الإدارية الكبيرة؟

د. ميادة كيالي:

أتمنى ذلك، وأعترف أن الإدارة أخذت مني الكثير. حين كبر المشروع وتحوّل إلى مؤسسةٍ واسعةٍ، وجدت نفسي مضطرةً إلى الانشغال بالإدارة على حساب التأليف. صحيحٌ أن دار النشر صارت تنتج الكثير من المعرفة، لكنّ انهماكي في إدارتها جعلني أؤجل مشاريعي الفكرية الخاصة، فأصبحت بعض مخطوطاتي حبيسة الأدراج. أحياناً، أشاهد مقابلاتٍ قديمةً لي، فأرى كيف كنت أعد بإكمال مشروع ما، وأشعر أنني مازلت أحتفظ بالحلم ذاته، ينتظر لحظة اكتماله. ومع ذلك، أحاول، دائماً، أن أستعيد هذا الجانب من حياتي، ولو بجهدٍ متقطعٍ. ربما تكمن الفرصة، أحياناً، في أن يذكّرني أحدهم، بلطفٍ أو بإلحاح، بأن أعود إلى الكتابة، وألّا أكتفي بدور الإدارة. وأحبّ أن أذكر، هنا، ما قالته **فرجينيا وولف**: المرأة لكي تكتب تحتاج إلى غرفةٍ خاصةٍ بها، وقليلٍ من المال. كانت وولف تشير إلى أن النساء، عبر التاريخ، ساهمن في إبداع الرجال وعبقرياتهم، وهنّ خلف الستار، بينما هنّ حُرمن من شروط الإبداع الأساسية. أنا اليوم أجد نفسي في المفارقة ذاتها: الإدارة تأخذ وقتي، لكنها، في الوقت نفسه،

تمنحني المال والمساحة لأحصل على تلك «الغرفة الخاصة» التي أستطيع أن أعود فيها إلى البحث والكتابة. قد أكون متفرغةً للإدارة الآن، لكنها ليست الغاية، بل الوسيلة التي تتيح لي أن أستعيد صوتي الباحث وأستعيد **ميادة** الكاتبة في اللحظة المناسبة.

د. حسام الدين درويش:

مع ذلك، سأختم بما قالته لكِ والدتكِ، رحمها الله، عندما قالت لك «ليست ميادة التي لا تستطيع أن تحمل بطيختين أو تقوم بأمرين معاً». وقد كان لهذا القول مفعول السحر في حياتك، أليس كذلك؟

د. ميادة كيالي:

صحيح، كانت تلك الجملة من أمّي - رحمها الله - بمنزلة البوصلة التي أعود إليها كلما شعرت بثقل المسؤوليات. حين أخبرتها أنني تركت العمل والدراسة من أجل تربية أبنائي، نظرت إليّ بثقة الأم التي ترى أبعد مما نرى نحن، وقالت عبارتها الشهيرة: «**ليست ميادة التي لا تستطيع حمل بطيختين بيدٍ واحدةٍ**». لم تكن مجرد كلماتٍ، بل كانت شهادة إيمانٍ بقدرتي، ورسالة ثقةٍ عميقةٍ. مع مرور الزمن، أدركت أن تلك الحكمة الأمومية كانت درساً في الحياة: الإنسان يملك طاقاتٍ لا يعرفها حتى يختبرها. واليوم، عندما أنظر إلى أبنائي، أرى فيهم تلك الطاقات الكامنة التي رأتْها أمّي فيّ يوماً ما. وتلك الجملة لم تمنحني فقط قوةً في لحظتها، بل منحتني فلسفةً كاملةً: أن أثق بقدرتي على الجمع بين الأدوار، وألا أستسلم لفكرة الاستحالة.

د. حسام الدين درويش:

في كلّ الأحوال، مباركٌ لك ولمؤمنون بلا حدود، وأتمنى لك كل التوفيق فيما هو قادمٌ.

د. ميادة كيالي:

شكراً لك دكتور **حسام** على هذا الحوار العميق، الذي لم يكن مجرد أسئلةٍ وأجوبةٍ، بل رحلةً لاستعادة المعنى. وما أطمح إليه، في النهاية، هو أن يتحوّل هذا الكتاب، وسائر كتبي، إلى دعوةٍ مفتوحةٍ للتأمل في تاريخ المرأة والإنسان معاً، وأن يكون خطوةً صغيرةً في طريقٍ طويلٍ نحو معرفةٍ أعدل، وتاريخٍ يُكتب بيد الجميع، لا بنصفه فقط. فالحوار، بالنسبة إليّ، ليس مناسبةً عابرةً، بل فعل تأسيسٍ دائمٍ لأسئلةٍ جديدةٍ، ولرغبةٍ في أن يبقى الفكر حيّاً، ونابضاً، وقادراً على فتح الدروب أمام القادمين.

الفصل الثالث

البحث عن الذات
محطات في الذاكرة[1]

د. حسام الدين درويش - د. ميادة كيالي

د. حسام الدين درويش:

مساء الخير جميعاً؛

الغرض من هذا اللقاء هو أن تقدِّم لنا الدكتورة ميادة كيالي نفسها، لن أقول في صيغة اعترافات، بل في صيغة عرضٍ لمراحل من تاريخها. سنحاول أن ننظر إلى هذه المراحل من أكثر من زاويةٍ، لكن في هذا التقديم الأوّلي ستكون هناك محاولةٌ لرؤية ميادة الإنسانة، وميادة المثقفة، وميادة المفكّرة، وميادة المديرة، وميادة المهندسة، من مختلف الجوانب. سأبدأ، مباشرةً، بالسؤال الذي

(1) جرى هذا الحوار في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب، في فترة انعقاد المعرض في 22-28 نيسان/ أبريل عام 2023. وتجدون التسجيل الكامل له على اليوتيوب:
https://www.youtube.com/watch?v=RjZfW4xbmYo.

اتفقنا عليه، وهو أن كلّ إنسانٍ يمرّ عادةً بمرحلة المراهقة، تلك المرحلة التي يمكن أن نسميها «مرحلة الرفض»، وهي تأخذ أشكالاً وصيغاً ودرجاتٍ مختلفةً من القوة. إذا حاولنا أن نعرفك من خلال المرحلة الأولى من الرفض، لا سيما فيما يخصّ الفكر عموماً، وهي المرحلة التي بدأتِ فيها بتكوين شخصيتك، بعد أن تشكّلت مبدئياً من خلال التربية، في المراحل الأولى، فماذا تقولين عنها؟

د. ميادة كيالي:

أرى تلك المرحلة بداية تشكّل صوتي الخاص، اللحظة التي بدأتُ أجرؤ فيها على قول «لا»، لا رفضاً عبثيّاً، بل بحثاً عن ذاتي وعن حقّي في الفهم والاختيار. نشأتُ في بيتٍ يسوده التدين الطبيعي، التدين الذي لم يكن قائماً على التراتب الصارم بين الذكور والإناث، بل على شيءٍ من التعاون والمساواة التي كنت أراها آنذاك أمراً بديهيّاً. لكنني، بطبيعتي الميّالة إلى التساؤل، لم أكتفِ بما تلقيته من إيمانٍ موروثٍ؛ إذ كان في داخلي شعورٌ روحيٌّ قويٌّ، يقابله، في الوقت نفسه، تمردٌ على النظرة السائدة للدين. منذ سنوات الإعدادية، بدأت أطرح على نفسي أسئلةً لم أجد لها إجاباتٍ جاهزةً: كيف يكون القرآن متعبَّداً بتلاوته فقط؟ ولماذا لا أقرأه لأفهم معناه، وأستخلص منه دلالاتٍ جديدةً؟

في تلك المرحلة، لم يكن تمرّدي مقتصراً على الأفكار الدينية التقليدية، بل شمل حتى ممارسات العبادات. كنت أختبر الصوم والصلاة وفق ما أقتنع به داخليّاً، أحياناً في العلن، وأحياناً في

الخفاء، كنوعٍ من المصالحة بين إيماني الداخلي وما هو مفروض خارجيّاً. أتذكر أنني صمتُ رمضان كاملاً دون أن أقطع صومي خلال فترة الدورة الشهرية، وكان ذلك بالنسبة إليّ موقفاً شخصياً يعكس إيماني بالله أكثر مما يعكس التزاماً بالتقاليد. لم أكن أجرؤ على الإفصاح عنه، لكنني كنت أشعر بفرحٍ خفيٍّ؛ لأنني اخترت أن أعيش ديني بما ينسجم مع قناعتي، لا بما يفرضه الآخرون. لقد كانت تلك البدايات بذرة وعيٍ مبكرٍ، حملتُها معي فيما بعد، حين صرت أؤمن بأن الإيمان الحقيقي ليس تكراراً لما ورثناه، بل هو سعيٌ دائمٌ لإعادة قراءته بروحٍ حرّةٍ وعقلٍ مسؤولٍ.

د. حسام الدين درويش:

التمرد في المسألة الدينية أو في المواضيع المتعلقة بالأفكار الدينية، هل كان تمرّداً معرفياً؛ بمعنى أنه نابعٌ من وجود أمورٍ غير مقنعةٍ أو بلا أسسٍ معرفيةٍ يمكن مناقشتها، أم كان تمرداً أخلاقياً؛ أي نابعٌ من رفض بعض الأحكام، كمسألة أن المرأة والكلب الأسود ينقضان الوضوء؟ باختصارٍ، هل كان التمرد نابعاً من أسسٍ معرفيةٍ أم أخلاقيةٍ أم من كلا الأمرين معاً؟

د. ميادة كيالي:

كان تمرّدي معرفيّاً وأخلاقيّاً، في آنٍ معاً. لقد نشأت في بيتٍ منحني، بفضل والدي، شعوراً عميقاً بأنني لست أقلّ شأناً من أخي الذكر، وأن طاقتي وإمكاناتي تضاهي إمكاناته، وهذا ما جعلني، منذ وقتٍ مبكرٍ، أرفض أيّ تصورٍ ينتقص من قيمة المرأة، أو يُعيد

إنتاج دونيتها. لكن، في المقابل، كان هناك ما لا أستطيع تقبّله من أحكامٍ أو رواياتٍ أُريد لنا أن نأخذها على أنها مسلّماتٌ. أذكر حادثةً في الصف التاسع حين ناقشت أحد الأحاديث النبوية: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب». واجهني شخصٌ حينها بسؤالٍ بدا بسيطاً، لكنه كان عميق الأثر: «هل ما زال التراب ضرورياً في زمن المطهّرات والمعقّمات؟». في تلك اللحظة، وجدت نفسي أمام مفترقٍ: إما أن أكرّر ما اعتدت عليه من أجوبةٍ جاهزةٍ، أو أن أتحلّى بالشجاعة لطرح السؤال من جديدٍ: هل يمكن أن تظلّ هذه الروايات معزولةٌ عن نقد العقل والتجربة الإنسانية؟

منذ ذلك اليوم، بدأت أتعامل مع الدين، لا بوصفه منظومةً مغلقةً من الأوامر، بل مجالاً مفتوحاً للتساؤل وإعادة النظر. اعترفت لنفسي، أوّلاً، أنّني ذاتٌ كاملةٌ، أملك القدرة على التفكير والتعلّم، وأنّي مسؤولةٌ عن وعيي واختياراتي. ومع تراكم القراءات والخبرة، صار تمرّدي فعلاً معرفيّاً واعياً، رفضاً لكل ما يُراد له أن يُقدَّم تحت شعار «لا تسألوا». لقد تحوّل هذا التمرد المبكر إلى جوهر مساري الفكري لاحقاً: الإيمان الذي لا يُمحّص بالعقل، ولا يُستنطق بالأخلاق، يظلّ ناقصاً وعاجزاً عن أن يكون إيماناً حيّاً.

د. حسام الدين درويش:

يكون التمرّد، عادةً، في مواجهة مجتمعٍ قامعٍ، فيكون تمرّداً على المجتمع بمعنىً ما. في المقابل، يمكن للمجتمع أن يتضمن ما

يشجع على التمرد أو يسمح به على الأقل، فهل كان هناك بُعدٌ اجتماعيٌّ ساعدك على التمرّد؟ وأقصد بالمجتمع هنا الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة والجيران وأهل الحارة ...إلخ؛ فمن أيّ جانبٍ أو طرفٍ من هذا المجتمع جاءكِ الدعم؟ ومن أين جاء القمع والضغط السلبي؟

د. ميادة كيالي:

لم يكن تمرّدي وليد لحظةٍ واحدةٍ، بل ثمرة مسارٍ طويلٍ بدأ داخل أسرةٍ متدينةٍ تديناً طبيعيّاً، بلا تزمتٍ ولا تراتبيةٍ بين الذكور والإناث. كنت محاطة بجوٍّ من الطمأنينة، لا يفرض عليّ الخضوع، ولا يصادر حقّي في التساؤل. أما المجتمع السوري، في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، فكان يعيش تديّنه ببساطةٍ واعتدالٍ، قبل أن تتسرب إليه النزعة الإخوانية. ومع ذلك، لم يكن المناخ العام مشجعاً على التمرّد؛ لأننا كنا، جميعاً، مأخوذين بخطاب القومية العربية الذي رفع شعار فلسطين، وأغلق، في الوقت نفسه، باب النظر في واقعنا الداخلي. ثم جاءت أحداث حماة لتكرّس الخوف، وتُغلق أي نافذةٍ على التفكير أو النقد، حتى بين جدران البيوت.

وفي هذا الجوّ الملبّد بالرهبة، كانت لحظة لقائي بالدكتور **محمد شحرور** حدثاً مفصليّاً في حياتي. كنت طالبةً في كلية الهندسة، وحضرت له محاضرةً في نهاية العام، كانت صعبةً ومليئةً بالأفكار غير المألوفة. في ختامها، طلب من الحاضرين أن يكتبوا أسماءهم، إن كانوا من طلبته في العملي. خاف أغلب الطلاب،

وكتبوا أسماءً مغايرةً خشية أن يسألهم، لاحقاً، عمّا قاله في تلك المحاضرة. أما أنا، فاخترت الصدق، وكتبت اسمي كما هو. فمنحني العلامة الكاملة في مادة العملي، عشرين من عشرين. وقد كانت تلك العلامة، بالنسبة إليّ، أكثر من تقييمٍ أكاديميٍّ، كانت لحظة وعيٍ. أدركت، حينها، أن الصدق ليس قيمةً أخلاقيةً فحسب، بل هو موقفٌ معرفيٌّ يفتح الأبواب المغلقة. ومنذ تلك التجربة، تغيّر مساري الداخلي: من طالبةٍ تتلقى إلى إنسانةٍ تبحث وتفكر وتفسّر. كان **شحرور** أول من منحني الثقة بأن أقول «لا»، وأن أقرأ بعقلي لا بوصاية الآخرين، وأن أؤمن بأن الجرأة في قول الحقيقة قد تكون مفتاح الحرية. وهكذا، كان تمرّدي ابن بيئةٍ سمحت لي بالتفكير، بقدر ما كبحتني بالخوف، وعلمتني تجربتي أن الصدق هو أولى درجات التحرّر، وأن المعرفة تبدأ من لحظة صدقٍ واحدةٍ قادرةٍ على تغيير مصير إنسانٍ.

د. حسام الدين درويش:

مرحلة التمرّد غالباً ما تكون مرحلةً هدّامةً؛ أي مرحلة رفضٍ أكثر من كونها مرحلة بناء بديلٍ. متى يمكن القول إنك بدأتِ، فعلاً، بإنتاج معرفةٍ بديلةٍ وبناءٍ جديدٍ، بدل الاكتفاء بـ«اللا» ورفض الواقع؟ هل هي مرحلة محمد شحرور؟

د. ميادة كيالي:

لم يكن تمرّدي الأول فعل هدمٍ كاملٍ، بل كان أقرب إلى إزالة الطبقات السطحية التي تغطي حقيقتي. كنتُ أبحث عن أساسٍ صلبٍ

أقيم عليه رؤيتي الجديدة. وهنا جاء لقائي **بمحمد شحرور**، الذي مثّل، بالنسبة إليّ، تلك «العتبة» التي لا بدّ من المرور بها. في لغة الهندسة التي درستها، لا يمكن إقامة بناءٍ متينٍ إلا بعد أن نزيل ما هو هشٌّ، ونرصّ القاعدة تحتها جيّداً. هذا، بالضبط، ما فعله **شحرور** في حياتي: أعاد تثبيت القاعدة على أسسٍ عقليةٍ وإنسانيةٍ، لأبدأ منها بناءً جديداً.

كانت النقلة التي منحني إياها **شحرور** حاسمةً؛ فلأول مرةٍ شعرت أن التدين لا يعني الحزن، ولا العيش تحت سيف الذنب والخوف من الحساب، ولا انتظار مصيرٍ محتومٍ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿14﴾﴾ (سورة الواقعة، الآيتان 13-14). لقد حرّرني من عقدة الذنب التي كبّلت أجيالاً، وفتح أمامي طريقاً أكون فيه مؤمنةً وسعيدةً معاً، أعيش إيماني كقيمةٍ إيجابيةٍ، لا كعبءٍ ثقيلٍ. لكن هذا المسار لم يستمر طويلاً بالزخم ذاته. بعد أربع سنواتٍ من صدور كتابه عام 1990، وجدت نفسي أمام منعطفٍ جديدٍ، حيث انتقلتُ إلى لبنان سنة 1994. كان ذلك التحول انتقالاً من فضاءٍ فكريٍّ صاخبٍ، أثاره **شحرور** بحجرٍ ألقاه في مياه المجتمع الراكدة، إلى فضاء حياتي الخاص، حيث تفرغتُ لدوري كزوجةٍ وأمٍّ تبني أسرتها وتعتني بأبنائها. وعلى الرغم من أنني في لبنان بدوت وكأنني ابتعدت عن الحراك الثقافي، لكنني أؤمن، اليوم، أن تلك المرحلة لم تكن انقطاعاً، بل تراكماً خفيّاً. كانت سنوات صمتٍ ونضجٍ داخليٍّ، سأعود منها، لاحقاً، لأكمل مساري

الفكري والإنساني. فالأمومة لم تُنهِ في داخلي الباحثة، لكنها منحتها منظوراً آخر، أكثر عمقاً وإنسانيةً.

د. حسام الدين درويش:

إذا عدنا إلى ما يمكن تسميته بالمرحلة الثانية، وهي المرحلة البنائيّة، فإنها غالباً ما تتسم بالمفارقة؛ إذ قد يحصل الانتقال من دوغمائيةٍ إلى أخرى. فهل حصل ذلك معك، أم إنك كنت تدركين في هذا الانتقال نسبيّة المعرفة التي تملكينها؟

د. ميادة كيالي:

لم يكن انتقالي من دوغمائيةٍ إلى أخرى، بل كان مساري أهدأ وأكثر انسجاماً مع قناعتي الأولى. فمنذ بداياتي كنت متصالحةً مع فكرة الإيمان ووجود الله في حياتي، ولم أشعر يوماً أن عليّ أن أنقض هذا الجوهر لأبني غيره. ما كنت أبحث عنه هو طريقٌ يمنحني الطمأنينة، ويؤكد لي أن علاقتي بالله يمكن أن تكون علاقةً صحيّةً، صافيةً، بعيدةً عن ثقل الذنب والخوف، ومنسجمةً مع إنسانيتي. لقد تطورت رؤيتي مع مرور الزمن، وتغيّرت الأشكال والأساليب التي عبرت بها عن هذا الإيمان، لكن الجوهر ظلّ ثابتاً: أن أكون صادقةً مع نفسي، وأن أمارس إيماني بما لا يناقض عقلي ولا قلبي. ومع كلّ تجربةٍ حياتيةٍ جديدةٍ، ومع كلّ لقاءٍ مع مفكرٍ أو مجددٍ، كانت قناعتي تترسخ أكثر، وكان صوتي يصبح أوضح، وقدرتي على الدفاع عن نفسي وعن فكرتي أقوى. باختصارٍ، لم يكن مساري قفزاً من مقلبٍ إلى آخر، بل كان رحلة

نموٍّ داخليٍّ، رحلة بحثٍ عن صيغةٍ توازن بين إيماني الفطري، ووعيي المتنامي، صيغةٍ تجعلني مؤمنةً وحرّةً، في الوقت نفسه.

د. حسام الدين درويش:

هذه مرحلة البناء، إذا أردنا الحديث عن المراحل الفرعيّة؛ أي بعد انطلاقنا من مرحلة الرفض، فقد وصلنا إلى مرحلةٍ بدأت فيها بناء أفكارك، واعتقاداتك، وقناعاتك. وهذه هي المرحلة الأولى التي عرفتِ فيها شحرور، أليس كذلك؟ ماذا عن المرحلة التي بعدها؟

د. ميادة كيالي:

بعد مرحلة الدفاع عن إيماني الداخلي، لم أعد أكتفي بأن أحمي نفسي من الانزلاق إلى دوغمائيةٍ جديدةٍ، أو من الاستسلام للشعور بالذنب. شيئاً فشيئاً، تحوّل هذا الوعي إلى مشروعٍ أكبر، مشروعٍ يفتح المجال لغيري، أيضاً، كي يعبر من مرحلة الرفض إلى مرحلة بناءٍ جديدةٍ. كنت أحمل حبّاً كبيراً لهذه الفكرة، وأؤمن بعمقٍ أن للدين دوراً إيجابيّاً في حياة الإنسان والمجتمع، وأن هذا الدور يجب أن يُستعاد بعيداً عن الاستغلال أو التوظيف الضيق. كنت أبحث، دائماً، عن موقع المرأة داخل المؤسسة الدينية، لا كمُتلقيةٍ مهمشةٍ، بل كفاعلةٍ كاملة الحقوق. فإيماني بعدالة الله جعلني مقتنعةً أن من حقّي أن أكون مبشرةً، وداعيةً، ومؤمنةً، ومدافعةً، بل حتى إمامةً، إن شئت؛ فهذا كله لا يتعارض مع جوهر الإيمان، بل يعبر عن حقيقته. وعندما انتقلت من لبنان إلى الإمارات، كانت تلك

المحطة نقطة تحوّلٍ نوعيةٍ. هناك، لم تعد الفكرة مجرد قناعةٍ شخصيةٍ، بل تحوّلت إلى مؤسسةٍ، إلى عملٍ جماعيٍّ منظمٍ، أُتيح لي من خلاله أن أشارك مع آخرين الهمّ نفسه: همّ الإصلاح الديني والفكري، وفهم العلاقة العميقة بين الدين والمجتمع. معاً استطعنا أن نبلور دراساتٍ ومشاريع تُترجم تلك الأفكار إلى فعلٍ ملموسٍ، وأن نضع حجر الأساس لمسارٍ معرفيٍّ جديدٍ سيُثمر لاحقاً.

د. حسام الدين درويش:

سأعود إلى فكرة المؤسّسة، لكن دعينا نسترجع المثال الذي طُرح حول الهندسة. كيف يمكنك تفسير هذا الانتقال أو التحوّل من مجال الهندسة، الذي يبدو للكثيرين، وأنا منهم، مجالاً تقنيّاً ماديّاً، إلى مجال الفكر الإنساني والإيماني؟ وهل كانت لديك، في مرحلة الهندسة، بذورٌ فكرية أو توجّهاتٌ أثّرت في هذه المرحلة؟ ثمّ هل ما زالت مرحلة الهندسة حاضرةً بطريقةٍ ما فيما بعد مرحلة الهندسة؟

د. ميادة كيالي:

حين اخترت دراسة الهندسة، كنت أظنّ أنني أحقق حلمي الشخصي بالعمل في الميدان، وأمارس المهنة بكل تفاصيلها العملية. لكنني اكتشفت، لاحقاً، أن العقل الهندسي لم يكن مجرد أداةٍ لممارسة مهنةٍ، بل قاعدةٌ ساعدتني، كثيراً، في المراحل الفكرية اللاحقة. فقد عملت بالفعل في الهندسة، بضع سنواتٍ، وكان ذلك متزامناً مع لقائي **بمحمد شحرور** بعد التخرج وقراءتي

لكتابه، حيث قدّم لي رؤيةً مختلفةً تفيد أن العقل الهندسي يمكن أن ينفتح على آفاقٍ فلسفيةٍ، وأن الفلسفة ليست حكراً على العلوم الإنسانية، بل هي ضرورةٌ لتطوير كلّ عقلٍ علميٍّ وتقنيٍ.

هنا اكتشفت ثغرةً كبيرةً في جامعاتنا؛ إذ تُقصى الفلسفة عن التخصصات العلمية، مع أنها الأداة التي تمنح العقل الرياضي الهندسي قدرةً على النقد والتجاوز. ولعل هذا ما يفسر المفارقة التي رأيتها في حياتنا: كثيرون يحملون شهاداتٍ علميةً عاليةً، ومع ذلك يظلون أسرى مسلّماتٍ غيبيةٍ، لم يجرؤوا على إخضاعها للتحليل المنطقي. لقد منحني شحرور تلك الدفعة الأولى لأتجاوز هذه المفارقة، ولأتحول من مجرد مهندسةٍ تمارس عملها إلى باحثةٍ تملك الثقة لتخوض غمار مشروعٍ معرفيٍّ أوسع.

من هنا بدأت رحلتي مع تأسيس مركز الدراسات، ومع قيادة فريقٍ من الباحثين والمفكرين. كنت المديرة، نعم، لكنني شعرت أنني الروح المؤسسة لهذا العمل، وعليّ أن أكون قريبةً من الفريق، لا بعيدةً عنه. وقد تزامن ذلك مع حلمٍ قديمٍ لوالدتي بأن أتابع دراستي العليا، ومع تحدٍّ وضعني **شحرور** في مواجهته حين قال لي يوماً: «من الطبيعي، وأنتِ تقودين هذا العمل، أن تكوني حاملةً لشهادة عليا، مثل من حولك من المفكرين والباحثين». كانت تلك الكلمات تحدّياً حقيقيّاً بالنسبة إليّ، رغم أنني كنت أدرك وأثق بمهاراتي وإمكاناتي في إدارة العمل، ولكن بطبعي أحتاج إلى التحديات كي أصنع المستحيل. وهكذا، لم تكن الهندسة، بالنسبة

إليّ، مجرد مهنةٍ عابرةٍ، بل كانت البذرة التي جعلتني أتعلّم كيف أرى المنطق في الأشياء، وأربط بين البناء المادي والبناء الفكري. ولا تزال تلك المرحلة حاضرةً في داخلي حتى اليوم، كأرضيةٍ صلبةٍ لكل ما بنيته، لاحقاً، في مساري الإنساني والفكري.

د. حسام الدين درويش:

لماذا اخترتِ الهندسة أصلاً؟ هل لإرضاء أهلك، أم تماشياً مع المعايير الاجتماعية، أم لأنكِ كنت ترغبين في ذلك، فعلاً؟ حدثينا عن عوامل اختيارك للهندسة؟

د. ميادة كيالي:

لم يكن اختياري لمجال الهندسة قراراً عفويّاً تماماً، بل جاء في سياقٍ ضاغطٍ. بعد نجاحي في البكالوريا، كانت علاماتي تؤهلني لدخول كلية الطب، وهو الحلم الذي كان يراود عائلتي أكثر مما كان يراودني. شعرت، يومها، أن كلّ فردٍ في العائلة أراد أن يحقق حلمه من خلالي: أختي التي أحبّت الطب، وأخي الذي اتجه إلى الكيمياء، وحتى والدي ووالدتي، جميعهم رأوا في دخولي كلية الطب تحقيقاً لجزءٍ من طموحاتهم المؤجلة. لكنني، بطبيعتي المتمردة، رفضت أن أكون انعكاساً لأحلام الآخرين، وكان رفضي دخول الطب أول إعلانٍ حقيقيٍّ عن استقلاليتي في الاختيار. في المقابل، كنت مولعةً بالرياضيات، أحببت منطقها ودقتها، وفي الوقت نفسه، كانت لديّ ميولٌ فنيةٌ قويةٌ. ولو تُرك لي الخيار وحدي، لاخترت دراسة التصميم وهندسة الديكور؛ لأنها

الأقرب إلى روحي. لكنّ العقلية السائدة، آنذاك، كانت تنظر إلى هذا التخصص نظرةً دونيةً، وترى أنه لا يليق بمعدلاتي العالية، فخشيت أن أصدم أهلي أكثر من اللازم. لذلك، فكرت في الهندسة المعمارية بدايةً كحلٍّ وسطٍ يجمع بين المنطق الرياضي والجانب الفني. ثم التقيت، لاحقاً، بأصدقاءٍ نصحوني بالهندسة المدنية، قائلين إنها ستناسبني أكثر، ما دمت أحبّ الرياضيات وأجيدها. وبالفعل اخترتها، ولم أندم على ذلك مطلقاً، بل وجدت أن الهندسة المدنية انسجمت مع شخصيتي، وأعطتني ما كنت أبحث عنه من تحدٍّ وعملٍ دؤوبٍ، لتكون نقطة الانطلاق إلى مراحل أخرى من حياتي الفكرية والإنسانية.

د. حسام الدين درويش:

التنوع في حياتك، على الأقل مقارنةً بحياتي في هذه المسألة، أكبر بكثير. فلديك خبراتٌ ومهاراتٌ وإنجازاتٌ في مجالاتٍ متعددةٍ: الهندسة، والتصميم، والرسم، والطبخ، والعمل الإداري والتنظيمي، والكتابة الفكرية، والكتابة البحثية والأكاديمية، والكتابة الإبداعية، ...إلخ. فكيف أمكنك الجمع والتوفيق بين كلّ هذه الأمور؟ وهل التركيز على جانبٍ واحدٍ يمكن أن يفضي إلى إهمال الجوانب الأخرى؟

د. ميادة كيالي:

من الطبيعي أن يكون الجمع بين مجالاتٍ متعدّدةٍ على حساب بعضها البعض، وهذا ما اختبرته في حياتي. حين تزوّجت وأصبحت

أمّاً، وجدت نفسي مضطرةً إلى التخلي عن ممارسة الهندسة، على الرغم من أنني كنت أبدع فيها وأحبها. وبعد انتقالي إلى الإمارات، تراجع هذا الجانب أكثر فأكثر لصالح العلوم الإنسانية، التي جذبتني بعمقها وأسئلتها. ومع ذلك، لم تختفِ مواهبي الفنية في الرسم والتصميم الداخلي، فقد بقيت تسكنني وترافقني، لكنني لم أتمكّن من تطويرها كما كنت أتمنى، ولا أنكر أن في داخلي غصّةً كلما تذكرت ذلك. في المقابل، أخذني البحث العلمي والكتابة الفكرية إلى أفقٍ أوسع، لكن حتى هنا كان للعمل الإداري دورٌ في الحدّ من انغماسي الكامل في البحث. الإدارة والعمل المؤسسي استنزفا وقتي، لكنهما منحاني، في المقابل، شعوراً آخر بالإنجاز؛ إذ أصبحت أرى نجاحي متجسداً في كلّ كتابٍ يخرج إلى النور من مؤسستي، وفي كلّ باحثٍ أو مفكرٍ يجد في هذه المؤسسة منصةً لصوته، حيث صار نجاح الآخرين الذين أحتضنهم نجاحي الشخصي.

ومع كلّ هذا، يظل في داخلي حنينٌ إلى لحظات الصفاء الفردي، إلى «الغرفة الخاصة» التي تحدثت عنها **فرجينيا وولف**، حيث تحتاج المرأة إلى غرفةٍ تخصّها لتكتب، وإلى قليلٍ من المال لتكون حرّةً. لقد منحتني الإمارات هذه الفرصة، حيث استطعت أن أكون مستقلةً، أؤمّن احتياجاتي، وأكتب، وأتابع مشاريعي. لكنّني أدرك، في النهاية، أن حياتي كانت، دائماً، معادلةً بين الشغف والواجب، بين ما تمنحه لي الظروف، وما أستطيع انتزاعه لنفسي.

د. حسام الدين درويش:

دعيني أطرح عليك سؤالاً يوصف عادةً بأنه «ذكوريّ»؛ لأنّه لا يُوجَّه عادةً إلا إلى النساء: كيف وفّقتِ بين الأمومة - وأنتِ «أمٌّ»، وتمارسين دورك الأموميّ بعمقٍ كبير - وعملك؟ كيف تمكّنتِ من التوفيق بين أمومتك («المفرطة») وتحصيلك الأكاديمي وعملك الإداري ومسارك المهني عموماً؟ وإلى أيّ مدى كانت هناك صعوبةٌ في النجاح في هذا التوفيق؟

د. ميادة كيالي:

التوفيق بين الأمومة والعمل لم يكن سهلاً مطلقاً، لكنه كان ممكناً. نحن نتصوّر أن لكلّ إنسانٍ دوراً محدداً، وأن هناك، دائماً، من يتولّى الأدوار الأخرى، وهذا تصوّرٌ جميلٌ من الناحية النظرية، لكن الواقع غالباً أصعب بكثيرٍ. ما يعزّيني أن تنظيري اليوم في قضايا المرأة لم ينبع من قراءة الكتب وحدها، بل من تجربةٍ شخصيةٍ كاملةٍ، عشتها بكلّ تفاصيلها وتحدياتها. فلقد التقيت بعددٍ كبيرٍ من المفكرين والمجدّدين، وأعجبتني أفكارهم العميقة في قضايا المرأة والحرية والمساواة. لكن، أحياناً، كنت أُصاب بالصدمة حين أرى أن بعضهم - وليس جميعهم - لا يطبّقون ما ينادون به في حياتهم اليومية. وهذا التناقض بين التنظير والممارسة كان دائماً يترك أثراً كبيراً في نفسي، ويؤكد لي أن الإنسان الذي يحمل رسالةً لا بد أن يجسدها أولاً في سلوكه.

أنا ابنة امرأةٍ حديديةٍ علّمتني أن التعلّم لا يعرف حدوداً. كانت

همستها تسكنني دائماً: تعلّمي، حتى لو لم تَصِلي إلى الإبداع، لا بأس. تعلّمي، حتى لو تبقّى من عمرك يومٌ واحدٌ، فقط. لا تتركي يوماً يمرّ بلا معرفةٍ جديدةٍ. وأنا، في لحظات ضعفي، كنت أعود لأحادث نفسي بصوتٍ خافتٍ: **ميادة**... إذا كنتِ أنتِ التي حملتِ العلم والفكر والإرادة يصيبك التعب أحياناً، فكيف تلومين الآخرين إن لم يواصلوا المسير؟ لا عتبٌ عليهم، فكلٌّ يحمل قدره، وما يستطيع. كنت أخشى على «ميادة الأخرى» في داخلي، تلك الفتاة الشفافة، الحكيمة، الصبورة، أن يطالها اليأس، أو أن تفقد طيبتها تحت ثقل التجارب. لذلك كنت أمدّها دوماً بالقوة، أحتضنها كأمٍّ تحتضن ابنتها، وأقول لها: أنتِ قادرة... استمرّي... الطريق لكِ، فلا تتراجعي.

د. حسام الدين درويش:

في كثير من المجالات يُختزل دور المرأة في البعد الأمومي. وفي خصوص الاتساق بين القول والفعل عند المفكرين، لنأخذ مثاليْ ماركس وروسو: فماركس كان يريد تغيير العالم، لكن وسطه الأسروي كان سيئاً كثيراً، ولولا الاعتماد على المساعدات من صديقه، لمات أفراد أسرته جوعاً، فكان عمله الفكري في المجال العام يؤثر، سلباً، في دوره كأبٍ في أسرته. وروسو، على الرغم من أنه كتب أعظم كتابٍ في فلسفة التربية، وضع أطفاله في الميتم. في المقابل، غالباً ما تُضحّي النساء بمسارهن المهني، بسبب الأمومة. فكيف كان الوضع عندك؟

د. ميادة كيالي:

لم أتربَّ في بيتٍ يختزل دور المرأة في الزواج والتفرغ للمنزل. على العكس، كانت أمّي تتألم؛ لأنها رأتني أُضحّي بدراستي وعلمي، حين تفرغت لتربية أولادي. قبل وفاتها بعشرين يوماً فقط، قالت لي كلماتٍ لا تزال تحفر في داخلي: «أنا لست غاضبةً من شيءٍ، أنا فخورةٌ بك، لكنني حزينةٌ لأنك لم تكملي دراستك وعملك. ميادة ليست من النساء اللواتي يعجزن عن الجمع بين الأمرين». حاولت أن أشرح لها أنني اخترت الأمومة آنذاك، لكنها أعادتني إلى جوهر رسالتها: أن الإنسان إذا جاء إلى الدنيا، ومضى دون أن يترك أثراً يتذكره الناس من بعده، فكأنه لم يولد ولم يعش. هذه الجملة، بالذات، كانت نقطة انطلاقي الجديدة، منذ عام 2006 وحتى الآن. شعرت أن الله منحني القدرة على صناعة شيءٍ له معنى، وعليّ ألّا أتراجع.

من هنا أرى أن دور الأمّ ليس مقصوراً على الرعاية، بل هو المحرك الأساس للتربية وصناعة الأثر. والأمّ إذا أيقنت أنها قادرةٌ على العطاء داخل المنزل، فهي، بالتأكيد، قادرةٌ على العطاء خارجه أيضاً. هذه القدرة أشبّهها بما يُعرف اليوم بالتفكير الشبكي؛ المرأة بفضل عاطفتها الأمومية تستطيع أن تربط بين أدوارها المختلفة، أن تفكر في أكثر من بعدٍ، في وقتٍ واحدٍ، وأن تُنجز في حياتها الخاصة والعامة معاً. وكنتُ أهمس لنفسي حينها: يا ميادة، لا تدعي الأمومة تتحول إلى قيدٍ، بل اجعليها جسراً. فالعاطفة التي

تجعلك تحضنين أبناءك، هي ذاتها التي تجعلك قادرة على احتضان فكرةٍ، أو مشروعٍ، أو حلمٍ، وتحويله إلى حقيقةٍ.

د. حسام الدين درويش:

والدليل أن الأمر أصعب مقارنة بالرجل؛ فالوظائف والأدوار التي تقوم بها المرأة أكبر بكثيرٍ. إذا انتقلنا إلى منظورٍ آخر، يمكن القول إن كلّ كاتبٍ يبدأ بالقراءة؛ أي ليس فقط تعلم القراءة، بل الاطلاع على مؤلفات الآخرين وكتبهم ونصوصهم. بعدها تأتي مرحلة إنتاج النصوص. طبعاً، المرحلة الثانية عادةً لا تلغي الأولى؛ إذ الطابع الغالب أنه لم يعد يُعرف كقارئ، وإنما ككاتب. حدّثينا: كيف كانت قراءاتكِ في البداية؟ ثم كيف انتقلتِ إلى مرحلة الكتابة؟

د. ميادة كيالي:

وأنت تسألني عن البدايات عن مرحلة القراءة، لمعت في بالي ذكرى عميقة الأثر، ربما لم أنتبه إليها إلا الآن، تذكرت «**دار مطبوعات الكيالي**»، والآن شعرت أنني وريثة صناعةٍ «كياليةٍ» بامتيازٍ، وكأنَّ القدر كان يرسم مساره منذ نعومة أظفاري. فبعد أن كانت «دار عبد الرحمن كيالي للمطبوعات»، أظن هكذا كان اسمها، نسبة إلى صاحبها **عبد الرحمن كيالي** - ابن عم والدي - من أهم دور النشر والتوزيع لكل أنواع الإصدارات: كتباً ومجلاتٍ وجرائد، جاء قانون التأميم، فأُغلقت الشركة وتوزع مخزونها من الكتب على جميع أفراد العائلة.

كبرتُ بين تلك الكتب، وكثيراً ما تهتُ في عناوينها الكبرى

مثل **هكذا تكلم زرادشت**. كنت أحاول أن أقلّد والدي المولع بالقراءة، فأفتح الكتب دون أن أفهم منها الكثير. لكنني كنت أشعر بسحرٍ خفيٍّ، كأنني أمارس طقساً خاصاً بي، أقترب فيه من عالمٍ أكبر من سنّي. واليوم، فقط، أدركت أن ذلك السر هو الذي أوصلني إلى ما أنا عليه الآن: أنني عشت محاطةً بالكتب، مشبعةً برائحتها وأغلفتها وعناوينها، حتى صارت جزءاً من تكويني العميق. والآن أضحك لأن القدر، الذي أخذ من العائلة صناعة النشر ذاتها، أعادها إليّ على نحوٍ آخر؛ لا كإرثٍ عائليٍّ فقط، بل، أيضاً، كمصيرٍ شخصيٍّ أحمله وأواصل به المسيرة، بعدما صارت القراءة والكتابة هي الخميرة التي صنعت عالمي كله.

وحين أصبحت «**ميادة الكاتبة**»، كانت الكتابة، بالنسبة إليّ، هروباً من اللحظة التي اكتشفتُ فيها أنني حصرتُ نفسي في مجال الأمومة، وابتعدتُ عن ذاتي، ونسيتُ أدواري الأخرى. ثم جاء رحيل والدتي، ومع تذكّر الرسالة التي تركتْها لي، كانت تلك النجاة؛ لأنها دفعتني إلى أن أخرج وأفعل شيئاً. وفعلاً، تلك المقالات التي بدأتُ كتابتها في جريدة العصر مطلع عام 2004، واستمرت على مدى سنوات، لم يخطر ببالي، حينها، أن هذه الكتابات ستتحوّل، لاحقاً، إلى خميرةٍ أستند إليها، وأنقلها معي كتجربةٍ، حين جئتُ إلى الإمارات. كانت بمنزلة البذور الأولى التي نَمَت مع الوقت، وأعادت إليّ صوتي الداخلي، لأكتشف أنّ الكتابة لم تكن مجرد فعلٍ للهروب، بل كانت فعلَ ولادةٍ جديدةٍ.

هنا، في الإمارات، أدركت أنّ تلك التجارب الصغيرة التي بدت عابرةً، تحوّلت إلى أساسٍ لمشروع حياتي كلّه. الكتابة التي بدأت بالنجاة الشخصية، غدت، فيما بعد، مشروعاً مؤسسياً، وجسراً للتأثير في الآخرين. ومن رحم الأمومة واليُتم بعد رحيل والدتي والاغتراب، وُلدت «**ميادة الكاتبة**» التي تحمل اليوم مشروعاً يتجاوز حدودها الفردية، ليصير مساحةً أوسع للتفكير والتجديد.

د. حسام الدين درويش:

قبل الانتقال إلى مرحلة الكتابة، هل هناك أعلامٌ ما، نصوصٌ ما، يمكنكِ تذكّرها؟

د. ميادة كيالي:

أذكر أنني، في تلك المرحلة، كنت أتابع بعض الكتب، وأقرأ لعددٍ من الكتّاب الذين تركوا بصماتهم في تكويني المبكر، مثل **غادة السمان، وألفة إدلبي، وأسيمة درويش، وبيير داكو**. ومن الكتب التي أستحضرها بقوةٍ كتاب «**المرأة: بحث في سيكولوجية الأعماق**»، الذي كان له أثرٌ كبيرٌ في داخلي. كان تحليلاً عميقاً ورائعاً للاختلاف بين الرجل والمرأة، وكيف تحوّل هذا الاختلاف الطبيعي إلى أداةٍ للتمايز، ليصبح الرجل هو المعيار، والمرأة هي الطرف الناقص. هذا الوعي الذي أيقظه الكتاب في داخلي ظلّ حاضراً، خاصة وأنني قرأته في السبعينيات؛ أي في وقتٍ مبكرٍ جداً من حياتي، فكان الشرارة الأولى التي جعلتني أنتبه إلى قضيّة المرأة، وإلى كيفية تشكّل الصورة الاجتماعية حولها.

د. حسام الدين درويش:

ننتقل إلى مرحلة الكتابة، كيف تطورت، وأنتِ قد بدأت منذ 2003- 2004؟

د. ميادة كيالي:

بدأتُ الكتابة، رسميّاً، في جريدة العصر بداية عام 2004 وحتى نهاية 2006، وكانت الكتابة في الجريدة حلماً شبه مستحيلٍ في تلك المرحلة. ومع مرور الوقت، تحوّل العمود الذي كنت أكتب فيه إلى محطّ اهتمام القرّاء في منطقة البقاع اللبنانية، حيث كانت الجريدة تُوزَّع هناك، ويحمل اسمها طابعاً روائيّاً. كان لي عمودٌ ثابتٌ على مدى ثلاث سنوات، أتناول فيه قضايا المرأة، والرجل، والعائلة، والأخلاق، والعادات. وقد كتبتُ بلغةٍ قريبةٍ من الناس، بلغةٍ سمّتها إحدى الصديقات «حواضر البيت»؛ لأنها كانت قصصاً أؤلّفها لأمرّر من خلالها رسالةً هنا وأخرى هناك، ولأفرغ طاقتي المكبوتة، وأنا أبحث عن عالمٍ آخر خارج عالمي المحصور بين أربعة جدران. كانت تلك المقالات متنفّسي الأول، ومساحتي الصغيرة التي أتنفّس فيها الحرية. وما زلت أتذكّر سعادتي حين كنت أكرّر زياراتي إلى أمين مكتبة أنطون في الحمراء، الذي عرفني خلال فترة حملي، وما سبقها من سنوات علاجٍ في مشفى الجامعة الأمريكية، حيث كنت أمرّ عليه، لأقتني الكتب. كان يقرأ مقالاتي، ويشجّعني، كثيراً، فكان لكلماته أثرٌ بالغٌ في نفسي.

ذات مرةٍ، أرسلتُ بعض مقالاتي إلى الإعلامي والشاعر الكبير

زاهي وهبي، وكان يقدّم، آنذاك، فقرة «**قرأتُ لكم**» على شاشة تلفزيون المستقبل، وكم كانت سعادتي حين قرأ إحداها على الهواء! شعرتُ يومها بأن صوتي الصغير قد وصل إلى العالم. بعدها، انتقلتُ إلى الإمارات، وأخذتُ معي تلك المقالات دون أن يخطر ببالي أنها ستتحوّل يوماً إلى كتابٍ، أو أنني سأصل إلى مرحلةٍ أُشرف فيها على مؤسسةٍ تُصدر كتباً، ثم أؤسّس دار نشرٍ تنشر أعمالاً فكريةً وبحثيةً مرموقةً، لأهم الباحثين والمفكرين. لم يكن ذلك الحلم في ذهني، لكنّ القدر كان يرسم خطّه بصمتٍ، خطوةً خطوةً، حتى وصلتُ إلى ما أنا عليه اليوم.

وكلّما عدتُ بذاكرتي إلى تلك المقالات الأولى، أشعر كأنني أرى الخيط الخفيّ الذي نسج مساري كلّه؛ من امرأةٍ تبحث عن ذاتها، بين أربعة جدران، إلى ناشرةٍ تفتح نوافذ المعرفة لغيرها. أدركتُ أن الأحلام الصغيرة التي نكتبها بخجلٍ، قد تكون هي البدايات الحقيقية لأقدارٍ كبيرةٍ، فقط إن صدّقناها ومضينا في طريقها.

د. حسام الدين درويش:

على الرغم من أن لديك أسباباً كثيرةً، في حياتك الخاصة والعامة، والتي يمكن أن تجعلك نسويةً متطرفةً، معاديةً للرجال إلى حدّ الكراهية، تبدو نسويتك معتدلةً جدّاً، بل متطرفةً في اعتدالها، فكيف توضحين ذلك؟

د. ميادة كيالي:

دائماً أقول إنني لا أستطيع أن أكون معاديةً للرجل؛ لأنني

أؤمن بدوره في حياتي، وفي الحياة عموماً، ثم إنني أمٌّ لتوأمٌ من الذكور، ولا يمكنني أن أكون ضدّهم. على العكس، أشعر بالفخر؛ لأنني نجحت في تربية أولادي على التصالح مع فكرة المساواة، من دون أن يتبنّوا تفوقاً ذكوريّاً، تماماً كما لم أُربَّ أنا عليه في بيتي.

وأنا ضدّ النسوية المتطرفة المعادية للرجل؛ لأنني أرى أن الرجل في مجتمعاتنا هو أيضاً ضحيةٌ، مثل المرأة تماماً. هو الآخر يرزح تحت وطأة القهر وغياب الحرية، ومن غير المنطقي أن نطالبه بتحرير المرأة، وهو نفسه لم يتحرر بعد. لذلك، أرى أن معركتنا الحقيقية ليست بين المرأة والرجل، بل بين الإنسان والظلم، أيّاً كان شكله أو مصدره. ولا أميل إلى الانجرار وراء التنظيرات النسوية المبالغ فيها؛ فالتنظير شيءٌ، والتجربة الحياتية الواقعية شيءٌ آخر. كثيرٌ من الخطابات النسوية المعاصرة، كما ألاحظ أحياناً في مساحات «كلوب هاوس» أو «تويتر»، تنطلق من مفاهيم مجردةٍ عن الطلاق والزواج وحقوق الأطفال، من نساءٍ لم يعشن تلك التجارب فعلياً، ولم يختبرن مسؤولية أن تكون أمّاً تحمي أبناءها وسط الأزمات والخلافات؛ تلك التجربة العملية العميقة هي ما يضفي على الوعي النسوي واقعيته وصدقه. وبرأيي، تحتاج النسوية، اليوم، إلى أن تنزل قليلاً إلى أرض الواقع، لترى كيف تعيش النساء في مجتمعاتنا، وتفهم خصوصية السياق الاجتماعي والثقافي الذي نحياه. لا يمكننا، ببساطةٍ، استيراد الأفكار التي تطوّرت في أوروبا

عبر قرونٍ، وتطبيقها كما هي عندنا؛ لأن الظروف والتاريخ مختلفان.

أنا مع المساواة التامة في الحقوق والواجبات، ومع أن تُصان كرامة المرأة كاملةً؛ لأنها إنسانةٌ مسؤولةٌ لا تابعةٌ. كل القوانين التي تجعلها تابعةً لأيّ رجلٍ، أرفضها رفضاً قاطعاً. لقد تعلّمت من تجربتي أن المرأة، إذا توافرت لها المعرفة والعمل والاستقلالية، تستطيع أن تشقّ طريقها بثقةٍ، وتحمي نفسها، وتكون سيدة نفسها، مثل الرجل تماماً. لكن المساواة لا تعني الصراع. فليست غايتي أن تُدمّر المرأة الرجل، بل أن ينهضا معاً؛ لأنني، من خلال دراستي للتاريخ، أؤمن أن المرأة كانت، دائماً، شريكةً في بناء الحضارة، جنباً إلى جنب مع الرجل، ولن يكتمل مستقبل الإنسانية إلا بهذا التوازن بينهما.

النسوية التي أؤمن بها ليست صراعاً على السلطة، ولا انتقاماً من تاريخٍ ظالمٍ، بل هي وعيٌ عميقٌ بالإنسان في المرأة والرجل معاً. هي مشروع تحرّرٍ مشتركٍ، غايته ليست قلب المعادلات، بل استعادة التوازن المفقود بين العقل والعاطفة، بين القوة والرحمة، بين العدل والحبّ. فحين تتحرّر المرأة، من دون أن يفقد الرجل مكانه الإنساني، يصبح الاثنان، معاً، شركاء في إعادة بناء العالم على أسسٍ أكثر عدلاً وإنسانيةً.

د. حسام الدين درويش:

دعيني أختم بالحديث عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود التي

تديرينها حالياً، والتي تشهد لها الكتب الصادرة عنها. حدّثينا كيف انتقلتِ من مجال القراءة والكتابة والتأليف إلى العمل الأساسي والظهور الاجتماعي والمؤسساتي والمهني الأساسي في هذه المؤسسة؟ حدثينا عن هذه المرحلة؟

د. ميادة كيالي:

بلا شك، كانت هذه التجربة هي الأغنى والأكثر عمقاً في حياتي. إنها، بحقٍّ، تجربة عمري، خرجتُ من سوريا مهندسةً، ومن لبنان أمّاً لتوأمي، وأكتب مقالاتٍ في الصحف، ثم وصلتُ إلى الإمارات، فبدأتُ رحلةً جديدةً من البحث عن الذات عبر الدراسة والعمل. تابعتُ دراستي حتى نلتُ شهادة الدكتوراه، وأصبحتُ مديرةً لمؤسسة دراساتٍ، ثم مديرةً لدار نشرٍ، ومع مرور الوقت، صرتُ أرى أفكاري ومشاريعي تتجسّد في مؤلفاتٍ وبحوثٍ ومبادراتٍ فكريةٍ.

أذكر جيّداً أنني، عند وصولي إلى الإمارات، شاركتُ الدكتور **محمد شحرور** في إعداد كتاب «**القرآن والأخلاق والعقل النقدي**» باللغة الإنجليزية، الموجَّه إلى القارئ الغربي. وكان المترجم والمحرر الأكاديمي **د. أندرياس كريسمان** هو من تولّى تحريره. أتذكّر أنه سألني، ذات يومٍ في عام 2008: «ميادة، ما حلمك في الحياة؟» فأجبته دون تردّدٍ: «أن أرى معهداً أو جامعةً تدرّس هذا الفكر التنويري، وتساعد في إحداث نقلةٍ في العقل العربي، ليصبح فينا من يسمع خطاباً جديداً متصالحاً مع قيم الحداثة والحرية

والإنسان». ولم أكن أدرك، حينها، أن هذا الحلم سيبدأ بالتحقق، فعلاً، بعد سنواتٍ قليلةٍ من عملي في الإمارات. فقد وجدت نفسي أؤسس دار نشرٍ، ثم مؤسسةٍ بحثيةٍ تُعنى بالدراسات الفلسفية والدينية والفكرية. ومع الوقت، رأيت المشهد الفكري الإماراتي والعربي يتغير: مراكز للدراسات، وجامعات تُدرّس الفلسفة والأخلاق، مثل جامعة **محمد بن زايد**، وبيت الفلسفة، وغيرها من المؤسسات التي تجسّد الحلم الذي راودني ذات يومٍ. شعرت، حينها، أنني جزءٌ من هذا الحلم الكبير الذي صنعته الإمارات بوعيها وثقافتها.

أما مؤسسة «**مؤمنون بلا حدود**»، فهي، بالنسبة إليّ، ليست مجرد مؤسسةٍ بحثيةٍ أو دار نشرٍ، بل كيانٌ أحمله في داخلي كما تحمل الأم أبناءها، لكنها أمومةٌ من نوعٍ خاصٍّ، أمومةٌ مسؤولةٌ لا عاطفيةٌ مفرطةٌ. فأنا لا أُجاملها، كما لا أُجامل أبنائي، بل أواجهها بالحقيقة دائماً: أن تصيب أو تخطئ، أن تنهض أو تتعثر، لكنّها تظلّ مشروعي الذي أضع فيه إيماني العميق بالمعرفة والإنسان. وقد مرّت المؤسسة، كما تعلم، بمرحلةٍ صعبةٍ بعد جائحة كورونا، شأنها شأن كثيرٍ من المؤسسات الثقافية العربية التي تقلّص نشاطها، وتراجعت إمكاناتها. لكنّني اعتبرت ذلك امتحاني الأكبر: هل أستطيع أن أحافظ على هذا الإرث الفكري الذي بنيناه عبر سنواتٍ؟ وهل أستطيع أن أُبقي على هذا النبض التنويري حيّاً؟ وكان الجواب: نعم، بالإصرار وحده. حافظتُ على النشر، وعلى الموقع، ثم أعدنا إطلاق الندوات

والحوارات، من داخل البيت كما أقول دائماً. وعندما أعلنا، مؤخراً، عن برنامجنا الجديد، انهالت عليّ رسائل الدعم والفرح من كبار المفكرين العرب: **د. أحمد برقاوي، ود. رضوان السيد، ود. عبد الله ولد أباه، ود. محمد بشاري**، وغيرهم من الأسماء التي نعتزّ بها جميعاً. كانت كلماتهم تأكيداً أن «**مؤمنون بلا حدود**» لم تكن مجرد مؤسسةٍ، بل تجربةً فكريةً أثّرت بعمقٍ في الحراك الثقافي العربي.

اليوم أرى في كلّ كتابٍ يصدر عن «**مؤمنون بلا حدود**»، وفي كلّ حوارٍ أو ندوةٍ أو مشروعٍ فكريٍّ ننجزه، ثمرةَ حلمٍ بدأ بخطوةٍ صغيرةٍ. لذلك أقول دائماً: هذا المشروع لا يخصّني وحدي، بل يخصّ كل من يؤمن بالمعرفة طريقاً للحرية. وأتمنى من كل من يسمعني أن يشاركنا في مواصلة هذا الطريق، كي نحافظ على هذا التراكم الثقافي والإنساني؛ لأنّ مستقبل «**مؤمنون بلا حدود**»، في رأيي، ليس مجرد مؤسسةٍ، بل فكرة، والفكرة التي نؤمن بها لا تموت.

د. حسام الدين درويش:

سأختم بسؤالٍ من المفروض أنه كان علينا أن نبدأ به: البحث عن الذات، كما يشير عنوان اللقاء. بأيّ معنى يكون البحث عن الذات؟ ما الذات التي تبحث عنها الدكتورة ميادة اليوم؟ هل هي ذاتٌ موجودةٌ مسبقاً تحاولين إزالة الغبار عنها، أم ذاتٌ تسعين إلى صنعها؟ الذات في مواجهة مَن؟ وما أو من الذي يمنع من إيجادها أو تحقيقها؟

د. ميادة كيالي:

لا شك أن لكلّ إنسانٍ أكثر من «أنا»: الأنا الداخلية التي تُشكّل جوهره الحقيقي، والأنا التي يراها الآخرون، ثم تلك «الأنا العليا» التي تفرضها عليه الأعراف والتوقعات الاجتماعية. وفي تجربتي، مررتُ بمراحل شعرتُ فيها أنني أسيرة لتلك «الأنا العليا»؛ فوالدي، كما ذكرت سابقاً، كان دائماً يرفع سقف التوقعات عالياً: «ميادة يجب أن تكون كذا، وميادة لا يجوز أن تفعل كذا»، وكأنني مطالَبةٌ، دائماً، بأن أكون النسخة المثالية التي تخيّلها عنّي. لكنّ الإنسان، مهما علا سقف التوقعات، يبقى كائناً يحمل ضعفه وأخطاءه، وله حقّه في الفشل، كما له حقّه في النجاح. لذلك، كان بحثي عن الذات هو بحثٌ عن التوازن بين الداخل والخارج؛ بين ميادة الطفلة التي تسكنني، بعفويتها ودهشتها وخوفها من الفقد، وميادة الظاهرة أمام الناس، التي تتولى المسؤوليات وتواجه العالم بقوة وثقة.

وأظن أن سرّ الأمان الذي أشعر به، اليوم، هو أن المسافة بين الاثنتين باتت قصيرةً جداً، لم أعد أحتاج إلى إخفاء واحدةٍ خلف الأخرى. أنا اليوم لا أبحث عن ذاتٍ ضائعةٍ، بل أسعى إلى صون الذات التي وجدتها بعد رحلةٍ طويلةٍ من التناقضات والمواجهات. هي ذاتٌ تصالحت مع ماضيها، وتعيش حاضرها بوعيٍ عميقٍ، وتؤمن أن الطريق إلى الحقيقة ليس خارج الإنسان، بل في أعماقه. ولهذا أقول دائماً: إنّ أجمل ما في رحلة البحث عن الذات أنها لا تنتهي؛ لأننا نتجدد كل يومٍ، ومع كل تجربةٍ نولد من جديدٍ.

د. حسام الدين درويش:

الذات التي تبحث عنها ميادة هي الذات التي تريدها، الذات التي تتناسب معها، وليست، بالضرورة، الذات التي يريدها الآخرون أو التي يتوقعونها. والتصالح بين الأمرين هو الحلم، نأمل ذلك. شكراً جزيلاً لك.

د. ميادة كيالي:

شكراً جزيلاً لك. ولعلّ هذا التصالح هو ما يجعل الإنسان يولد من جديدٍ في كل مرحلةٍ من حياته. لقد وُلدتُ أكثر من مرةٍ، لكنّ ولادتي الحقيقية كانت حين عرفت من أنا، وحين أدركت أنّ البحث عن الذات لا يعني العثور عليها، بل الحفاظ على نورها مشتعلاً مهما تغيّر الزمان والمكان.

الفصل الرابع

في الأمومة والكتابة

أثرٌ من الحبر والحبّ معاً[1]

أ. بشرى فرج الأحمدي - د. ميادة كيالي

أ. بشرى فرج الأحمدي:

أخبرينا عن نفسكِ، أمّاً وكاتبةً، ومن كان له دورٌ فاعلٌ في حياتكِ، حتى تكوني أنتِ؟

د. ميادة كيالي:

أنا ابنة امرأةٍ حديديّةٍ صنعتني بحلمها وقوّتها. قبل أن أكون أمّاً وكاتبةً، كنتُ ابنة امرأةٍ استثنائيةٍ، امرأةٍ آمنت بالعلم، أحبّت

(1) هذا الحوار جزء من كتاب سيصدر قريباً للكاتبة بشرى فرج الأحمدي: الكاتبة والناشطة الثقافية بشرى فرج الأحمدي عضو هيئة التدريس في جامعة طيبة بالمدينة المنورة المملكة السعودية، ومؤسسة منصة 23 أبريل للتدريب على الكتابة ونشر ثقافة القراءة. وتم نشره على موقع مؤمنون بلا حدود في الرابط
https://www.mominoun.com/articles/ الأمومة-والكتابة-أثر-من-الحبر- والحب-معا-9800

التعلّم، ورأت في المعرفة باباً للحرية. كانت والدتي تحلم بمكتبةٍ كبيرةٍ تحتضن كتب العالم، لكن منزلها الصغير لم يتّسع لهذا الحلم، فظلّ مؤجّلاً حتى تحقق بعد رحيلها. اليوم، مكتبتي تعادل نصف بيتي، ليست، فقط، امتداداً لحبّ الكتب، بل تجسيداً لحلمها الذي لم يتحقق في حياتها، لكنه تجذّر في حياتي. أما حلمها الآخر فكان أن أكمل تعليمي العالي وأحصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية، لكن الحياة قادتني إلى طريقٍ آخر. درستُ الهندسة المدنية فعلاً، غير أن شغفي قادني إلى التاريخ، فأكملتُ دراساتي العليا في مجالٍ مختلفٍ، وحصلتُ على الماجستير والدكتوراه في تاريخ الحضارات القديمة، وتحديداً في تاريخ المرأة والزواج، حيث تكشف دراسة التاريخ كيف فُرضت الهيمنة على النساء عبر العصور.

قد لا يكون هذا ما حلمت به والدتي، تماماً، لكنه كان المسار الذي وجدت نفسي فيه، وصنعت ذاتي من خلاله. والأهم أنني، مثلها، لم أسمح للظروف بأن تحدّ من أحلامي، فقد عدتُ إلى العمل بعد انقطاع، وأثبتُ أن الانقطاع لا يعني النهاية، بل هو فصلٌ من فصول الرحلة، يمكن للمرء أن يعيد أو يستأنف كتابته كما يشاء.

كانت أمّي امرأةً حديديةً، لم تفقد أنوثتها رغم صلابتها. جمعت بين القوّة والحنان والحكمة في آنٍ واحد، وكانت تعرف كيف توازن بين العاطفة والعقل، بين الواقع والأحلام. ورثتُ عنها

صبرها، طموحها، ذكاءها، وحتى ملامحها. علّمتني ألّا أكون جبانة، أن أكره الكذب، أن أعشق العمل، وأن أتحدّى نفسي قبل أن أنافس الآخرين. وألّا أستسلم للظروف مهما كانت. لكن أكثر ما زرعته في داخلي، وما ظلّ صداه يتردد مع كل محطة في حياتي، كان درساً استمدّته من مثل شعبي كانت تكرّره دائماً: «إن أحببتِ، أحبّي أميراً، وإن عيّروكِ به، فليكن يستحق التعيير».

لم يكن مجرد مثلٍ، بالنسبة إليّ، بل أصبح قاعدةً وجوديةً، معياراً يقيس كل اختياراتي. علّمني أن الحبّ، بكل أشكاله، سواء كان حباً لرجلٍ، أو لمهنةٍ، أو لطموحٍ، أو حتى لفكرةٍ، لا يكون هبةً مجانيةً، بل يجب أن يكون مستحقاً، أن يحمل قيمة تُبرر التمسك به، حتى لو عُيِّرت بسببه. ولقد منحني هذا المثل شجاعةً صامتةً، تجعلني أقف بثباتٍ في مواجهة أولئك الذين ينتظرون سقوطي ليقولوا: ألم نقل لكِ؟، وأن أتحمل مسؤولية اختياراتي كاملةً، أدافع عنها إن كانت تستحق، وأمتلك الشجاعة للتراجع إن ثبت أنها لا تستحق. إنه درسٌ في الكرامة، أكثر منه درساً في الحبّ، ودرسٌ في الحكمة أكثر منه في التعلق.

كانت الأمومة تجربةً غنيةً، لكنها لم تُلغِ ذاتي، بل أعادت تشكيلها. لكن عندما رحلت والدتي عام 2003، شعرت أنني أغرق في بحر الحزن، ووجدت في الكتابة طوق نجاةٍ، شبيهاً بالحبل السرّي الذي يربط الحياة بمنشئها. بدأتُ في كتابة المقالات لصحيفةٍ محليةٍ في زحلة (العصر سابقاً، الروابي حاليّاً)، فكان

قلمي وقتها يداوي جروحي، قبل أن يتحوّل إلى هويةٍ مستقلةٍ تشكّل جزءاً من ذاتي. لم أعد أماً فقط، بل أصبحتُ أماً وكاتبةً، ثم مديرة مركز دراسات، وبعدها مديرة دار نشر. لم أعد أحمل مسؤولية أبنائي فقط، بل مسؤولية إيصال أصوات الآخرين إلى النور، أيضاً.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

كيف جمعت في حياتك بين الأمومة والكتابة؟

د. ميادة كيالي:

لم أكن كاتبةً في الأصل، بل كنتُ مهندسةً مدنيةً، أرسم الجسور على الورق، قبل أن تبني الحياة جسورها الخاصة بيني وبين الكتابة. لم تكن الأمومة والكتابة مجرد محطتين عابرتين في حياتي، بل تشابكتا معاً لتصنعا امرأةً لم تكن مضطرةً لأن تختار بين الحبّ والإبداع، بين الرعاية والكتابة، بين العطاء والبحث عن الذات. وعندما تزوجتُ وانتقلتُ إلى لبنان عام 1994، تفرّغتُ، تماماً، لأمومتي، متخلّية عن الهندسة، لأكتشف أنني أمارس هندسةً من نوعٍ آخر: هندسة الروح، وتشكيل العاطفة لطفلين توأمين.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

ما هي أبرز التحديات التي تواجهينها كأم كاتبة؟

د. ميادة كيالي:

أعظم تحدٍّ واجهته لم يكن في الكتابة ذاتها، بل في إيجاد المساحة التي يمكن أن تنمو فيها الكتابة وسط زخم المسؤوليات.

تطرح **فيرجينيا وولف** في كتابها «**غرفة تخص المرء وحده**» فكرةً مفادها أن المرأة، لكي تكتب وتبدع، تحتاج إلى الاستقلال. وفي الواقع، المرأة تحتاج إلى ما هو أبعد من ذلك، تحتاج إلى شرعية حلمها، إلى ألا يكون إبداعها ترفاً أو استثناءً. وحين انتقلت إلى أبو ظبي عام 2006، وبدأت عملي في المجال الثقافي، لم يكن التحدي في إيجاد الوقت للكتابة، فقط، بل، أيضاً، في إثبات أنني أستطيع أن أكون كلّ شيءٍ: أماً، وعاملةً، وكاتبةً، ومديرةً لمشروعٍ ثقافيٍّ ضخمٍ. كان عليّ أن أبرهن أن العقل لا يُقصى بسبب الأمومة، وأن القلم لا يجفّ بسبب ازدحام الحياة.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

هل شعرتِ يوماً أنكِ ممزقةٌ ذهنياً بين مهام الأمومة والكتابة؟

د. ميادة كيالي:

كان هذا التمزق رفيقي الدائم، ولا سيما عندما قررت استكمال تربية أبنائي وحدي، إلى جانب متابعة دراستي في العلوم الإنسانية، وتحديداً في تاريخ الحضارات القديمة، بالتوازي مع عملي. كانت الأمومة تعني لي السهر على تربية أبنائي وضمان نجاحهم، بينما تعني الكتابة السهر على أطروحة الماجستير ولاحقاً الدكتوراه. كنت أقضي الليالي بين مراجع التاريخ وأوراق الدراسة، مستغلّةً ساعات نومهم كملاذي الوحيد. لكن التحدي الحقيقي لم يكن في الجهد وحده، بل في مقاومة ذلك الصوت الداخلي الذي يهمس: «هل يمكنكِ، حقاً، أن تفعلي كل هذا يا ميادة؟» وكانت الإجابة تأتي من نظرات أبنائي

حين كبروا، وهم يروننني أحقق الإنجاز تلو الآخر، وكأن الصفحات التي خطها قلمي أصبحت دليلاً على أن الأمومة والكتابة ليستا نقيضين، بل وجهين للقوة ذاتها.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

أفصحت العديد من الأمهات عن شعورهن بذوبان هويتهن خلال أداء دور الأمومة. برأيك، متى تكون الكتابة استعادةً للذات؟

د. ميادة كيالي:

حين تفقد المرأة نفسها في دوامة العطاء المطلق، تصبح الكتابة عودةً إلى الجوهر، كأنها تعيد ترميم روحها بحروفها الخاصة. يربي المجتمع المرأة على أن تكون «أماً متفانيةً» حتى الذوبان، لكن الكتابة كانت طريقي للعودة إلى ذاتي، ليس لرفض أمومتي، بل لتحويلها إلى مصدر قوتي. تقول الروائية والشاعرة الأمريكية **سيلفيا بلاث**: «أكتب لأن هناك صوتاً في داخلي لن يسكت». وأنا كتبت لأن الكتابة لم تكن ترفاً، بل كانت وسيلتي لأبقى حيةً وسط كل الأدوار التي طُلب منّي أن أؤديها.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

كيف تجدين الوقت الكافي للجلوس أمام شاشة الكمبيوتر وكتابة المسودات؟ وما هي طقوسك للحصول على الهدوء والقدرة على التركيز بوجود أفرادٍ تعتنين بهم؟

د. ميادة كيالي:

الوقت لا يُمنح، بل يُنتزع من قبضة الأيام. الكتابة لم تكن لحظةً

هادئةً أمام مكتبٍ أنيقٍ، بل كانت سطوراً تُكتب على هامش الحياة؛ بعد أن ينام أطفالي، بين فنجان قهوةٍ وآخر، أو حتى أثناء تحضير الطعام، أو في زحام العمل. كما أن الأفكار لا تأتي وفق جدولٍ زمنيٍّ، بل تتسلل فجأةً، في منتصف الليل، أو أثناء مرافقة طفلٍ إلى المستشفى. لهذا، تعلمت أن أكتب في أيّ مكانٍ، وبأيّ وسيلةٍ: على دفاتر، في رسائل إلكترونيةٍ أرسلها إلى نفسي، أو حتى في تسجيلاتٍ صوتيةٍ سريعةٍ؛ لأن الكتابة، مثل الحياة، لا تنتظر أحداً.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

هل تزيد الكتابة ومهامها من وخز الضمير تجاه أطفالك؟ وكيف تتعاملين مع هذا الشعور؟

د. ميادة كيالي:

كلّ أمٍّ تعاني من هذا الوخز؛ لأن المجتمعات تُربّينا على أن كل ما تفعله المرأة خارج دورها التقليدي هو رفاهيةٌ. ولطالما شعرت بالذنب تجاههم، وفي الوقت نفسه، شعرت بالتعب من تحمل كل المسؤوليات. لكن، لحسن الحظ، جاءت لحظة الحسم، عندما نصحتني امرأةٌ حكيمةٌ، بعد أن شهدت معاناتي في تعليم الأولاد، قائلة: «كوني أمهم فقط، ودعي المختصين يساعدون في تعليمهم». ولم يكن من السهل عليّ أن أستثمر مالي في مدرّسين، بدلاً من تخصيصه لاحتياجاتٍ أخرى، لكنني سعدت بتوزيع المهام، حتى وإن كانت مدفوعةً، واكتشفت أن الأمومة ليست احتكاراً لكل التفاصيل، بل هي إدارتها بحكمةٍ. والنتيجة؟ كبر

أبنائي، وهم يرونني لا أقدم لهم الرعاية فقط، بل أقدم لهم، أيضاً، نموذجاً للمرأة التي تصنع طريقها.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

مؤخراً، ظهرت كتبٌ ومقالاتٌ تتحدث عن الجانب المظلم من الأمومة، وهي أمورٌ لم تسبق الكتابة عنها. برأيك، ما هي الأمور التي استجدت في حياتنا الحديثة، والتي جعلت الأمومة أصعب من أيّ وقتٍ مضى؟

د. ميادة كيالي:

هذا يضعني أمام عنوان هو: «الأمومة بين المثاليات والواقع: تفكيك الأسطورة وشيطنة عمل المرأة»، واسمحي لي أن أتوسع في هذا الموضوع. لا يوجد «جانبٌ مظلمٌ» للأمومة في ذاتها، بل هناك مجتمعاتٌ جعلت من الأمومة قيداً، وحمّلت المرأة، وحدها، مسؤولية هذا الدور، دون أن تمنحها المساحة اللازمة لممارسته بكرامةٍ واستقلاليةٍ. إذا نظرنا إلى التاريخ، نجد أن المرأة لم تُعطَ الحق في اختيار حياتها، لكنها حُمّلت أعباءً ثقيلة، ووُضعت في قوالب ضيقةٍ: إما أن تكون الأم المثالية التي تذوب في خدمة أطفالها، أو أن تكون «المرأة الأنانية» التي اختارت طريقاً آخر، فيتم اتهامها بالتقصير في واجباتها. هذه المعادلة الظالمة لا تزال قائمةً، حتى اليوم، وإن تغيّرت أشكالها.

سأضرب لك أمثلةً من الواقع: كيف تُشيطن خيارات المرأة؟ إذا اختارت المرأة أن تكون أماً متفرغةً، يُقال لها إنها «غير منتجةٍ»،

وإنها تعيش في ظل نجاح زوجها أو أسرتها. وإذا قررت أن توازن بين الأمومة والعمل، يُقال إنها «مقصرة»، وأن أطفالها يدفعون ثمن طموحها. وإذا اختارت ألا تنجب، تُوصف بأنها «ناقصة الأنوثة»، وكأن الأمومة هي البُعد الوحيد لهويتها. هذه الازدواجية لم تخلقها المرأة، بل فرضتها أنظمةٌ اجتماعيةٌ رسّخت مفهوم «الأم المضحية» في مقابل «الرجل المعيل»، على الرغم من أن الرجل نفسه لم يعد المعيل الوحيد، ولم تعد المرأة مجرد تابعةٍ. ومع ذلك، لا يزال المجتمع يحمّل المرأة أعباءً مضاعفةً، بينما يمنح الرجل هامشاً أوسع للاستقلالية، دون أن يُحاسب على تفضيله لمسيرته المهنية أو لحياته الخاصة. وللإجابة عن سؤالك «كيف جعلت الحياة الحديثة الأمومة أصعب؟»، أرى أنه ثمة نواحٍ عدة تبرز ذلك.

اقتصاديّاً: في الماضي، كان يمكن للأسرة أن تعيش على دخل فردٍ واحدٍ، لكن، اليوم، أصبحت الحياة الاقتصادية أكثر قسوةً، وأصبح من الصعب على المرأة أن تكون ربة منزلٍ، فقط، دون الشعور بالعبء المالي أو فقدان الاستقلال.

اجتماعيّاً: مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، أصبح هناك نموذجٌ مثاليٌّ زائفٌ للأمومة: الأم التي تطهو وجباتٍ صحيةً، وتدير منزلها دون تعبٍ، وتحقق نجاحاً مهنيّاً باهراً، وتظل مبتسمةً طوال الوقت. هذه الصورة الخيالية تجعل الأمهات يشعرن بالذنب، لأنهن بشرٌ؛ لأنهن يُنهكن، ولأنهن يحتجن إلى مساعدةٍ، أو ببساطةٍ، لأنهن لا يمتلكن طاقةً خارقةً.

نفسيّاً: لم تكن الأمهات، في الماضي، مضطراتٍ إلى منافسة أدوارٍ مستحيلةٍ، لكن اليوم يتم تقييم كل امرأةٍ وفق معايير صارمةٍ، وعليها أن تبرر اختياراتها باستمرارٍ، سواء قررت العمل أم لا، أنجبت أم لم تنجب، كانت مستقلةً أم معتمدةً على أسرتها.

ربما تسألينني: ما الحل هنا؟

الحلّ سيكون في إعادة تعريف الأمومة، وتحريرها من القيود. الحل ليس في شيطنة عمل المرأة أو إغراقها بمثالياتٍ غير واقعيةٍ، بل في إعطائها الحق في أن تكون أماً، وفق شروطها الخاصة. الأمومة ليست تضحيةً بلا مقابل، وليست نقيضاً للنجاح الشخصي، بل هي جزءٌ من تجربة المرأة في الحياة. لا يجب أن تلغي أحلامها، ولا أن تُستخدم كذريعةٍ لحرمانها من الفرص. فالتحدي الحقيقي، اليوم، ليس في أن تختار المرأة بين أن تكون «أمّاً صالحة» أو «امرأة ناجحة»، بل في أن تكسر هذه الثنائية الزائفة، وأن تعيش وفق رؤيتها لنفسها، لا وفق ما يرسمه الآخرون لها.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

تقول أليف شافاق: «ربما لا تمثل الأبوة انشطاراً كبيراً في حياة الرجل، بخلاف الأمومة في حياة المرأة». لمَ يستمر الآباء الكتاب في الإنتاج الغزير، بينما يتقهقر إنتاج الأمهات الإبداعي، وربما يختفي بعد ولادة طفلٍ جديدٍ؟

د. ميادة كيالي:

هذه مقولةٌ مهمةٌ جدّاً ترسم الصورة، وتطرح الأسئلة. دعيني

أعنونها «الأبوة والأمومة: لماذا يُنتج الرجال الأدب، بينما تتراجع إبداعات النساء؟» هذه الجملة تختصر تاريخاً طويلاً من التفاوتات، حيث يظلّ الرجل قادراً على مواصلة إنتاجه الإبداعي بعد أن يصبح أباً، بينما تجد المرأة نفسها في مواجهة اختفاء تدريجي لصوتها الإبداعي بعد الإنجاب. ليس لأنها فقدت القدرة على الكتابة، بل لأن المجتمع لم يمنحها المساحة اللازمة والقبول للاستمرار.

لطالما كانت هناك ازدواجية في تقييم الأبوة والأمومة، حيث يُنظر إلى الأب على أنه «أبٌ صالح» لمجرد أنه يوفر احتياجات أسرته، حتى لو لم يشارك في تفاصيل تربية أطفاله. فلا أحد يسأل كاتباً مشهوراً: كيف توازن بين الأبوة والكتابة؟ لأنه من البديهي أن هناك من يعتني بالأطفال، بينما هو يكتب. أما المرأة، فحتى لو نجحت في التوفيق بين الكتابة والأمومة، يظل السؤال مطروحاً: «كيف تتمكنين من ذلك؟» وكأنها تخترق قوانين الطبيعة، حين تجد وقتاً للإبداع! دعونا نسأل: لماذا يتقهقر إبداع الأمهات؟

أولاً: الوقت والمساحة المفقودة: الأم غالباً لا تمتلك تلك «الغرفة الخاصة» التي أشارت إليها **فيرجينيا وولف** ولا وقتاً خاصّاً، بل عليها أن تخترع مساحتها وسط الفوضى اليومية، وأن تقاوم فكرة أن الإبداع ترفٌ وليس حاجةً.

ثانياً: الذنب المترسّب في الوعي النسائي: منذ الصغر، يتم تلقين الفتاة أن أعظم إنجازٍ لها هو أن تصبح أمّاً مثاليةً، وأنَّ أي شيءٍ آخر يأتي، بعد ذلك، هو ترفٌ، بل قد يُعتبر أنانيةٌ. لذلك،

عندما تكتب الأم، فإنَّها تكتب على عجلٍ، وهي تشعر بأنها تسرق الوقت من أطفالها، بينما لا يشعر الأب بالذنب، حين يجلس لساعاتٍ، ليكتب كتابه التالي.

ثالثاً: الرقابة الاجتماعية المستمرة: الأم ليست مسؤولةً عن أبنائها، فقط، بل مسؤولة، أيضاً، عن الصورة المثالية التي يُفترض أن تكون عليها. فإذا قصرت في أي جانبٍ، تتعرض للانتقاد، سواء من عائلتها، أو من مجتمعها، أو حتى من نساءٍ أخريات يرسخن هذه المعايير الصارمة. ولا أخفيكِ، عزيزتي، أنني وقعت فريسةً لهذه العوامل الثلاثة، على مدى أكثر من اثني عشر عاماً، قبل أن أجد الاستقلالية التي مكنتني من متابعة طريقي نحو الإبداع والعمل، وكسرت حواجز الوقت والذنب والرقابة. لذا، اليوم، عندما أنظر إلى كيفية استعادة الأمهات لأصواتهن الإبداعية، أستطيع أن أقول، بإدراكٍ، إن الإبداع ليس ترفاً، بل هو حقٌّ: فكما لا يسأل أحد الرجل لماذا يكتب، فلماذا يُطلب من المرأة أن تبرر شغفها؟

وليست كل امرأةٍ قادرةً على امتلاك غرفةٍ خاصةٍ، لكن يمكنها أن تجد لحظاتٍ للكتابة وسط الفوضى، حتى لو كان ذلك في منتصف الليل، أو أثناء إعداد الطعام، أو على قصاصاتٍ متناثرةٍ. وأيضاً، الأم ليست مطالبةً بأن تكون خارقةً، ويحق لها أن تأخذ وقتاً لنفسها، دون الشعور بأنها تخذل أحداً. والأهم هو تغيير نظرتنا للأبوة: الأب ليس مجرد «معيل»، بل هو شريكٌ حقيقيٌّ في تربية

الأطفال، ويجب أن يُنظر إلى دوره بالجدية نفسها التي يُنظر بها إلى دور الأم.

وأختم جوابي عن هذا السؤال المهم بأن المسؤولية ليست فقط على المجتمع، بل، أيضاً، على النساء أنفسهن، اللواتي يجب أن يعترفن بأن لهن الحق في أن يواصلن الإبداع، تماماً كما يفعل الرجال. فالكتابة ليست رفاهيةً ولا خيانةً لدور الأمومة، بل هي جزءٌ من هوية المرأة، ومن حقها أن تكون أمّاً وكاتبةً، دون أن يُطلب منها أن تختار بينهما؛ الحق في الكتابة لا يتناقض مع الحق في الأمومة.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

ما هو العمل الأدبي الذي تناول موضوع الأمومة ووجدتِ أنه يتقاطع معكِ ويمثّلك؟

د. ميادة كيالي:

العديد من الأعمال الأدبية أثَّرت في تجربتي وأثْرتها في كل مرحلةْ من مراحل نضوجي، لكن يمكنني أن أتوقف عند «**نساء على أجنحة الحلم**» **لفاطمة المرنيسي**. هذه الرواية التي شعرت أنها تمثلني، وتتقاطع مع رحلتي كأمٍّ وكاتبةٍ. هذه الرواية ليست شهادةً على تاريخ النساء داخل الحريم، فقط، بل هي، أيضاً، تأملٌ عميقٌ في كيفية تحديد الأدوار الاجتماعية لمصير المرأة، تماماً كما يُفرض اليوم على الأمهات نموذج «المثالية المطلقة»، وكأنَّ الأمومة يجب أن تكون تضحيةً كاملةً أو لا تكون.

في الرواية، تكبر البطلة في عالم يُملي على النساء كيف يعشن، ماذا يرتدين، وحتى كيف يحلمن. الحريم ليس، فقط، جدراناً ماديةً، بل هو، أيضاً، جدرانٌ نفسيةٌ تمنع المرأة من التفكير خارج الدور المحدد لها. وهذا يذكرني، تماماً، بالصورة النمطية التي تُفرض على الأمهات اليوم، حيث يُتوقع منهن أن يذُبن في رعاية أطفالهن، وكأن تحقيق الذات يتعارض مع الأمومة. لقد سلطت الرواية الضوء على «الحكي كوسيلة للتحرر»، وهذه فكرةٌ مهمةٌ للغاية؛ فالنساء داخل الحريم كن يروين قصصهن ليخلقن عالماً موازياً، عالماً لا تتحكم فيه القوانين الخارجية. بالنسبة إليّ، كانت الكتابة هي هذا الفضاء الموازي، المكان الذي استعدتُ فيه صوتي، بعد أن ظننت أن الأدوار الاجتماعية قد سرقته منّي. كما أنَّ الحكي في الرواية كان وسيلةً لنقل الخبرات بين الأجيال، كذلك الكتابة، بالنسبة إليّ، ليست فقط فعلاً فرديّاً، بل هي، أيضاً، امتدادٌ لرسالةٍ، ووسيلةٌ لحماية قصتي وقصص الآخرين من النسيان.

الأم في هذه الرواية ليست، فقط، أمّاً لأطفالها، بل مسؤولةٌ، أيضاً، عن حماية نظامٍ اجتماعيٍّ كاملٍ، وهذا ينعكس على الواقع الذي نعيشه اليوم، حيث لا تكون الأم مسؤولةً عن أطفالها، فقط، لكنها تكون، أيضاً، مسؤولةً عن الصورة التي يجب أن تعكسها للمجتمع. أيّ محاولةٍ للخروج عن هذا الدور تُعدّ تمرّداً، تماماً كما كانت النساء في الحريم يُعاقبن إذا تجرأن على كسر القواعد. وما

جعلني أرى نفسي في هذه الرواية هو أنني أدركت أن الأمومة ليست قيداً، لكنها قد تصبح كذلك، إذا لم تُمنح المرأة حقها في أن تكون شيئاً آخر بجانب كونها أمّاً. وكما كانت بطلة الرواية تبحث عن مساحتها الخاصة للحلم، فإنني وجدت في الكتابة امتداداً لهويتي، وطريقةً للبقاء خارج «الحريم الحديث» الذي يحاول أن يحصر النساء داخل دورٍ واحدٍ فقط.

وتماماً، كما تقول **فاطمة المرنيسي** في الرواية: «من لا يحكي قصته، سيعيش في قصةٍ كتبها له الآخرون». لهذا كنت أكتب، ليس فقط لنفسي، بل لأقول لكل أمٍّ: لكِ الحق في أن تحلمي، أن تكتبي، أن تعيشي، دون أن تشعري أنكِ تخذلين أحداً؛ لأنَّ الأمومة ليست نقيض الإبداع، بل قد تكون أعظم مصادره.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

ما الفكرة المثالية عن الكاتبات الأمّهات التي ترغبين في نفيها أو تصحيحها؛ لأنها قد تمثل ضغطاً على الأخريات؟

د. ميادة كيالي:

أودّ تصحيح الصورة المثالية عن الكاتبة الأم، التي تبدو وكأنها تكتب بروحٍ متفرغةٍ، في بيتٍ منظمٍ، وأطفالٍ سعداء، بلا أيّ إرهاقٍ أو تنازلاتٍ. نعم، أودّ تصحيحها، فهي صورةٌ زائفةٌ. هذه الفكرة تجعل الأمهات يشعرن بأن عليهن تحقيق المعجزات، ليصبحن كاتباتٍ ناجحاتٍ، وكأن الإبداع لا يمكن أن يتعايش مع الفوضى اليومية، ومع الإرهاق، ومع الشكوك، ومع الأدوار المتشابكة التي

تتحملها النساء. فالحقيقة أن كلّ أمٍّ كاتبةٍ تخوض صراعاً يوميّاً بين التزاماتها المختلفة، بين الوقت الذي يتسرب من بين أصابعها، وبين اللحظات التي تخطفها لتكتب قبل أن يوقظها صوت طفلها أو مسؤوليات بيتها. لا أحد يكتب من برج عاجي، ولا أحد يصنع الكلمات من فراغ. كلّ نص هو انتزاع لحظة من زحام اليوم، هو مقاومة لصوت داخلي يقول: «ليس الآن، لديك مسؤوليات أهم». لذلك، ما أريد تصحيحه هو أن الكاتبة الأم ليست مضطرة لأن تكون كاملة، أو أن تثبت شيئاً لأحد. هي ليست مطالبة بأن تتحمل كل شيء وحدها كي تستحق لقب «كاتبة»، بل على العكس، عليها أن تطلب الدعم، أن تتخلى عن وهم الكمال، أن تؤمن أن الإبداع ليس رفاهيةً، بل هو حقٌّ.

أن تطلب المساعدة لا يجعلها أقلّ شأناً، بل يمنحها المساحة التي تستحقها. أن تخصص وقتاً لنفسها لا يعني أنها أمّ أنانيةٌ، بل يعني أنها أمّ تدرك أن عليها أن تظل متوازنةً؛ لأن المرأة التي تحقق ذاتها هي المرأة القادرة على أن تمنح الحب لأبنائها، دون أن تشعر أنها ألغت نفسها في طريقها. فالكتابة ليست نقيض الأمومة، بل قد تكون امتداداً لها. وعندما تدرك الأمهات ذلك، سيعرفن أنهن لسن وحدهن في هذا الطريق، وأنه ليس عليهن أن يكنّ معجزات، بل أن يكنّ، ببساطةٍ، أنفسهن.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

هل شعرتِ يوماً بالحاجة للبحث عن دعم (مجموعةٍ إلكترونيةٍ

أو صديقةٍ أو شريكٍ)؛ لأن الجمع بين الأمرين فاق قدرتك؟ أخبرينا عن نتائج ذلك؟

د. ميادة كيالي:

دعيني أقول إنَّ الدعم كان الجسر الذي عبرتُ به التحديات. وكما تلاحظين، الهندسة بقيت رفيقتي حتى اليوم. بالطبع، احتجتُ إلى الدعم في محطاتٍ كثيرةٍ من رحلتي؛ لأن الجمع بين الأمومة والكتابة والعمل لم يكن طريقاً مفروشاً بالورود، بل كان محفوفاً بالشكوك والتحديات. أحياناً، كان الدعم يأتي من صديقٍ مثقفٍ ومتميزٍ، مثل د .**موسى برهومة** الذي آمن بي وبقدرتي على أن أكمل المشوار، ورأى فيّ أكثر مما كنت أرى في نفسي. وأحياناً أخرى، جاء من أستاذٍ مشرفٍ بقامة د .**خزعل الماجدي** الذي دفعني لأن أطور ذاتي وأدواتي البحثية، وألّا أتنازل عن شغفي، بل أن أقاتل من أجله، ومن قامةٍ شعريةٍ كبيرةٍ، كالشاعر **هنري زغيب** الذي قال لي ذات يومٍ: «أَرجو أن تبقي على علاقةٍ متينةٍ وُثْقى بالقلم، فلا تتأخّري عن الكلمات خوفاً أن تذبل بين يديكِ، ولا تتأخري عن الكتابة خوفاً أن يَخفُتَ صوتُها فلا تعود تُوافيكِ على موعدٍ حين تطلبينها إلى مُوافاةٍ». فكانت تلك النصيحة تعيد نفسها في ذهني، كلما راودتني فكرة الاستسلام.

لم يكن الدعم مجرد كلماتٍ، بل كان فرصة عملٍ في الإمارات العربية المتحدة، وجدتُ فيها إمكانيتي لأكون مستقلةً، فلا أحتاج أن أبرر لأحد لماذا أكتب، ولماذا أعمل، ولماذا أريد أن أكون

أكثر من مجرد أمّ. كان دعماً منحني القوة لأكون راعيةً لأبنائي، دون أن أشعر بالتقصير تجاههم أو تجاه نفسي. وكان هناك دعمٌ العائلة، ذاك الحضن الذي احتواني بفخره، والذي منحني اليقين بأنني لستُ وحدي في هذا الطريق. لهذا أقول: الدعم هو الجسر الذي يعبر عليه الحالمون ليصلوا إلى الضفة الأخرى، حيث تتحقق أحلامهم دون أن يضطروا للتخلي عن جزءٍ من ذواتهم.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

يربط كثيرون بين إنتاج الأطفال وإنتاج الكلمات، من حيث إن كليهما ينطويان على جلب شيءٍ للعالم والتعلّق به، كيف ساعدك أحدهما (الإنجاب والكتابة) على إتقان الآخر؟

د. ميادة كيالي:

نعم، وبشدةٍ، الكتابة والإنجاب: ولادتان من رحم الانتظار. بالنسبة إليّ، كان الإنجاب والكتابة رحلتين متشابهتين، بل متداخلتين في تفاصيلهما. انتظرتُ أطفالي خمس سنواتٍ. خمس سنوات كنتُ أترقب فيها لحظة أن أصبح أمّاً، ولحظة أن أضم بين ذراعيّ كائناً امتزج بدمائي وأحلامي ومخاوفي. حين جاءا، كان حضورهما ولادةً عزيزةً بعد انتظارٍ، حملٌ شاق، وولادةٌ قيصريةٌ محفوفةٌ بالترقب والرهبة. كانت الأمومة قدراً مؤجلاً، لكنه تحقق، تماماً كما تحقق قدري في الكتابة بعد سنواتٍ من السعي والبحث عن الذات.

لم أولد كاتبةً، بل ولدتُ مهندسةً، أرسم الجسور والمباني، قبل أن ترسمني الحياة من جديدٍ، فأتحول إلى كاتبةٍ في عمرٍ متأخرٍ.

وكما كان حملي بأبنائي عزيزاً، كانت ولادتي الأدبية كذلك. بدأت بكتابة المقالات الأدبية، ثم تدرجت نحو الكتابة الأكاديمية، ومن ثم إلى عالم النشر، حيث لم أعد مسؤولةً فقط عن كتبي، بل عن ولادة كتب الآخرين.

اليوم، كمديرةٍ لإحدى أهم المؤسسات الفكرية العربية «مؤمنون بلا حدود»، أشعر مع كل كتابٍ يصدر من الدار كما شعرت عند ولادة أبنائي. أتابعه في مراحله الأولى، وأراقب نموه، وأحرص على أن يخرج إلى العالم بصورته الأجمل، وأشعر أنني أرافقه حتى يرى النور، تماماً كما تفعل الأم مع طفلها. كل كتابٍ هو امتدادٌ لرحلة الخلق، هو شهادةٌ على أنَّ الأفكار، مثل الأبناء، تحتاج إلى من يرعاها، ويحتويها، ويحميها، حتى تجد طريقها إلى العالم. وقد تكون الكتابة والإبداع أشبه بالأمومة، ليس فقط لأنهما ولادة، بل لأنهما مسؤوليةٌ، ورعايةٌ، وحبٌّ غير مشروطٍ. وكما يكبر الأبناء، يكبر الكتاب، ويترك بصمته، ويصبح جزءاً من إرثنا الذي نبقيه خلفنا.

أ. بشرى فرج الأحمدي:

مساحةٌ أخيرةٌ تسجلين فيها أفكارك عن معنى أن تكوني أمّاً وكاتبةً، في الوقت ذاته:

د. ميادة كيالي:

دعيني أطلق على هذه الخاتمة عنواناً: الأمومة والكتابة: أثرٌ من الحبر والحبّ معاً. في النهاية، الأمومة والكتابة ليستا طريقين متوازيين، بل خيطان متداخلان في نسيج حياتي، يتشابكان ليصنعا

هويتي، يلتفان حول روحي، ويمنحاني توازني، ويجعلاني أشعر أنني قادرة على أن أكون كل شيءٍ، في آنٍ واحدٍ، دون أن أتنازل عن أي جزءٍ من ذاتي. لم تكن رحلتي سهلةً، لكنها كانت رحلتي الخاصة، التي لم أختر فيها بين الأمومة والكتابة، بل صنعتُ طريقاً يجمع بينهما، طريقاً يليق بي، ويسير وفق إيقاعي الخاص.

في كلّ تحدٍّ واجهته كأمّ، وجدت في الكتابة ملجأً، وفي كل صفحةٍ خططتها، كنت أستعيد ذاتي، أعيد تعريفها، أبعثها من جديد. لم يكن الطريق مفروشاً بالورود والوعود، لكنه كان يستحق كل لحظةٍ من السهر والتعب والتأرجح بين المسؤوليات. واليوم، وأنا أنظر إلى ما أنجزته، لا أرى فقط مقالاتي وكتبي ومشاريعي، بل أرى، أيضاً، أثراً يشبهني، أثراً من الحبر والحب معاً، أثراً يثبت أنني لم أكن مجرد عابرةٍ في هذا العالم، بل كنت امرأةً زرعت كلماتها، كما زرعت أبناءها، وانتظرت أن يثمروا في الحياة.

يوماً ما، رحلت والدتي وتركت في رأسي عبارةً ما زالت تتردد داخلي: «من لم يترك شيئاً ليتذكره الناس من بعد رحيله، كأنه لا وُلِدَ ولا عاش». هذا الرحيل أذاني حدّ الكتابة، كما تقول أحلام مستغانمي: «لا يكفي أن يهديك أحدهم أوراقاً وأقلاماً حتى تكتب، بل يجب أن يؤذيك حدّ الكتابة». وهذا ما فعله بي رحيل أمّي، فأصبحت الكتابة وسيلتي للنجاة من هذا الفقد، وطريقتي في مواجهة الغياب، ومنذ ذلك الحين، تحولت الكتابة من مجرد وسيلةٍ إلى رسالةٍ، ومن فعلٍ فرديٍّ إلى مسؤوليةٍ.

لم تكن الكتابة منفذي للحياة، فقط، بل كانت، أيضاً، سبيلي للعودة إلى العمل، كانت وسيلتي لحماية نفسي، ثم أصبحت وسيلتي لحماية رسالتي ورسالة الآخرين. واليوم، وأنا أدير واحدةً من أهم مؤسسات النشر العربية، لا أشعر، فقط، أنني أكتب، بل أشعر، أيضاً، أنني أمسك بأقلام غيري، وأحمل كلماتهم، وأمنحها فرصةً للحياة؛ لأنني أعرف، تماماً، ما معنى أن يولد الكتاب كما يولد الابن، وما معنى أن تمنحه الحياة، ثم تتركه ليشق طريقه وحده في هذا العالم.

الأمومة والكتابة ليستا مجرد مسؤوليتين منفصلتين، بل هما شراكةٌ وجوديةٌ، كل منهما علمتني كيف أكون أكثر صبراً، أكثر وعياً، أكثر إصراراً على أن أترك أثراً لا يُمحى؛ لأن الحياة لا تُقاس، فقط، بعدد السنوات التي نعيشها، بل تُقاس، أيضاً، بما نتركه خلفنا من أبناءٍ يحملون جزءاً من روحنا، وكلماتٍ تظل تشهد أننا كنا هنا، وأننا كتبنا، وعشنا، وأحببنا.

الأمومة والكتابة ليستا طريقين متوازيين، بل خيطان متداخلان في نسيج حياتي. لم أختر بينهما، بل صنعتهما معاً، لأترك أثراً يشبهني، أثراً من الحبر والحب.

الفصل الخامس

جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ

حكاية عن الحب والأمومة والنجاة

(1)[1]

د. حسام الدين درويش - د. ميادة كيالي

د. حسام الدين درويش:

مساء الورد للجميع، وأهلاً وسهلاً بكم في جناح «مؤمنون بلا حدود» ضمن معرض إسطنبول للكتاب العربي، الذي يقام هذا العام 2025 تحت شعار «وتبقى العربية». لقد أعجبني هذا الشعار كثيراً،

---

(1) جرى هذا الحوار في معرض إسطنبول الدولي للكتاب الذي انعقد في الفترة بين 9-17 آب/ أغسطس 2025، وتجدون التسجيل الكامل له على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=fv53T_m9C1E&t=63s.

كما تجدون النص المنشور على موقع مؤمنون بلا حدود:
https://www.mominoun.com/articles/حوار-مع-د-ميادة-كيالي-حول-مؤلفها-الجديد-جسد-مقيم-في-سرير-حكاية-عن-الحب-والأمومة-10252

ووجوده ووجود اللغة العربية في هذا المعرض بتركيا، لهما دلالاتٌ ومعانٍ عديدةٌ وجميلةٌ. وموضوع حوارنا اليوم، مع الدكتورة ميادة كيّالي، هو كتابها الصادر حديثاً بعنوان: «جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ: حكايةٌ عن الحب والأمومة والنجاة»، وعنوانه الفرعي «سيرة ولادة». وقبل الخوض في الحديث عن الولادة التي يتحدث عنها الكتاب، فلنبدأ بالحديث عن ولادة هذا الكتاب نفسه. فعندما اطّلعت عليه، فوجئت أن ثمة نصوصاً قديمةً جدّاً، ظهرت فجأةً. فمتى كتبت هذه النصوص، وكيف جاءت فكرة نشر الكتاب؟

د. ميادة كيالي:

منذ بداياتي اعتدت أن أدوّن ما أعيشه، لا كترفٍ أدبيٍّ، بل كحاجةٍ وجوديةٍ للإمساك باللحظة قبل أن تضيع. تجربة الولادة التي مررت بها كانت طويلةً، ومرهقةً، ومليئةً بالأمل، في الوقت ذاته، فشعرت أن تدوينها ضرورةٌ، وليس خياراً. كتبت هذه النصوص، بعد أشهرٍ قليلةٍ من ولادة طفليّ عام 1999، ثم عدت إليها عام 2007 مع انتقالي من بيروت إلى أبو ظبي، وكأنني كنت أفتّش عن ذاتي في مساحاتٍ جديدةٍ.

وقد ظلّت النصوص في درجٍ مغلقٍ، لسنوات طويلةٍ، بعنوانٍ أوّليٍّ هو «**سبعة أشهر في حياتي**». لم أكن أتصوّر أنها ستتحول يوماً إلى كتابٍ، إلى أن بدأت العام الماضي بكتابة سيرتي الذاتية الكبرى التي تستعرض محطات حياتي بين دمشق وبيروت وأبو ظبي؛ وهي ثلاث محطاتٍ شكّلت هويتي: في دمشق تخرّجت مهندسةً، وفي

بيروت خرجت كاتبة وأماً، وفي أبو ظبي تبلورت التجربتان في مشروع حياةٍ متكاملٍ.

بعد جراحةٍ بسيطةٍ أجريتها منذ شهرٍ فقط، استيقظ في داخلي هاجس الذاكرة. فاستعدت نصوصي القديمة بعينٍ جديدةٍ، وقررت ألّا أسمح لها أن تذوب في النسيان. تذكرت أبي الذي عاش سبع سنواتٍ، بعد إصابته بجلطةٍ دماغيةٍ، حُرم فيها من الكلام والحركة، فتحوّل من فارسٍ مشاركٍ في الثورات إلى جسدٍ صامتٍ لا يملك إلا نظرةً واحدةً. حزّ في نفسي أن قصصه لم تُدوّن، وأن حياته، ببطولاتها ومعاركها، ذهبت معه. عندها أيقنت أن الإنسان لا يملك ذاكرته إلا إذا كتبها.

من هنا جاء هذا الكتاب. أردته شهادةً شخصيةً، لكنها، في عمقها، تتجاوز الفرد إلى ما يهمّ المرأة العربية عموماً: أن نروي تجاربنا بأنفسنا، وأن نمنح الألم والأمل صوتاً وصورةً. فالكتاب لا يقتصر على تجربة الحمل والولادة، كما حدثت أواخر التسعينيات، بل هو، أيضاً، محاولةٌ لتثبيت لحظةٍ إنسانيةٍ فيها القلق والانتظار والفشل، ثم الرجاء والانتصار. هو عبورٌ صعبٌ، لكنه، في النهاية، عبورٌ نحو الحلم.

د. حسام الدين درويش:

تذكرين، حين كنا قبل يومين في هذا المكان، وكان معنا الصديق العزيز محمد برو، قلتُ لكِ: بعد أن استذكرتُ عنوان كتابه «ناجٍ من المقصلة»، خطرت لي عناوين كثيرةٌ يمكن الحديث عنها،

ويمكن أن تكون أحد المحاور أو الأفكار التي قد يناقشها المرء بالنسبة إلى كتابك، ومنها أنك ناجيةٌ من الولادة، لكن، أيضاً، ناجيةٌ من عدم الولادة. في كلتا الحالتين، ثمة مجالٌ للتفكير في ولادتك من منظور النجاة، من الولادة ومن عدم الولادة. فبأيّ معنىً يمكن القول إنك حين ولدتِ، كنتِ ناجيةً من الولادة، لكنك كنت، أيضاً، ناجيةً من «عدم الولادة»؛ لأن عدم الولادة في مجتمعنا يُعدّ وصمةً اجتماعيةً ونفسيةً. كيف كانت الولادة نجاةً من عدم الولادة؟

د. ميادة كيالي:

الولادة في مجتمعاتنا ليست مجرد حدثٍ بيولوجيٍّ، بل هي عبورٌ اجتماعيٌّ يقرّر اكتمال الزواج، وكأن العقد وحده لا يكفي، ولا يصبح للمرأة مكانها الكامل إلا إذا صارت أماً. منذ اللحظة الأولى للزواج، يُثقل كاهلها بانتظار الآخرين لخبر الحمل، فتشعر وكأنها أمام امتحانٍ مصيريٍّ لا بد أن تنجح فيه بالإنجاب. وهذا التصور ليس وليد عصرنا الحديث، بل له جذورٌ ممتدةٌ في التاريخ الإنساني. ففي المجتمعات القديمة، لم تكن المرأة تُحاسب على عذريتها، بقدر ما كانت تُحاسب على عُقمها. كان الإنجاب هو الضمان الحقيقي لوجودها وامتداد عائلتها. فالطفل لم يكن مجرد ثمرة حبٍّ، بل كان رمز القوة، ويداً عاملةً، وسنداً اجتماعياً في حاضر الأهل ومستقبلهم وشيخوختهم. من هنا، ارتبطت كينونة المرأة، عبر التاريخ، بقدرتها على أن تلد، حيث أصبح العقم أخطر من أيّ نقصٍ آخر.

حين تزوجت متأخرةً، ووجدت نفسي في مواجهة تأخر الإنجاب، شعرت بثقل هذا التاريخ يضغط عليّ. لم يكن الأمر شخصياً فقط، بل بدا، أيضاً، وكأنني أحمل معي صدى قرونٍ من التصورات التي جعلت الأمومة معياراً لاكتمال المرأة. لذلك، كانت الولادة بالنسبة إليّ نجاة مَزدوجةً: نجاةً من محنة العقم ونقصه، ونجاةً من حكم مجتمعٍ يرى في غياب الولد تهديداً لشرعية الزواج ومعناه.

د. حسام الدين درويش:

إذن، لم تكن المسألة متعلقةً بالضغوط الاجتماعية فقط - والتي أشرتِ إليها في الكتاب - بل كانت، أيضاً، نتيجة رغبةٍ شخصيةٍ حقيقيةٍ.

د. ميادة كيالي:

رغبتي في الأمومة لم تكن استجابةً لضغط اجتماعي فحسب، بل كانت، أيضاً، رغبةً شخصيةً عميقةً. فمنذ طفولتي، أحببت الأطفال، وكنت أجد فيهم معنىً خاصاً للحياة. وبعد الزواج، تضاعف هذا الشعور، وأصبحت كل مرةٍ أحمل فيها طفلاً صغيراً أُواجَه بنظرات شفقةٍ أو تلميحاتٍ؛ لأنني لم أنجب بعد، وكأن الأمومة لا تُحسب إلا إذا كانت بيولوجيةً. فأنا أرى الأمومة من منظورٍ أوسع من ذلك بكثير. إنها شعورٌ داخليٌّ وقدرةٌ على العطاء، يمكن أن تتوجه إلى أيّ طفلٍ يحتاج إلى الحب والرعاية، سواء كان ابناً بيولوجياً أو ابناً بالتبني. ولطالما كنت منفتحةً على فكرة التبني،

رغم صعوبة تقبّلها في ثقافتنا. فما يهمّ حقاً أن يجد الطفل من يضمه ويهبه الحنان، لا أن يكون مجرد استمرارٍ بيولوجي فقط. أتذكر فيلماً مؤثراً شاهدته مراراً، جسّد هذه الفكرة حين قالت أمٌّ متبنيةٌ لطفلها: «من قال إن الله حرمني من الأطفال؟. أنا لم أختر الإنجاب، بل اخترت أن أكون أماً لطفلٍ يتيم بحاجةٍ إلى عائلةٍ». هذه العبارة لامستني بعمقٍ؛ لأنها تذكّرنا أن الأطفال، أحياناً، بحاجةٍ إلينا أكثر من حاجتنا، نحن، إلى إثبات قدرتنا على الإنجاب.

د. حسام الدين درويش:

بالفعل، لديّ صديقٌ لديه، تماماً، هذه الفكرة. وقد كان قد قرّر ألّا يُنجب أطفالاً وأن يتبنّى، فتَبَنّى طفلاً كان يعيش في أوضاعٍ صعبةٍ؛ فالأب كان مهملاً جدّاً، والأم تتعاطى المخدرات ولا تقوم برعايته جيداً. وكان الطفل يعاني صعوباتٍ في النطق؛ إذ لم يكن أحد يتحدث معه. وقد أنقذه التبني من هذا الوضع المأساوي، وهو يعيش، الآن، حياةً مختلفةً، وأفضل بكثيرٍ، بالتأكيد، من حياته المأساوية مع والديه السابقين، أو في مؤسسة الرعاية الاجتماعية. فصديقي رفض أن يكون والداً لطفلٍ، لكنه حاول أن يكون أباً. فالأب غير الوالد، والأم غير الوالدة. وأحياناً، يمكن لغير الوالدة أن تمارس الأمومة، وهذا ما أرى أنك تفعلينه، أحياناً، في علاقاتك مع أخريات وآخرين.

وبالعودة إلى الكتاب، أرى أنه أكبر من أن يكون مجرد سيرة

ولادةٍ؛ ففيه أفكارٌ كثيرةٌ تتجاوز ذلك. وبصفتك ناجيةً من (عدم) الولادة، من المهم الكتابة عن هذه التجربة والتعبير عن رؤى النساء اللواتي لم يصل صوتهن أو لم يُعَبِّرن عن تجاربهن. ومن موقع الرجل، أوضح لي الكتاب أنّ الولادة يمكن أن تكون، بالفعل، تجربةً خاصةً جدّاً، ومؤلمةً للغاية؛ إذ تمتزج فيها مشاعر الألم مع الأمل والتوتر، والخوف، مع عدم القدرة على التحمل في لحظاتٍ معينةٍ. فإلى أيّ حدٍّ، يمكن النجاة من هذه التجربة والخبرة الجسدية؟

وإذا كان العنوان الفرعي للكتاب «سيرة ولادة»، فإن هذه السيرة لا تتعلق بالمولودات والمولودين فحسب، بل هي - كما تؤكدين أكثر من مرة في كتابك - «سيرة ولادة الأم»، و«سيرة ولادة الإنسانة»، أيضاً. فبعد الولادة، تعود الأم لتبدأ وتقوم بترتيب أولوياتها من جديد. ومن ثم، تُولد كامرأةٍ من جديدٍ، كإنسانةٍ، وكأمٍّ من جديدٍ.

د. ميادة كيالي:

نعم، هي، بالفعل، نجاةٌ؛ لأن الولادة، في حد ذاتها، تجربة نجاةٍ. قد تبدو «طبيعية» بحكم تكرارها، لكنها، في حقيقتها، اختبارٌ قاسٍ يتداخل فيه الألم بالخوف والأمل. تجربتي كانت استثنائيةً، لكنني أؤمن أن كل امرأةٍ تعيش استثنائيتها الخاصة، سواءٌ في حمل توأمٍ، أو في مواجهة آلامٍ أخرى قد لا تُرى ولا تُقال. لقد اعتاد المجتمع أن يتعامل مع الحمل والولادة، وكأنها أمرٌ عاديٌّ مفروضٌ

على المرأة، بينما الحقيقة أنها رحلةٌ يوميةٌ من الصبر والتحمّل. أتذكر حكايةً للراحل السيد **هاني فحص**، حيث نصح شاباً يشتكي من تذمّر زوجته بأن يضع ثِقلاً يزن خمس كيلوغرامات على بطنه شهراً كاملاً ويعيش حياته به، ليدرك معنى ما تحمله زوجته في كلّ حملٍ. مجرد الفكرة بدت له مستحيلةً، لكنها واقع تعيشه النساء مراراً.

في كتابي وصفتُ سبعة أيامٍ قضيتها مربوطةً بالسرير لا أتحرك، أثقلني وزن توأميّ والأجهزة والدواء المؤلم. كنت أحلم فقط بلمس الأرض بقدميّ. أحد أصدقائي، حين قرأ النص، قال لي: «بعد أن أنهيت القراءة، ذهبت مباشرةً إلى زوجتي، وقبّلت يدها، فقد شعرت كم مرةٍ عانت بصمتٍ، ولم تحدّثني عنها». وهذه، بالضبط، هي المشكلة: معاناة النساء تُعدّ عاديةً، وحديثهن عنها يُستقبل بالتقليل أو بالمقارنة. كم مرة سمعنا امرأةً تقول لأخرى: «ولادتي كانت أصعب من ولادتك»، وكأن الألم مسابقةٌ. بينما في الحقيقة، الألم تجربةٌ شخصيةٌ لا تقارن، بل تكشف جوهر الخلق نفسه: كل ولادةٍ هي خلقٌ جديدٌ، وكل خلقٍ يمرّ عبر المخاض والتعب.

السرّ في استمرار الكون هو أنَّ المرأة، رغم كل الألم، تختار أن تكرر التجربة. ولولا المحبة التي تحملها في قلبها، لما كان هناك أمٌّ تعود لتلد مرةً ثانيةً. إنّها المحبة التي تُحوّل الألم إلى حياةٍ، والنجاة إلى بدايةٍ جديدةٍ.

د. حسام الدين درويش:

لكن ما معنى أنّكِ، مع الولادة، وُلدتِ كامرأةٍ، وُلدتِ

كإنسانةٍ، ووُلدتِ كأمٍّ، في الوقت نفسه؟ وبأيّ معنى تقولين باختلاف الوضع بين المرأة والرجل، في هذا الخصوص، حيث تكون هناك استمراريةٌ في حياة الرجل، بينما تُضطر المرأة إلى البدء من جديد مراتٍ عديدةٍ؟

د. ميادة كيالي:

لا تسير المرأة في خطٍّ مستقيمٍ متصاعدٍ، كما يفعل الرجل، بل تمرّ بمحطاتٍ تُعيد تشكيلها من جديدٍ. أما الرجل، فحين يدخل مسار الدراسة أو العمل، فإنه يستمر فيه، غالباً، بلا انقطاعاتٍ كبرى، مراكماً للخبرة والمعرفة. أما المرأة، فحياتها تُعاد صياغتها، مع كلّ مرحلةٍ: الزواج، والحمل، والولادة، وحتى مع كل محاولةٍ للإنجاب. أنا، مثلاً، مررت بأربع تجارب للحمل، وكانت كل تجربةٍ بدايةً جديدةً. في التجربة الثالثة شعرت أنني وصلت إلى الحدّ، وقلت لزوجي: «إن لم تنجح هذه المرة، فلن أكررها، فقد استنزفتني المحاولات».

عشت لحظاتٍ أليمةً، حين ظننت أن الحمل قد حصل في المحاولة الثالثة، ولم يثبت، فانتهى سريعاً. كانت صدمةً، لكنها، في الوقت نفسه، بشارةً بأنَّ جسدي أصبح أكثر استعداداً. ومع كلّ خيبة أملٍ، كنت أعود وألملم نفسي، وأبدأ من جديدٍ. هذه الدورات المتكررة من الأمل والانكسار، ثم النهوض، هي ما يجعل المرأة تولد مراتٍ عديدةً: تولد كأمٍّ، وتولد كإنسانة تتصالح مع جسدها، وتولد كامرأةٍ تعيد ترتيب أولوياتها مع كل تجربةٍ.

ولهذا أقول إن الولادة ليست مجرد قدوم طفلٍ إلى العالم، بل هي، أيضاً، ولادةٌ جديدةٌ للمرأة نفسها.

د. حسام الدين درويش:

دعيني أذكرك، أيضاً، بتاريخك في الكتابة؛ بدأتِ بالكتابة الأدبية أو الفكرية، ثم انتقلت إلى الكتابة البحثية، فحصلتِ على الماجستير والدكتوراه، وكان لديك، دائماً، مشاريع للاستمرار في الكتابة البحثية. آخر هذه المشاريع كان عن فاطمة المرنيسي. أما هذا الكتاب، وبعيداً عن مسألة التصنيف، فيهيمن عليه الطابع الأدبي، مع حضورٍ كثيفٍ للفكر التأملي في قالبٍ أدبيٍّ جميلٍ.

لقد منعك مسارك المهني الإداري من التفرغ للكتابة. وفي مثل هذه الظروف يصعب الاستمرار في الكتابة البحثية، لكن يبدو أنّ توجهك إلى هذا النمط من الكتابة أمرٌ مناسبٌ وإيجابيٌّ؛ لأنّك تكتبين من روحك، ومن الواضح أنّك متأثرةٌ جداً بتجربةٍ عميقةٍ، وتحاولين التعبير عنها. فكيف ترين، إذن، مسارك في الكتابة؟ وكيف اختلف؟ وكيف ترين نَفَسك في الكتابة؟ هل تجدين ذاتك في الكتابة بهذه الطريقة، أم ما يزال لديك ميلٌ إلى الكتابة البحثية التي لم تسمح لك ظروفك بممارستها بعد الدكتوراه؟

د. ميادة كيالي:

مساري الفكري والبحثي لم يكن يوماً منفصلاً عن حياتي الشخصية، بل كان انعكاساً لها. قراءاتي في الفكر النسوي وتجديد الدين، وما التقيت به من أساتذة ومفكرين، كل ذلك ارتبط بتجربتي

كامرأةٍ وأمٍّ. فما قيمة الأفكار إذا لم نختبرها في ذواتنا ونرى أثرها في حياتنا اليومية؟

حين كتبت هذا النص، قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، كنت أعيش الحلم من الداخل، واليوم، بعد أن بلغ أبنائي الخامسة والعشرين، أستطيع أن أقرأه، من الخارج، بوعيٍ مختلفٍ. صرت أرى الأمومة، لا كحدثٍ فرديٍّ، بل كرحلةٍ طويلةٍ من الولادة والنمو والتجدد. بالنسبة إليّ، الأمومة إحساسٌ كاملٌ بالمسؤولية، يتجاوز أطفالي ليشمل كلّ ما أُبدعه أو أنشره. لذلك أقول، دائماً، إن كل كتابٍ يولد عندي كطفلٍ. أتأمل فيه، أتابع طباعته، وأحرص أن تصل نسخه الأولى إلى صاحبه بسرعةٍ، تماماً كما تحرص الأم أن يُحتضن وليدها.

كتبي وأطفالي أحلامٌ جاءت بعد صبرٍ وانتظارٍ وتجربةٍ ومعاناةٍ، ولهذا أحمل تجاههم شعوراً مضاعفاً بالمسؤولية. ومثلما عشتُ أمومتي مع أبنائي، بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، أعيشها مع كتبي ومشاريعي. ربما يكون ذلك مرهقاً، لكنه جوهر وجودي: أن أظلّ مسؤولةً، وأن أستمر في العطاء ما دمت قادرةً. الأمومة عندي ليست حدثاً بيولوجياً فقط، بل هي، أيضاً، موقفٌ وجوديٌّ يرافقني في كل ما أفعل.

د. حسام الدين درويش:

لقد اكتشفتُ متأخّراً - وهي فكرة يمكن أن نناقشها مطوّلاً لاحقاً - أنّ فطام الأطفال أسهل أو أقلّ صعوبة من فطام الأمّ

والأب. فحين يدرك الوالدان أنّ دورهما التقليدي كأمّ أو أب قد بلغ نهايته، يصبح دورهما مختلفاً، ربما أقرب إلى المرافقة أو الصداقة، ويبقى جزءٌ من المسؤولية قائماً. لكن لم تعد الأمّ هي التي تحتضن الطفل، وترعاه، فلا بدّ أن يصل إلى مرحلة يتوقف فيها هذا الدور.

د. ميادة كيالي:

صحيح أنّ الطفل يُفطم تدريجياً في مراحل حياته؛ من الرضاعة، إلى الاعتماد على نفسه في اللباس والطعام والمدرسة، حتى يصل إلى استقلاله الكامل. لكن مع الأمّ تحديداً، الأمر مختلفٌ: فارتباطها بالطفل يبدأ منذ اللحظة الأولى، ولا ينتهي. فكلّ استقلالٍ يحققه الطفل يفتح في داخلها مساحة تعلقٍ جديدةٍ، لا تقلّ قوةً عن السابقة. ولهذا، لا أظن أن هناك ما يمكن أن يُسمّى «فطاماً للأم». الأم لا تنفصل عن أبنائها، بل تراهم امتداداً لها، وقطعةً من جسدها، ورفاق وحدتها في الكِبر، وحراس ذاكرتها. حتى الأب، وإن كان بطريقةٍ مختلفةٍ، يجد في الأبناء امتداداً له يقاوم بهم فكرة الفناء. في العمق، علاقة الوالدين بأبنائهم ليست فقط مسؤوليةً بيولوجيةً أو تربويةً، بل هي، أيضاً، محاولةٌ لا شعوريةٌ لمواجهة الموت عبر الامتداد في حياة الأبناء. لا أدري، بالنسبة إليّ، أرى أن «فطام الأم» بالمعنى الحقيقي غير موجودٍ، بل هناك تحولاتٌ في العلاقة. أما الرابط، فباقٍ حتى ما بعد غياب الأم نفسها.

د. حسام الدين درويش:

أعود إلى صورةٍ أخرى؛ الكتاب حين يولد كطفل. لقد تشاركنا فرحة صدوره، وأحسستُ بأنّ هذا الكتاب طفلٌ خرج إلى العالم. غير أنّ لهذه الولادة خصوصيةٌ؛ فقد اطّلع بعض المقرّبات والمقرّبين على الكتاب، وكان بينك وبينهم تفاعلٌ مميّزٌ. وأنا أرى أنّ «الكاتب الحقيقي» يبقى، دائماً، في حالة شكٍّ تجاه نصّه حتى يقرؤه الآخرون. أمّا أن يكون الكاتب واثقاً مئة في المئة ولا يأبه برأي الغير، ففي ذلك جانبٌ سلبيٌّ، على الأقل. أمّا هنا، فقد كان للتفاعل خصوصيته؛ إذ منح هذه الولادة طابعاً أكثر جمالاً، حدثينا عن هذا؟

د. ميادة كيالي:

بالنسبة إليّ، التفاعل مع القرّاء الأوائل للكتاب، كان أشبه بولادةٍ ثانيةٍ للنص. حين أرسلته أول مرةٍ إلى الروائي الكبير والصديق **ممدوح عزام**، كنت أترقّب كالتلميذة التي تنتظر علامة أستاذها، فجاءني ردّه مشجّعاً ودافئاً، أعاد إليّ الثقة بأنَّ هذه التجربة تستحق أن تُروى. ثم أرسلته إليك **د. حسام**، وكان لتجاوبك أثرٌ كبيرٌ عندي؛ إذ شعرت أن هناك من قرأ النص بعينٍ فاحصةٍ، ووجد فيه ما يستحق النقاش. كما أنني شاركت النص مع د .**موسى برهومة**، ففاجأني بأن التجربة وصلت إليه كرجلٍ، بكلّ ألمها ووجعها.

الأجمل أنّ بعض القرّاء أخبروني أنهم شعروا جسدياً بثقل

التجربة، حتى إن أحدهم قال لي إنه، بعد القراءة، قبّل يد زوجته تقديراً لصمتها ومعاناتها. عندها، أدركت أن الغاية قد تحققت: أن يصل صوت المرأة في تجربة الولادة إلى من لم يعشها بجسده. وفي النهاية، حين قرأت **د. لطيفة البصير** المخطوط، ومنحتني كلماتها المشجعة دفعةً أخيرةً لإخراجه إلى العلن. لقد كان النص، بالنسبة إليّ، جزءاً حميمياً وخاصاً، لكن حين لامس الآخرين بهذا الشكل، أيقنت أن ولادة الكتاب لا تكتمل إلا حين يُقرأ ويصبح جزءاً من حياة غيري.

د. حسام الدين درويش:

قد تكون هذه هي الولادة الحقيقية للكتاب. فتفاعل القرّاء مع الكتاب بهذه الطريقة هو ما أعطاه حياة جديدة. فالكتاب، عندما يُطبع، يموت من منظور كاتبه؛ إذ لم يعد يفكّر فيه أو يشعر به، بل يصبح أمراً منتهياً. غير أنّه يُبعث من جديد مع كلّ قراءة، وربما في ذلك سرّ جماله.

د. ميادة كيالي:

لقد كانت قراءات الأصدقاء من أكثر ما منحني الاطمئنان. **رنا** صديقة عمري، رغم معرفتها بكل تفاصيل الرحلة، خطوةً بخطوةٍ، ومع ذلك، حين قرأت النص شعرتُ أنني أقدّم لها شيئاً جديداً. وكذلك أختي **ريما** التي واكبت التجربة، منذ بداياتها، فكان لرأيها وقعٌ خاص عليّ. أما **د. عبد السلام شرماط**، فقد كتب نصاً رائعاً ومكثّفاً عن الكتاب، مليئاً بالتعليقات العميقة التي أعادتني إلى

النص بعينٍ مختلفةٍ. وكان **د. يونس الوكيلي** شغوفاً بمعرفة شعور المرأة تجاه هذا النص، وأخبرني أنّه وجد فيه تعبيراً صادقاً عن التجربة الإنسانية للولادة، وإن لم أكن قد أرسلت إليه النسخة الكاملة بعد.

د. حسام الدين درويش:

في ذلك الوقت، كان الجميع يقرأ الكتاب دفعةً واحدةً.

د. ميادة كيالي:

لقد كان لافتاً أنّ من اطّلعوا على المخطوط قرأوه دفعةً واحدة، ولم يتركوه حتى أنهوا صفحاته. واكتشفوا معه **ميادة** من جديد، عندها أيقنتُ أنّ الكتاب لم يخرج منّي فقط كحالةٍ شخصيةٍ، بل أصبح تجربةً مشتركةً تولد مع كل قراءةٍ جديدةٍ.

د. حسام الدين درويش:

دعينا نختم بسؤالٍ يمزج بين هذا الكتاب وكتاب المذكرات أو السيرة الذاتية، في إطار مقولة: «ميادة وما أزال». من ناحيةٍ أولى، هناك الاستمرارية، فأنت أصدرت كتاباً كُتِب قبل 25 سنةً يتعلق بذاتك، فهل ما زال يعبر عنك ويعكس فكرك وأسلوبك، من ناحية الاستمرارية حتى الآن؟ هل تتبنينه وكأنك كتبته اليوم؟ فنحن جميعاً نمرّ بتغيراتٍ كبيرةٍ في حياتنا، وننتقل من مرحلة إلى أخرى، ونشهد تطوراً أو تحولاً مستمراً. كيف يمكن الجمع بين هذه الاستمرارية من جهةٍ، وكون النص مكتوباً قبل 25 سنة وكأنه وُلِد للتوّ؟ فهل ما زلت ميادة ذاتها في هذا النص نفسه. وإذا نظرنا إلى الموضوع من

منظورٍ فلسفي؛ هوية الإنسان متغيرةٌ، دائماً أو عبر المراحل العمرية والخبرات المختلفة، لكن يبقى هناك عنصرٌ ثابتٌ فيها؛ بمعنى أن «ميادة ما تزال». فكيف تجمعين، بين «ميادة وما أزال»، بين هذا الثابت، الذي يعكس ذاتك منذ كنتِ في الخامسة أو العاشرة، وبين التغيرات التي طرأت عليكِ؟ وهل ترين أنّ هناك قاسماً مشتركاً أكبر من الاختلافات؟

د. ميادة كيالي:

هناك أشياءٌ أساسيةٌ ظلّت ثابتةً في حياتي، تشكّل جوهر «ميادة وما أزال». منذ طفولتي، وأنا أؤمن بخيرية الإنسان، وبالطيبة والبساطة، ولم تفقدني التجارب القاسية ولا الانكسارات المتكررة هذا الإيمان. لقد مررتُ بمواقف كثيرةٍ أحزنتني وكسرتني، ومع ذلك لم أتخلّ عن الصبر، ولم أتخلّ عن الثقة بالإرادة، ولم أتخلّ عن اليقين بأن الإنسان قادرٌ على صنع المستحيل وتحقيق أحلامه. «ما أزال» أؤمن بأن الاجتهاد يقود إلى النجاح، حتى وإن رافقني الفشل أحياناً. وما أزال أحتفظ بتلك الإنسانة العفوية، الطفلة التي تسكن داخلي، التي تضحك على أبسط الأشياء، وتجلس لتلعب مع الأطفال وتشاركهم براءتهم. هذا الجوهر لم يُسرق مني، رغم كلّ ما عايشته من صعوبات.

أقول دائماً: ما زلت أؤمن أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة. فهويتي تبدّلت كثيراً عبر المراحل المختلفة: من فتاةٍ صغيرةٍ، إلى طالبةٍ وباحثةٍ، إلى أمٍّ، إلى مديرةٍ وناشرةٍ، لكن، هناك

خيطٌ رفيعٌ يربط بين كل هذه المراحل: إيماني بالإنسان، وبالمحبة، وبأن المعنى الحقيقي للحياة يكمن في أن نحيا بصدقٍ، ونواصل الحلم.

د. حسام الدين درويش:

حياة كلّ إنسان تستحق أن تُروى، وإذا استطاع أن يرويها، فذلك شيءٌ جميلٌ. وفي حياة الإنسان كثيرٌ من الأمور المميزة، لكنها مليئةٌ بالتحولات الجذرية؛ من ميادة الزوجة التقليدية، إلى ميادة المرأة الإدارية المشرفة على تأسيس وتطوير شركةٍ أو مؤسسةٍ كبيرةٍ، ومن ميادة الكاتبة الأدبية إلى الباحثة، إلى الأم، إلى أدوارٍ أخرى. فهناك أشياءٌ قد يصعب ربطها معاً، فكيف يمكن أن يكون هذا الشخص نفسه هو نفسه، على الرغم من كل التغيرات التي طرأت عليه؟ فما الذي بقي من ميادة الزوجة أو الطالبة أو الموظفة الحكومية أو المهندسة؟ أي ماذا بقي من صفاتك السابقة، أو ما زال موجوداً في شخصيتك حتى الآن؟ وما الذي تغيَّر؟ وعلى الرغم من أنه يبدو أن هناك اختلافاً كبيراً، فما زلت ميادة تحتفظين بالطيبة نفسها، بالكثير من السمات نفسها، ولا أدري إذا كنت ما زلت تحتفظين بالطموح ذاته وبالإرادة ذاتها؟

د. ميادة كيالي:

نعم، هذا بالضبط ما دفعني إلى إخراج هذا الجزء من سيرتي إلى النور، وما يدفعني إلى استكمال باقي المحطات. فقد رافقتني، في كلّ هذه التحولات، سماتٌ أساسيةٌ لم تتغير: الطيبة، والإيمان

بالنفس، والإرادة التي صنعت مساري. صحيح أنّ الأدوار تنوعت بين الطالبة والمهندسة والزوجة والأم والباحثة والمديرة، لكن الجوهر بقي واحداً؛ الطفلة المحبة للحياة وللآخرين، الواثقة بأنّ رسالتها تستمد معناها من علاقةٍ صافيةٍ بخالق الكون، الحارس على ضميرها، والهادي إلى الخير في كل خطوةٍ.

د. حسام الدين درويش:

ألف مبارك مرةً أخرى، وسنستكمل هذا الحوار قريباً. أطيب التحيات.

الفصل السادس

جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ

حكاية عن الحب والأمومة والنجاة

(2)[1]

د. حسام الدين درويش - د. ميادة كيالي

د. حسام الدين درويش:

مباركٌ لك مرةً ثانيةً صدور كتابك «جسدٌ مقيمٌ في سريرٍ: حكايةٌ عن الحب والأمومة والنجاة»، والعنوان الفرعي «سيرة ولادة». سنتابع اليوم الحديث عن الكتاب، في معرض إسطنبول للكتاب العربي الذي يقام هذا العام، 2025، تحت شعار: «وتبقى

(1) جرى هذا الحوار في معرض إسطنبول الدولي للكتاب الذي انعقد في الفترة بين 9-17 آب/ أغسطس 2025، وتجدون التسجيل الكامل له على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=KNsk9RMAa-w&t=8s.

كما تجدون النص المنشور على موقع مؤمنون بلا حدود:
https://www.mominoun.com/articles/ حوار-مع-د-ميادة-كيالي-حول-جسد-مقيم-في-سرير-الجزء-الثاني-10254

العربية». وفي متابعةٍ للحوار الأول الذي أجريناه حول مسألة تلقّي الكتاب أو القارئ المثالي، تحدّثنا عن التلقّي الأوّلي، وعن تفاعل الأصدقاء والصديقات والمقرّبين مع الكتاب، وعن الحرص على أن يكون الكتاب متوفراً أيضاً في المراكز الطبية، لدى الأطباء والمستشفيات، خصوصاً في ما يتعلّق بمسألة الولادة، إضافةً إلى المهتمين بالشأن العام. وسؤالي هو: لمن وُجِّه الكتاب؟ هل هو موجَّه إلى الجمهور العام؟ أم إلى الأشخاص الذين مرّوا بالتجربة نفسها؟ هل هو موجَّهٌ إلى الرجال عموماً، لكي يدركوا أبعاد هذه التجربة؟ أم إنه موجَّهٌ تحديداً أو خصوصاً، إلى فارس وكريم (حفظهما الله) بما أنه مهدى إليهما في الأصل؟ أم هو موجَّهٌ إلى كلّ الأشخاص الذين ارتبطوا بهذه التجربة، مثل الطبيب الذي رافقك، الدكتور جوني عوّاد، زارع الأمل وواهب المسرّة؟ إذن، عندما كتبتِه، من كان القارئ المثالي أو النموذجي في بالك؟

د. ميادة كيالي:

حين شرعتُ في كتابة هذه التجربة، لم يكن في ذهني قارئٌ بعيدٌ أو جمهورٌ عامٌّ، بل كنتُ أكتب، أوّلاً وأساساً، لفارس وكريم. أردت أن أترك لهما أثراً مكتوباً يخلّد لحظة ميلادهما الأولى، لا بمعناها البيولوجي فحسب، بل بمعناها الوجودي العميق، أيضاً: منذ الانقسامات الأولى في المختبر، إلى لحظة زراعتهما أجنّةً في رحمي، مروراً بأيام القلق والخوف التي رافقتني طيلة الحمل، حتى ساعات الولادة، ثم ذلك الألم الممزوج بالبرد

حين تركتهما في الحاضنة، وعدتُ إلى البيت من دونهما. كانت تلك اللحظات أقسى اختبارٍ للأمومة: أن تحملي الحياة في أحشائك، ثم تعودي فارغة اليدين، منتظرةً أن يكتمل نمو تلك الأرواح الصغيرة بعيداً عن حضنِك.

لكن كل هذا الوجع تبدّد حين استعدتهما، حين أكملا نموهما وعادا إلى صدري. عندها شعرت أن دوري لم يكن، فقط، أن أمنحهما الحياة بجسدي، بل أن أكون، أيضاً، ذاكرتهما الحيّة وصوتهما الأول؛ أن أتكلم عنهما قبل أن يقدرا على التعبير عن نفسيهما. لذلك، كتبت تفاصيل قد تبدو صغيرةً وعابرةً، لكنها كانت، في حقيقتها، بحجم العالم بالنسبة إليّ: أوّل لمسةٍ لجسديهما الضئيلين الممدّدين على منصة الحاضنة، تلك النظرة الطويلة لأحدهما، وهو يراقبنا من خلف الزجاج، حين خرج أخوه من المشفى، وبقي هو وحيداً، حتى غبنا عن عينيه. تلك اللحظات لم أرد لها أن تضيع، فأمسكتُ القلم، ودوّنتها لهما، واحدةً تلو الأخرى. وكنتُ أقول دائماً: «سأكون أنا صوتكما إلى أن تملكا صوتيكما الخاصّين، وسأكتب عنكما حتى تصيرا قادرين على كتابة حياتكما بأنفسكما».

مع الزمن، أدركت أن هذه التجربة ليست ملكاً لفارس وكريم فقط، ولا لي وحدي كأمٍّ، بل هي تجربةٌ إنسانيةٌ عميقةٌ تخصّ كل امرأةٍ تُقدِم على رحلة الأمومة. هي رحلةٌ تبدأ بالرجاء، تمرّ بالخوف، وتنتهي بالدهشة أمام المعجزة التي يُحدثها الجسد.

فالمرأة حين تدخل إلى تجربة الحمل والولادة تدخل في مواجهةٍ صريحةٍ مع ذاتها، مع ألمها وهشاشتها، ومع قدرتها المذهلة على الاحتمال والصمود. إنها تجربةٌ تجعل المرأة تقف عند حدود الجسد، لتكتشف أن هذا الجسد، الذي اعتادت أن تراه في المرآة كياناً يومياً عابراً، يمكن أن يكون مصدر حياةٍ، ومعملاً للخلق، ومسرحاً لمعركةٍ فيها من الضعف بقدر ما فيها من القوة.

أتذكّر أنني في التجربة الثالثة، قلت لنفسي: «إن فشلتُ هذه المرة، فلن أكرّرها». كنت على وشك إعلان الاستسلام، لكنّ الله أرسل لي رسالةً بليغةً من خلال النجاح الذي تحقّق، فقد حصل الحمل لكنه لم يصمد. كانت تلك الرسالة، بالنسبة إليّ، إعلاناً أن الأمل لا ينقطع، وأن جسدي الذي ظننته قد أُنهك ما زال قادراً على أن يكون وطناً للحياة. ومن هنا، صار الكتاب شهادةً على معركة الأمل، بقدر ما هو توثيقٌ لسيرة ولادةٍ.

المفاجأة جاءت بعد النشر؛ إذ تبيّن لي أن القارئ الحقيقي لم يكن النساء وحدهنّ. لقد وجدت أن الرجال تفاعلوا معه بعمقٍ لم أتوقعه. كثيرون قالوا لي إنهم لم يعرفوا من قبل حجم المعاناة التي تعيشها المرأة في الحمل والولادة. أحدهم أخبرني أنه عاد إلى زوجته بعد أن أنهى قراءة الكتاب، قبّل يدها، وقال لها: «أدركت الآن كم عانيتِ، وكم كنت أظنّ الأمر يسيراً». عندها فهمتُ أنني لم أكتب، فقط، لأبنائي، ولا، فقط، للنساء اللواتي يمررن بالتجربة ذاتها، بل كتبتُ، أيضاً، للرجل، كي يدرك أن ما يظنه

واجباً طبيعياً أو وظيفةً جسديةً عابرةً هو، في الحقيقة، زلزالٌ داخليٌّ تمرّ به المرأة، لا يقل شأناً عن أيّ معركةٍ يخوضها في حياته.

دعني أخبرك أمراً آخر هنا. كثيراً ما تعتقد النساء أنّ الرجل «يعرف» ما يجول في دواخلهنّ، بينما هو، في الحقيقة، قد لا يعرف. يحدث ذلك حتى في أبسط التفاصيل اليومية؛ فحين يسألها: «هل تريدين أن تأكلي؟» قد تلتزم الصمت، وكأن عليها أن تنتظر منه أن يخمّن رغبتها أو حاجتها، بدل أن تصارحه بما تشعر به. فإذا كان سوء الفهم ينشأ من هذه الجزئيات الصغيرة، فكيف سيكون الحال مع القضايا الكبرى كأوجاع الحمل والولادة التي لا يختبرها الرجل في جسده أصلاً؟

من هنا أدركت أنّ الصمت لا يصنع شراكةً حقيقيةً، وأن التعبير عن الألم والخوف، ومشاركة الرجل في هذه التجربة، لا ينتقص من دور المرأة، بل يعيد للرجل حضوره الحقيقي، ويمنحه فرصة أن يكون شريكاً واعياً في رحلة الحياة، بدل أن يظلّ على هامشها أو مجرد متفرّجٍ. فالمرأة، حين تكتب عن الولادة، لا تكتب عن حدثٍ بيولوجيٍّ فحسب، بل تكتب، أيضاً، عن إعادة تعريف ذاتها، عن حدود قوّتها وضعفها، وعن معنى أن تُسلِّم جسدها للتحوّل، وتظل واقفةً، بعد ذلك. لقد علّمني هذا الكتاب أن الكتابة ليست توثيقاً وحسب، بل هي، أيضاً، مساحةٌ للحوار، ودعوةٌ إلى إعادة النظر في العلاقات الإنسانية. كتبتُ في البداية لطفلين،

فاكتشفت أنني أكتب لعالمٍ أوسع، ولرجالٍ ونساءٍ يحتاجون إلى أن يدركوا أن التجربة الإنسانية، بكل هشاشتها وقوّتها، لا تُعاش في عزلةٍ، بل تُكتَب ليُعاد اكتشافها مع الآخرين.

د. حسام الدين درويش:

المسألة لا تتعلّق بالجسد فحسب، بل بالولادة وخصوصيتها، أيضاً. والسؤال هنا: إذا كان القارئ الأوّل المفترض هو فارس وكريم، فهل قرآ الكتاب؟ وهل دار بينكم أيّ تفاعلٍ حول هذه المسألة؟ لقد لاحظت أنّه على الرغم من أنّكِ ربما تحدّثتِ كثيراً مع المقرّبين حول هذه المواضيع، فإنّ ردود أفعالهم كشفت أنّهم عرفوا أموراً لم يكونوا يعرفونها من قبل. ويبدو أنّ النص يُظهر تفاصيل جديدةً تجعل القارئ يكتشف أشياء لم يكن يراها سابقاً. أنا أعرف أنّ إحدى صديقاتك قالت لك إنها اكتشفت أشياء جديدةً، رغم أنّها عاشت معك التجربة أو كانت قريبةً منها. وسؤالي: هل قرأ فارس وكريم الكتاب؟ وهل تفاعلا معه؟ وماذا عن الأشخاص القريبين جدّاً، مثل الدكتور جوني وغيرهم ممّن لهم صلة مباشرة بالموضوع؟

د. ميادة كيالي:

لا أخفيك أنني لا أتمنى أن يقرأ فارس وكريم الكتاب الآن. نعم، لقد كتبته لهما، ومن أجلهما، لكن القراءة لها وقتها، ولها نضجها. أشعر أن اللحظة لم تحن بعد، وأن عليهما أن يعيشا مسافةً زمنيةً كافيةً بين ما دُوّن لهما وما يختبرانه بأنفسهما. فالطفل حين

يكبر في كنف أمّه يظن أنها باقيةً أبداً، وأن وجودها مضمونٌ كالماء والهواء. لا يخطر في باله أن هذا الحضن الذي يأويه قد يغيب يوماً. لذلك، أتركهما الآن لبراءتهما، مؤمنةً بأن اللحظة ستأتي حين يحتاجان إلى العودة إلى هذا النص، لا بوصفه كتاباً فقط، بل بوصفه ذاكرةً مكتوبةً، ووصية حبٍّ، وعلامةً على أن أمّهما كانت هنا، عاشت، وكتبت، وواجهت كل شيءٍ كي تمنحهما الحياة.

إن أجمل ما قد يحدث للكاتب أن يقرأ أبناؤه نصاً كتبه من أجلهم، لكن الأجمل من ذلك أن يأتي هذا اللقاء في الزمن المناسب، حين يكون النص قادراً على ملامستهم بوعيٍ مختلفٍ. لذلك، أفضّل أن يأخذا وقتهما، وأن يلتقيا بهذه التجربة حين يبلغان مرحلةً تجعل القراءة فعل اكتشافٍ حقيقيٍّ، لا مجرد فضولٍ عابرٍ. يكفيني، الآن، أن أشعر بالطمأنينة؛ لأنني تركت لهما شيئاً يخصّهما، شيئاً سيظل في انتظارهما مهما تغيّر الزمن أو تغيّرت أنا.

د. حسام الدين درويش:

إذا ما سنحت الفرصة في المستقبل.

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ أنّني أرسلت نسخةً إلى كريم، وصار لدى فارس نسخته أيضاً، لكنني ما زلتُ أرى أنّ الوقت الأمثل لقراءته لم يحن بعد. فهما نشآ وتعلّما بلغتهما الأقوى، الإنجليزية، بينما النص مكتوبٌ باللغة العربية، وهذا يجعل مسافةً إضافيةً بينهما وبينه. أفضّل أن يأتيا إلى النص حين يشعران أنه يخاطبهما بعمقٍ، لا حين يكون

مجرد تمرينٍ لغويٍّ أو قراءة مجاملةٍ. فالمسألة، هنا، ليست أن يقرآ وحسب، بل أن يلتقيا بالتجربة في زمنهما الخاص، بالوعي الذي يسمح لهما أن يدركا أنها تخصّهما.

د. حسام الدين درويش:

الرسالة الآن تتعلق بدور المتلقي ووقته؛ أي إن الكرة في ملعبه؟

د. ميادة كيالي:

في النهاية، الكتابة التي أنجزتها لم تكن مجرد تسجيل يومياتٍ عابرةٍ، بل كانت محاولةً لتدوين ذاكرتي معهما، منذ اللحظات الأولى لوجودهما، وحتى آخر يومٍ من عمري معهما. لكنني حين أعدت النظر، وجدت أن هذه الصفحات ليست مذكرات أطفالٍ فقط، بل، أيضاً، شهادة امرأةٍ كاملةٍ تحوّلت مع الولادة، امرأة تغيّر جسدها وروحها، وأعادت تعريف ذاتها من خلال الألم والمعاناة والأمل. لهذا السبب، حرّرت هذا الجزء من سياق المذكرات الخاصة، وتركته نصاً قائماً بذاته، يصلح أن يكون شهادةً إنسانيةً عامّةً، لا مجرد رسالةٍ خاصةٍ موجّهةٍ إلى فارس وكريم.

د. حسام الدين درويش:

هذا النوع من الكتابة خاصٌّ جداً ومتعلّقٌ بشخصٍ واحدٍ أو بمجموعةٍ من الأشخاص، أو قد يكون رسالةً موجّهةً من شخصٍ إلى آخر، من ناحيةٍ أولى، لكنه، من ناحية ثانية، يمكن أن يكتب بطريقةٍ تجعله موجَّهاً إلى الجميع. ما رأيك؟

د. ميادة كيالي:

صحيحٌ.

د. حسام الدين درويش:

تعرفين أنّ هناك رسائل كثيرةً في الأدب، أو قصصاً كثيرةً مكتوبةً من أبٍ إلى ابنته، أو من ابنةٍ إلى أبيها، أو غير ذلك. ومع ذلك، يبقى البعد الإنساني حاضراً، وتبقى تلك الأفكار والخبرات العامة التي يمكن لأيٍّ كان أن يقرأها ويتأثر بها، كما لو كانت موجهة إليه شخصيّاً.

د. ميادة كيالي:

تماماً، وهذا هو السبب الذي جعلني أتردّد طويلاً قبل اتخاذ قرار النشر. كنتُ أرى هذه الصفحات جزءاً من ذاكرتي الشخصية مع فارس وكريم، وقطعةً حميميةً من حياتي لا تخصّ سواي وسواهما. لم أتصور يوماً أنها ستغادر الدائرة الضيقة لتصبح بين يدي قرّاءٍ لا يعرفونني. لكن مع مرور الوقت، اكتشفت أن التجربة تحمل في طياتها أبعاداً أبعد من خصوصيتي، وأنها ليست مجرد حكاية أمّ مع ولديها، بل شهادةٌ إنسانيةٌ يمكن أن يجد فيها الآخرون صدىً لتجاربهم.

لقد أدركت أن ما كتبته، وإن بدأ رسالةً خاصةً، يحمل رسالةً عامةً تستحق أن تُروى، وأن تصل إلى شرائح متعدّدةٍ من القرّاء. ففيه شيءٌ من المعرفة، وشيءٌ من الحكمة، وشيء من الألم الذي يمكن أن يُقرأ بوصفه تجربةً فرديةً، لكنه، في الوقت نفسه، جزءٌ من

التجربة الإنسانية المشتركة. وهذا ما منحني الشجاعة لأن أضعه بين أيدي الناس، إيماناً بأنّ النصوص الأكثر صدقاً، حتى إن وُلدت من رحم الخاص، تستطيع أن تخاطب الجميع، وكأنها كُتبت لهم شخصيّاً.

د. حسام الدين درويش:

هناك فكرةٌ أساسيةٌ في الكتاب تتعلق بمغزى الكتابة أو قلقها؛ إذ يبرز توترٌ بين فكرتين، أخبريني كيف تجمعين بينهما؟ من ناحيةٍ أولى، تؤكدين وجود شيءٍ إنسانيٍّ مشتركٍ يمكن أن يلامس كلّ إنسانٍ، رجلاً كان أو امرأةً، عربياً أو غير عربيٍّ، شيءٌ يحرّك في القارئ إحساساً يفهمه ويتفاعل معه. ومن ناحيةٍ أخرى، تؤكدين، في النص، أنّ مثل هذه التجارب لا تُروى؛ لأنّها أعمق وأبعد من أن تُسرد في قصةٍ، ومع ذلك، فقد رويتها. فأنتِ تنوسين بين هذين الأمرين: إيمانٌ بالمشترك الإنساني، وهو لا يخص النساء أو العربيات فقط، بل يشمل الرجال والجميع على اختلافهم، وفي الوقت نفسه، تعطينا الانطباع بأنّ ما نكتبه، مهما كتبنا، لن يعبّر عن القصة كلّها؛ لأنها أبعد وأعمق، تمسّ خبرةً وتجربة حياةٍ لا تُحكى. كيف توفّقين بين هذين البعدين؟

د. ميادة كيالي:

نعم، بالتأكيد، فالكلام عن التجربة لا يرقى إلى عيشها في جسدك وروحك. ومهما بلغت الكتابة من قدرةٍ على الوصف أو الدقة في التعبير، فهي تظل عاجزةً عن الإحاطة الكاملة بما يجري

في أعماق المرأة حين تعبُر تجربة الحمل والولادة. هناك أوجاعٌ لا تُنقل، وتحولاتٌ لا تُختزل، ومشاعر تتجاوز اللغة نفسها. فالكتابة تستطيع أن تقترب، أن تلمح، أن تُشير، لكنها لا تستطيع أن تستوعب التجربة كلّها. ومع ذلك، تبقى الكتابة ضروريةً؛ لأن ما لا يُحكى يظلّ ناقصاً، ولأن الإنسان محتاجٌ، دائماً، إلى أن يضع لتجاربه كلماتٍ، ولو كانت قاصرةً. إن الكتابة، هنا، ليست فعلاً لإغلاق الحكاية أو استنفادها، بل هي محاولةٌ لملاحقةٍ ما ينفلت منها. ولذلك، فإن هذه الصفحات القليلة ليست كلّ القصة، بل هي إشاراتٌ إليها، نوافذ صغيرةٌ على عالم أكبر بكثيرٍ ممّا يمكن أن يُقال.

أؤمن أن ثمة جزءاً من الخبرة يظلّ عصياً على التعبير، يخص المرأة وحدها، ولا يمكن أن يُنقل بكامله. لكن هناك، أيضاً، جزءٌ آخر ينجح في العبور عبر اللغة، ويصل إلى القارئ مهما كانت المسافة. هذا الجزء هو الذي يسمح للآخر أن يقترب، أن يفهم، أن يتعاطف. هو الذي يفتح باب المشترك الإنساني، ويجعل من تجربةٍ فرديةٍ جداً شهادةً يمكن أن تمسّ الرجل والمرأة، العربي وغير العربي، كل من له قلبٌ وتجربةٌ إنسانيةٌ. لهذا أكتب، وأنا مدركةٌ أن الكتابة لن تقول كل شيءٍ، لكنها ستقول ما يكفي ليفتح باباً إلى ما لا يُقال. فاللغة لا تملك أن تروي الحكاية كاملةً، لكنها قادرةٌ على أن تمنح القارئ خيطاً يلمس به جوهر التجربة، وأن تجعله شريكاً فيها، ولو للحظةٍ.

د. حسام الدين درويش:

لأن ثمة شيئاً يصل؟

د. ميادة كيالي:

وهذا بالضبط ما اكتشفته؛ على الإنسان أن يحكي، وأن يكتب، وأن يشهد. حتى لو لم يكن ما يكتبه كاملاً أو خالياً من النقص، فهو، على الأقل، يؤدي ما عليه؛ ويبعث رسالته، ويقول كلمته، ويروي سرديته التي قد تتقاطع مع سردياتٍ أخرى. قد يتقبّلها البعض أو يرفضونها، قد يناقشها البعض أو يحبّونها أو لا يحبّونها، لكن الأهم أن يكون قد أدّى أمانة الحكاية، وقدّم شهادته عن نفسه وحياته، بدل أن يترك الآخرين يروونها عنه، أو يكتبونها بالنيابة عنه.

لقد كان بإمكاني - وربما كان أسهل لي - أن أستفيد من هذه المحطات في حياتي، وأحوّلها إلى رواية، إلى شخصيّاتٍ وأحداثٍ من نسج الخيال. لكنني حين حاولت ذلك، أدركت أن المشاعر التي مررت بها لا يمكن أن تُحمَّل إلى شخصيةٍ أخرى من الورق. هناك صدقٌ لا يحتمل الأقنعة، وتجربةٌ لا تحتمل الإسقاط. لذلك، آثرت أن أرويها بصفائها وصدقها، كما حدثت معي، لا كما يمكن أن تُختلق في حكايةٍ. وبهذه الطريقة، أشعر أنني لم أكتب مجرد نصٍّ، بل وضعت شاهداً على حياتي، نصاً لا يستعير صوتاً آخر ولا يختبئ وراء أسماءٍ وأقنعةٍ، بل يقدّم نفسه كما هو: شهادة امرأةٍ عاشت وتألمت، أحبّت ونجت، ثم قررت أن تكتب.

د. حسام الدين درويش:

أتفق معك على أنّه، في النهاية، حين نكتب، يكون هناك اختلافٌ قائمٌ بين النص والتجربة المعيشة؛ أي إن في الأمر شيئاً مختلفاً. لكن أرى أنه ينبغي لنا ألا نذهب في هذا الاتجاه إلى أقصى حدٍّ، حيث نتحول إلى فردانيةٍ أو غنوصيةٍ أو خصوصيةٍ منغلقةٍ على نفسها، وكأن من لم يعش تجربتي، لن يتمكن من فهمها. فليس من الضروري أن تكوني فقيرةً كي تفهمي ما قد يعنيه الفقر، ولا أن تكوني سارقةً لتدركي معنى السرقة. فإذا أخذنا الخصوصية إلى حدها الأقصى، فلن يبقى هناك شيءٌ مشتركٌ بين البشر. إضافةً إلى ذلك، غالباً ما تكون التجارب متناثرةً، فتشعرين بهذا الشعور أو تعيشين تلك الحالة. أما في الكتابة، فنحن نربط بين هذه المشاعر والحالات، ونشكل منها سرداً مترابط الأجزاء، ثم إنّ الكتابة لا تعبر، فقط، عن واقعٍ ما، بل تضيف أشياء لا توجد في التجربة المعيشة. لهذا السبب، قد يلتقط الأصدقاء أو الصديقات الذين عاشوا معك بعض هذه التفاصيل، أو قد تنتبهين أنتِ شخصياً إلى أشياء لم تكن حاضرةً قبل فعل الكتابة. إذن، نحن متفقان في النهاية على محدودية الكتابة، غير أن لهذه المحدودية نفسها حدوداً؛ فالكتابة، بطبيعتها، بنائيةٌ، تضيف وتوسّع، دون أن يعني ذلك أنها اختلاقٌ زائفٌ.

د. ميادة كيالي:

بالتأكيد. في النهاية، كلّ ما نفعله، حين نكتب، هو أن نحاول

التعبير عمّا في داخلنا، ونترك المجال مفتوحاً للقارئ، ليتفاعل مع النص بطريقته الخاصة. لهذا، أرى أن في كل تجربةٍ تُروى مستويين: جانبٌ يُمكن أن يُحكى وتستوعبه اللغة، وجانبٌ آخر يظلّ عصيّاً على التعبير، باقٍ في منطقة الصمت والعمق. لكن ما اكتشفته هو أن الصدق والشفافية هما ما يقرّبان المسافة بين هذين المستويين. فكلّما كتبت بصدقٍ أكبر، أحسست أنني أقترب أكثر إلى الآخرين، وأن شيئاً من تجربتي يجد صداه في قلوبهم.

وقد شعرت بسعادةٍ غامرةٍ حين لمست هذا الأثر بشكلٍ مباشرٍ. القراءات التي تلقيتها من أصدقائي وأحبّتي أكدت لي أن النص وصل إليهم بعمقٍ وبساطةٍ في آنٍ واحدٍ. كثير منهم أخبروني أنهم قرأوه دفعةً واحدةً، في جلسةٍ واحدةٍ، كأنهم انجرفوا مع سيل الحكاية، دون أن يتمكنوا من التوقف. كانت هذه الاستجابة أعظم حافزٍ لي؛ لأنها منحتني ثقةً بأن ما كتبته ليس مجرد بوحٍ خاصٍّ، بل شهادةٌ يمكن أن تلمس الآخرين. وهكذا صار الصدق في الكتابة، بالنسبة إليّ، ليس مجرد خيارٍ أسلوبي، بل شرطاً أساسياً لولادة النص. هو الذي يحوّل التجربة الفردية إلى جسرٍ إنسانيٍّ، ويجعل القارئ يرى نفسه في مرآتها، حتى إن لم يعش تفاصيلها. الكتابة، في نظري، فعل مشاركةٍ، لا انعزالٍ، والجسر الذي نعبره لندرك أننا لسنا وحدنا.

د. حسام الدين درويش:

عندما أقول إن الكتابة ليست، فقط، تعبيراً عن المعنى، بل

هي، أيضاً، إنتاجٌ للمعنى؛ أعني أنّه عندما كتبت أموراً خاصّة بي، ساعدتني الكتابة على فهم أشياء، أو الانتباه إلى أشياء، أو إدراك أمور لم أكن ألاحظها من قبل. وهذا ما يمكن أن يعنيه قولك المتكرر في الكتاب إنك بعد الكتابة، أنت ككاتبة، تولدين من جديدٍ، كشخصٍ.

د. ميادة كيالي:

تماماً. الكتابة ليست مجرد تعبيرٍ عن تجربةٍ سابقةٍ، بل هي، أيضاً، عملية ولادةٍ جديدةٍ للمعنى. حين أنظر، اليوم، إلى النص الذي أنجزته في 1999 واشتغلت عليه، لاحقاً، في فتراتٍ متباعدةٍ جدّاً، أجد أن ما خرج، في النهاية، يختلف كثيراً عمّا كتبته في البداية. الكتابة الأولى كانت أقرب إلى تدفقٍ عاطفيٍّ مباشرٍ، أقرب إلى تسجيلٍ للوجع والدهشة كما عشتهما في لحظتهما. أما النص الأخير، فحمل معه نضوجاً أكبر؛ لأنه لم يكن حصيلة التجربة وحدها، بل حصيلة الزمن الذي مرّ عليها أيضاً.

الكتابة تتغذى من التراكم: من الخبرة، من العمر، من تغيّر الأمكنة، من الأحداث التي تترك أثرها فينا شيئاً فشيئاً. أن تكتب عن تجربةٍ تمتد لخمسة وعشرين عاماً؛ يعني أنك تكتب، ليس فقط عن لحظة الولادة، بل عن كل ما تلاها من انعكاساتٍ، وعن كيفية استمرار التجربة في تشكيلك كإنسانةٍ، وأمٍّ، وكاتبةٍ. فالنص، هنا، لا يوثق الماضي فقط، بل يعيد، أيضاً، صياغته في ضوء ما أضافته السنوات، وما نضج في داخلي من وعي وتأمل.

أتذكر أن المفكر **هاني فحص** قال لي يوماً: «حتى لو أحببت النص جداً، وكنت مسرورةً به، لا تنشريه فوراً، اتركيه جانباً، ثم عودي إليه فيما بعد». كنت أتساءل وأستغرب حين أسمع أن أحدهم كتب روايةً، وظل يعمل عليها عشر سنواتٍ! لكنني اكتشفت، لاحقاً، أن هذا ممكنٌ جداً، بل هو ما يمنح النص عمقه الحقيقي. فالنصوص، مثل الأبناء، تحتاج إلى زمنٍ لتنمو، وإلى صبرٍ كي تكتمل.

اليوم، وأنا أعود إلى نصوصي الأولى، أرى بوضوحٍ أن الكتابة ليست مجرد تسجيلٍ لما كان، بل هي إعادة خلقٍ، توليدٌ جديدٌ لشخصي ولوعيي من خلال اللغة. وهذا ما يجعلني أؤمن أن كلّ نصٍّ حقيقيٍّ يحتاج إلى أن يمرّ بمخاضٍ طويلٍ، كما يمرّ الجسد بمخاض الولادة، ليخرج إلى النور مكتملاً.

د. حسام الدين درويش:

فترات عدم الكتابة هي فترات إنضاج للعمل؟

د. ميادة كيالي:

نعم، فترات التوقف عن الكتابة ليست فراغاً، بل هي جزءٌ أساسيٌّ من مسارها. هي فترات إنضاجٍ صامتةٍ، يعمل فيها النص في أعماقك، من دون أن تدرك ذلك. أستحضر، هنا، تجربتي مع روايةٍ بدأت كتابتها عام 2007، وكنت أعود إليها تقريباً، كلّ عامٍ: تجد لديّ نسخاً منها معنونة «يونيو 2008»، «سبتمبر 2012»، وهكذا. في كل مرةٍ أقرأ ما كتبته وأضيف شيئاً جديداً. أحياناً كنت أشعر

بالملل منها، وكأنها تكرر نفسها عليّ، لكنني، مع الوقت، أدركت أن هذا التكرار لم يكن عبثاً، بل كان علامةً على أن النص ينمو ببطءٍ في داخلي، وأنه يحتاج إلى كلّ هذه العودة ليكتمل. فالكتابة لا تأتي كلها، دفعةً واحدةً. قد يبدأ النص كوميضٍ، ثم يظل كامناً سنواتٍ طويلةً إلى أن يحين أوان نضجه. الوحي لا يزورك إلا في لحظةٍ محددةٍ، لكنها لحظةٌ محمّلةٌ بكل ما سبقها من تراكمٍ وصمتٍ وانتظارٍ. وفي تلك اللحظة، يتفجر كل ما خزنته السنوات، فتجد نفسك تكتب وكأنك تفرغ حملاً ظلّ ثقيلاً داخلك طوال الوقت. عندها، فقط، تدرك أن النصوص، مثل البشر، تحتاج إلى زمنها الخاص، كي تولد، وأن الاستمرارية ليست مجرد فعل كتابةٍ متواصلٍ، بل هي، أيضاً، صبرٌ طويلٌ على النضج.

د. حسام الدين درويش:

لا أريد أن أستبق قراءة القرّاء، لكن لتجنب إعطاء أي انطباعٍ خاطئٍ، أودّ التشديد على أن الكتاب ليس بكائياتٍ، وليس مجرد تعبيرٍ عن المعاناة أو الشكوى. بالعكس، ومن دون الانزلاق إلى تمجيد الألم، فإن الألم مُقدَّمٌ بطريقةٍ رواقيةٍ تسهِّل من تفهمه وتسويغه، ويظهر ضمن إطارٍ أكبر وإيجابيٍّ، كما في قولك، مثلاً: «الألم ليس عدوّنا...، بل المعبر السرّي نحو القوة التي نجهل أننا نملكها».

د. ميادة كيالي:

نعم، لأن الألم يمكن أن يخلق فينا ما لا يخلقه أي شيء آخر.

أستطيع القول إن الجمل التي وضعتها بين مقاطع الكتاب ليست مجرد عباراتٍ عابرةٍ، بل هي خلاصة نظرتي إلى ما حدث معي بعد مرور السنوات. لقد صرت قادرةً، بعد أن انقضى الزمن، على أن أقرأ نفسي من جديدٍ. ففي لحظة التجربة، كنت أعيش الألم بكثافته الكاملة، كنت أتصور أنني غارقةٌ فيه، وأنه أكبر من احتمالي. كان الحمل والولادة تجربةً قاسيةً إلى حد أنني لم أكن أرى فيها سوى صعوبةٍ مطلقةٍ، ممتزجةٍ بفرحٍ صغيرٍ ومرهقٍ في آنٍ واحدٍ. لكن عندما تجاوزت المحنة بعد سنواتٍ، اكتشفت أن الألم لم يكن عدوّي، بل كان المعبر السري إلى ما لم أكن أعلم أنني أملكه من قوةٍ. لقد غيّرني، صاغني من جديدٍ، منحني نظرةً مختلفةً إلى نفسي وإلى الحياة. من هنا جاءت قناعتي بأن الألم، مهما كان مرهقاً، هو الذي يعيد تشكيلنا، وأنه ليس نهاية الطريق، بل بدايته. هو جسرٌ نعبره، مؤلمٌ ومخيفٌ، لكنه يقودنا إلى ضفةٍ أوسع وأكثر امتلاءً بالمعنى. لهذا، فإن الكتاب ليس رثاءً للمعاناة، ولا بكائياتٍ على الجسد، بل هو شهادةٌ على ما يمكن أن يفعله الألم حين نواجهه بوعيٍ: أن يحوّل التجربة القاسية إلى حكمةٍ، وأن يجعل من الوجع مساحةً للنمو، لا للانكسار.

د. حسام الدين درويش:

كيف يمكننا استثمار هذه اللحظات، ليصبح الألم معبراً للحياة؟ وما هذا الألم «الذي لا يكتبه الطب، ولا يفهمه العلم، والذي يصنعنا من جديد»، كما تقولين في كتابك؟

د. ميادة كيالي:

نحن لا نحتفظ بالألم لنفسه، بل نُحوِّله؛ ما نعيشه من جراحٍ يمكن أن يصبح مصدراً للتفاؤل، لمشروعيةٍ قصيةٍ، ولسردية نجاحٍ تُعيد صياغة معنى الحياة نفسها. في تجاربي، اكتشفت أن تحت طبقات المعاناة تكمن قدرةٌ لم أكن أعرفها في داخلي؛ قوىً صامتةٌ تستيقظ وتفرض دفاعاً عن الوجود. تلك القوة تجعلني، مثلاً، غير قادرةٍ على تقبّل فكرة أن يجهض طفلٌ، حتى وإن كان في أطوار التخلق الأولى. حين أتأمل الجنين الذي شاهدته تحت المجهر، ثم أتصور أن يتم القضاء على هذا الكيان أيّاً كانت الظروف، يعتريني ارتيابٌ شديدٌ؛ كيف يمكن أن نقرر، بحرّيةٍ، قَتل ما بدأ يتشكّل؟ وهذا الدفاع عن الحياة ليس مجرد موقفٍ عاطفيٍّ؛ إنه نتاج لقاءٍ طويلٍ بين ما عشناه من ألم، وما تَرَسَّخ فينا من قدرةٍ على الاحتمال. من هنا، يتحول الألم إلى فعلٍ بنّاءٍ: نكتب عنه، كي نصنع منه سرداً يحفظ وجوده، ونحوّله إلى طاقةٍ تحثّنا على الدفاع عن حياة الغير، وعلى إعادة تعريف معنى الرحمة والمسؤولية. إنّها ليست دعوةً إلى تمجيد الوجع، بل إلى التعامل معه كمادةٍ خامٍ يمكن صقلها: نُعيد قراءتها، ننحت منها حكمةً، ونسمح لها أن تولد فينا إرادةً جديدةً للحياة، حياةً تحقّق قدراً أكبر من الحماية والاحترام لكل كائنٍ يبدأ وجوده.

د. حسام الدين درويش:

من الأمور الصعبة في هذا النقاش، أنّ بعض الأسئلة قد تكون

شخصيةً جداً، ولهذا لك الحق في الإجابة بالطريقة التي تناسبك. فالسؤال هنا مشروعٌ ومفتوحٌ.

د. ميادة كيالي:

يحق لي ألا أجيب؟

د. حسام الدين درويش:

بالتأكيد، وهذا أحد أشكال الإجابة الممكنة. هناك العديد من الجمل الجميلة في البناء، والعميقة في المعنى، والتي أعجبتني وأثارت تفكيري، ومن بينها قولك: «الوحدة ليست غياب الناس، بل غياب من يرى هشاشتك ولا يخاف منها». فترة الحمل والولادة، والفترة التي يحاول النص التعبير عنها، هي الفترة التي شعرتِ فيها بالوحدة أثناء التجربة التي كنت تخوضينها بمفردك. فماذا عن الأشخاص المحيطين بك آنذاك؟ ألم يقلّل وجودهم من شعورك بهذه الوحدة. إلى أي حدّ كنت تشعرين بالوحدة، في تلك الفترة، وبشكل عامٍّ؟ وما وضع المرأة الحامل، عموماً، في هذا الصدد؟

د. ميادة كيالي:

المرأة الحامل، في كلّ الأحوال، تعيش تغيراتٍ هرمونيةً ونفسيةً تجعلها تشعر أنها تخوض التجربة بمفردها، حتى لو كانت محاطةً بالآخرين. فهي تحمل الحمل في جسدها وحدها، وتشعر أن لا أحد يشاركها ذلك العبء الخفي الذي يتنامى بداخلها. أمّا في حالتي، فقد كان الأمر أشدّ قسوةً. منذ سنواتٍ طويلةٍ، كنت في

عائلتي مثل «نَبطشي المستشفى»: أيّ طارئٍ يقع، أيّ عمليةٍ، أيّ ولادةٍ، أيّ مرضٍ، كنت أول من يُستدعى. رافقت الجميع في ولاداتهم وآلامهم، حملت أطفالهم وسهرت بقربهم، وقفت إلى جانبهم في أصعب اللحظات. لكن المفارقة المريرة هي أنه حين دخلت تجربتي الخاصة، وجدت نفسي وحيدةً.

أتذكر الأيام السبعة الأخيرة، بوضوحٍ مؤلمٍ. وُضعتُ في غرفةٍ ضيقةٍ لا تتجاوز مساحتها مترين ونصف في مترين ونصف، أشبه بالزنزانة، فيها سريرٌ جامدٌ مغطى بجلدٍ قاسٍ كالمقصلة، مثبتةٌ فيه أجهزةٌ تمنعني من أيّ حركةٍ. مكثت هناك سبعة أيامٍ كاملةٍ دون أن ألمس الأرض. كانت الغرفة باردةً، وصامتةً، ومعزولةً، شعرت معها بأقصى درجات هشاشتي. كنت أخاف، في كلّ لحظةٍ من فقدان الأجنّة، وأشعر أن جسدي بأسره على حافة الانهيار. زوجي كان معي طوال اليوم، لكن قوانين المستشفى لم تسمح له بالمبيت، فكانت الليالي طويلةً وقاسيةً، يتضاعف فيها شعوري بالوحدة. وفي تلك اللحظات، عرفت معنى أن تكون المرأة جسداً مثقلاً بالألم، بلا أيّ حمايةٍ سوى قوتها الداخلية. كان خوفي عظيماً، وهشاشتي أوضح ما يكون، والأصعب أنني شعرت أن لا أحد يراني حقاً.

د. حسام الدين درويش:

وجود الناس حولك لا ينفي إمكانية أن تكوني وحيدةً؟

د. ميادة كيالي:

نعم، وجود الناس من حولك لا يلغي، بالضرورة، شعورك

بالوحدة. فالوحدة ليست فراغ المكان، بل غياب من يرى هشاشتك ولا يخاف منها. أحياناً يكفي شخصٌ واحدٌ يمنحك هذا الأمان، فيخفف عنك وطأة هشاشتك، وأحياناً قد تكون محاطاً بالكثيرين، لكن لا أحد يرى ضعفك حقاً، فيتضاعف شعورك بالعزلة. وقد جعلتني هذه الفكرة بالذات أراجع نفسي مراراً. كنت أسأل نفسي: هل أفعل الأمر نفسه مع الآخرين؟ هل مرّ بي شخصٌ قريبٌ هشٌّ ولم أنتبه إلى هشاشته؟ هل جعلته يشعر بالوحدة وأنا إلى جانبه؟ صارت هذه التساؤلات، بالنسبة إليّ، تمريناً دائماً على المحاسبة والمراجعة مع الأصدقاء والمقرّبين. كأن التجربة أعادت إليّ حساسيةً مختلفةً تجاه الآخر، وجعلتني أكثر وعياً بضرورة الإصغاء إلى هشاشته، وعدم الاكتفاء بالمظاهر الخارجية التي قد تخفي جرحاً عميقاً.

وأتذكر أنّ هذه المحاسبة لنفسي تجددت بقوةٍ بعد تجربةٍ أخرى عابرةٍ، يوم خضعت لعملية المرارة. عندما وضعوني على سرير التخدير، غمرني شعورٌ مباغتٌ بالهشاشة، كأنني على الحافة بين الحياة والموت. أول فكرةٍ خطرت في بالي حينها كانت: لماذا لم أنهِ ما كنت أريد كتابته؟ لماذا لم أنجز ما حلمت به؟ وبعد العملية، حين خرجت مثقلةً بالضعف، تذكرت، مرةً أخرى، أن الإنسان يخرج من كل تجربةٍ جسديةٍ عنيفةٍ أكثر هشاشةً مما يتوقع، وأن هذه الهشاشة ليست عيباً، بل حقيقةٌ وجوديةٌ. هي ما يذكّرنا بأننا بشرٌ، وأننا بحاجةٍ، دوماً، إلى من يرانا، لا إلى من يكتفي بالحضور الشكلي إلى جانبنا.

د. حسام الدين درويش:

في الكتاب، تكتبين إن الإنسان، في مثل هذه اللحظات، بحاجةٍ إلى من يرى هشاشته ويتقبّلها، أو لا يخاف منها. والوحدة ليست غياب الناس عموماً، بل غياب الإنسان القادر على رؤية هشاشتنا وتقبّلها. أليس كذلك؟

د. ميادة كيالي:

أحياناً يظنّ من حولنا، بحسن نيّة، أنّهم حين يسردون معاناتهم، أو يُقزّمون معاناتنا، يخففون عنّا الألم. لكن ما نحتاج إليه، في تلك اللحظات، ليس المقارنة ولا التصغير، بل أن يتقبلوا ضعفنا ووجعنا كما هو. يكفينا أن يكونوا معنا من دون كلامٍ، وإن لم يملكوا إلا الصمت، فالصمت في حضرة الهشاشة قد يكون عزاءً أعمق من ألف كلمةٍ. ربما لهذا السبب، قررتُ أن أكتب، أردتُ أن أدوّن حتى لحظات خوفي وهشاشتي، أن أتركها عاريةً على الورق، علّ امرأةً أخرى، حين تمرّ بالتجربة نفسها، تجد في هذه الصفحات ما يعينها على فهم مشاعرها، أو ما يمنحها يقيناً بأنها ليست وحدها، وأن خوفها مفهومٌ ومشروعٌ. الكتابة، في النهاية، كانت لي وسيلةً لقول ما لم يُقَل، ولإيصال رسالةٍ صادقةٍ: نحن لا نحتاج، دائماً، إلى من يُقلّل من وجعنا، بل إلى من يراه ويتقبّله، أو إلى صمتٍ رحيمٍ يرافقنا في محنتنا.

د. حسام الدين درويش:

في الكتاب تقولين أيضاً: «لا نحتاج في اللحظات الحرجة إلى

من يملك القوّة...، بل إلى من يرفض أن يرانا نسقط»، بأيّ معنىً يرفض أن يرانا نسقط، ويساعدنا على عدم السقوط؟

د. ميادة كيالي:

المقصود أن الإنسان في لحظاته الحرجة لا يحتاج، دائماً، إلى من يتولّى أمره أو يحمل عنه ضعفه، بل إلى من يذكّره بأنه قادرٌ على أن يقف بنفسه. نحن لا نبحث عن قوةٍ خارجيةٍ تستبدل ضعفنا، بل عن كلمةٍ أو موقفٍ يعيد إلينا الثقة بقوتنا الداخلية. فأحياناً، تكون الكلمة البسيطة كافيةً: «أنتِ قويةٌ، أنتِ قادرةٌ، لا تدعي ما يحدث يهزمك». مثل هذه العبارات قد تصنع الفارق أكثر من أيّ مساعدةٍ ماديةٍ أو عمليةٍ. فهي لا تلغي هشاشتنا، بل تضيء على القوة التي نملكها في داخلنا، حتى وإن كنا قد نسينا وجودها لحظة الضعف.

وأذكر أن ما يعجبني في بعض الحوارات معك، أنك كنت تقول لي: «لا بأس، يمكنك أن تضحكي»، كأنك تذكّرني بأن الحزن ليس قدَراً، وأن في داخلي ما يكفي لتجاوز القصة. لم تكن تحاول أن تلغي ما أمرّ به، بل أن تمنحني نافذةً صغيرةً نحو نفسي، نحو قدرتي على الاستمرار. أحياناً، لا نريد من يقاتل بالنيابة عنّا، ولا من يمدّ لنا يداً يحملنا بها. نريد فقط من يرفض أن يرانا نسقط، فيمدّنا بكلمةٍ تجعلنا نعيد اكتشاف قوتنا، ونقف من جديدٍ. فالدعم الحقيقي ليس أن يحملك الآخر، بل أن يذكّرك أنك تملك ساقين تستطيع أن تقف عليهما.

د. حسام الدين درويش:

في الكتاب تجمعين بين إيمان بالعلم وتمجيده وشكره، وإبراز أبعاده ونتائجه الإيجابية، من ناحية، وبين الإشارة إلى محدوديته وتشديدك على أهمية الجانب الروحاني الذي يتخذ، أحياناً، الشكل والمضمون الدينيين، من ناحيةٍ أخرى. حدّثينا عن هذه الثنائية: من ناحيةٍ، تبرزين المسألة الجسدية العضوية المادية العلمية البحثية التقنية، ومن ناحيةٍ أخرى، تبرزين أن المسألة روحيةٌ، روحانيةٌ، فكريةٌ، شخصيةٌ، ذاتيةٌ، إلى آخره؟

د. ميادة كيالي:

أؤمن، فعلاً، بما تعلّمته من أستاذي **محمد شحرور** - رحمه الله - حين كان يفرّق بين القدر والقضاء. كان يقول: قوانين الكون هي القدر؛ قدرٌ حتميٌّ لا فكاك لنا منه، نحن محكومون به. أما القضاء، فهو المعرفة، فكلما ازددنا معرفة، توسّع قضاؤنا في قدرنا. هذه الفكرة أصبحت بالنسبة إليّ إطاراً لفهم تجربتي: العلم هو قدرنا، لكن القضاء - أي المعرفة - هو ما يجعلنا أوسع حريةً في التعامل مع هذا القدر. لهذا، أرى أن العلم، رغم أنه واسعٌ، يظل محدوداً؛ لأنه دائم التطور. ما كتبته، اليوم، عن تجربة طفل الأنبوب وآلياته مضى عليه سنوات، وقد يكون تم تجاوزه اليوم، أو قد يكتشف الطب دواءً جديداً أو تقنيةً مختلفةً تجعل ما مررتُ به أسهل على نساءٍ أخريات. نحن بحاجةٍ دائمةٍ إلى المعرفة. لكن إذا قال لي الطبيب: «هذه هي الحالة ولا سبيل آخر»، وانتهت القصة

بالفشل، فهنا يأتي الجانب الآخر من التجربة: الجانب الروحي والإيماني. فبعد حدود العلم، هناك شيءٌ داخليٌّ على الإنسان أن يُغلقه بنفسه، أو أن يستمدّ منه قوته كي يواصل. فالإنسان بطبيعته كائنٌ إيمانيٌّ، يؤمن بشيءٍ: بالجمال، بالفن، بالله. علاقتي بالله علاقةٌ كبيرةٌ، أطمئن إليها وأستمد قوتي منها. أشعر أنني كلما آمنت بنفسي، آمنت بالله أكثر؛ لأن الله منحني العقل، والإرادة، والقدرة على التفكير والبحث. واجبي أن أفعل ما عليّ، أن أواصل المحاولة، وأن أجد السبيل. فإذا لم يتحقق ما أريد، فأنا، على الأقل، فعلت ما بوسعي، وهذا يكفيني.

هناك، دائماً، إحساسٌ داخليٌّ لدينا لا يفهمه الآخرون، لكنه يكون، بالنسبة إلينا، مؤشّراً أو إشارةً. في تجارب حملي كانت المؤشرات تقول إنَّ الأمر شبه مستحيلٍ، وعليّ ألّا أحاول للمرة الرابعة، لكن شيئاً داخلياً كان يقول لي: «لا، بل سأفعل». أذكر ما رويته مرةً عن مظلة ابني فارس: حين كنا في معسكرٍ في لندن وسافرنا إلى فرنسا، وهو يصطحب مظلته من ضباب لندن إلى حرّ نيس، حيث لا أحد يتوقع المطر، وكنت ألومه على حملها على الطيارة بعصاتها الغليظة طوال الرحلة. لكنه أصرّ على الاحتفاظ بها. وعندما وصلنا مطار **نيس**، وخرجنا منه، هاجمنا رعدٌ وبرقٌ، وأمطرت السماء، ففتح فارس مظلته ولمعت عيناه بالفخر وسط دهشة الجميع، ووقفت أنا أراه بعينٍ مختلفةٍ: وكأن القدر نفسه كان يناصره على هذا الحدس الداخلي. وهذا حصل معي، تماماً، في

تلك اللحظة التي قررت فيها خوض غمار التجربة الرابعة - رغم قراراتي السابقة بالاستسلام - كنت أمتلك هذا المؤشّر الداخلي نفسه. وأشعر أن عليّ أن أواصل، وأن المؤشرات، مهما بدت صغيرةً أو غير منطقيةٍ للآخرين، كانت، بالنسبة إليّ، بوصلةً داخليةً تقول لي: ما زال الطريق مفتوحاً.

د. حسام الدين درويش:

دعيني أوضح أن البعد الروحي أو الروحاني أو غير العلمي، غير موضوعي، لا يقتصر على المعنى الديني بالمعنى الضيق للكلمة. فمثلاً تقولين: «ثمة لحظةٌ يتوقف فيها العلم، ويبدأ النداء الخفي بين الجنين والروح». كما أنك في مرحلةٍ ما طلبت من الأطباء أن يقوموا بشيءٍ، بناءً على شعورٍ لديك، وكنتِ ترين أن هذا الشعور أصدق وأهم من معرفة الطبيب التقنية. فإلى أي حدّ يرتبط بك هذا الجانب الروحاني بهذا المعنى؟

د. ميادة كيالي:

نعم، العلم يمنحنا أدوات الفهم، ويضع بين أيدينا وسائل للقياس والاختبار، لكن الحياة والتجارب علّمتني أن هناك بعداً آخر ينمو داخل كلّ إنسان؛ حدساً خاصاً به يتشكّل حسب ما مرّ به من تجارب وما اعتنقه من أفكار. هذا الحدس، إذا جاز التعبير، هو قدرةٌ استباقيةٌ على قراءة إشارات المستقبل أو شيفرات تحوّلات الجسد والنفس، قبل أن يتمكن العلم من رصدها أو تفسيرها. وأحياناً أشعر أنّ في دواخلنا «نظاماً» يشبه ما نعيشه اليوم مع

التكنولوجيا: كما نستغرب حين نتحدث عن شيءٍ ما، ثم نفاجأ بظهور دعايةٍ عنه على هواتفنا أو على وسائل التواصل الاجتماعي، فنفهم أنّ هناك تطبيقاً يتجسّس على أصواتنا، كذلك في دواخلنا أيضاً شيءٌ شبيه يتجسّس على أفكارنا، يلتقطها قبل أن ندركها نحن أنفسنا، ثم يعيدها إلينا على شكل إشاراتٍ أو رسائل صغيرةٍ. وهذا الحدس ليس بديلاً عن العلم، ولا نقيضاً له، بل هو الوجه الآخر لتجربتنا الإنسانية؛ ذلك الجزء الذي يُنصت إلينا، حين يصمت كل شيءٍ آخر، ويعطينا جواباً أو إشارةً دون أن نبحث عنها. فالحدس ليس علماً، لكنه ذاكرة الروح، وهي تتحدث قبل أن يصل العلم.

د. حسام الدين درويش:

تحت عنوان «اصرخِي ولا تصمتي»، تكتبين: «ليست كل الحروب بالرصاص...، بعضها بالصبر والصمت إلى أن يحين أوان الصراخ». يبدو أن لديك مراحل للصمت، أو ما يمكن أن نسميه الحروب بالصمت، والصبر، والصمت الطويل. كنا نتحدث عن أكثر من تجربةٍ، في أكثر من مرحلةٍ، مع أكثر من طرفٍ، مهنياً أو غير مهنيٍّ، عن ممارسة الصبر والصمت، إلى أن يبدأ الصراخ. ونعني بالصراخ هنا القيام بفعلٍ ما لإيقاف ظلمٍ ما. كنا نتحدث عن الدكتورة لطيفة، وعن الصراخ من خلال الكتابة. وأظنها قالت: «جئتُ للصراخ من خلال الكتابة». حدثينا عن ثنائية الصبر والسكوت من ناحيةٍ، والصراخ والكتابة من ناحية أخرى، في حياتك؟

د. ميادة كيالي:

بالطبع، هناك عتبةٌ للاحتمال، وهذه العتبة تختلف من شخصٍ إلى آخر. في حياتي، كانت هناك دائماً معارك بالصمت ومعارك بالصوت. كنتُ أسمّي الصمت الطويل أحياناً «المعركة بالزمن»، أقول لنفسي: «هذه حربٌ لا تستحق أن أستنزف حياتي من أجلها الآن»، فأمضي فيها صامتةً، أراقب وأصبر، وكأنني أُعِدُّ نفسي لما بعد ذلك. وفي حياتي، تكررت هذه الثنائية كثيراً: الصبر والصمت حتى تتهيأ اللحظة، لحظة الصراخ الذي لا يكون عشوائياً، بل هو قرارٌ تقول فيه: «كفى»، قرارٌ للخروج من حالة انتظارٍ طويلةٍ إلى موقفٍ واضحٍ. وفي ولادة أبنائي، وجدتني صامتةً على ألمي حتى اللحظة الأخيرة، وكأنني أعيش حالة «ولادة مسروقة بصمت». وحين أتت اللحظة، أصبح الصراخ كتاباً، فكان نوعاً من استعادة الحق، واستعادة الصوت، وربما استعادة الذات.

د. حسام الدين درويش:

شكراً كثيراً على هذه الصرخة الجميلة، في انتظار صرخاتك القادمة، إن شاء الله.

د. ميادة كيالي:

إن شاء الله.

الفصل السابع

بين التجربتين الفكرية والذاتية
قراءةٌ نسويةٌ لوضع المرأة العربية[1]

د. حسام الدين درويش - د. ماريز يونس - د. ميادة كيالي

د. حسام الدين درويش:

مساء الخير جميعاً، مساء الخير لكل المتابعات والمتابعين لندوات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود». نرحّب بكم اليوم في ندوةٍ جديدةٍ من مقرّ المؤسسة في بيروت. مع الدكتورة ميادة كيالي، والدكتورة ماريز يونس. أهلاً وسهلاً بكما.

د. ميادة كيالي:

أنا سعيدة بأن نواصل هذا الحوار الذي بدأناه منذ يومين،

---

(1) عُقدت هذه الندوة في منتصف شهر مايو/ حزيران 2025. وتجدون التسجيل الكامل لها على اليوتيوب:
https://www.youtube.com/watch?v=YeFTttnHMEg
كما تجدون النص المنشور على موقع مؤمنون بلا حدود:
https://www.mominoun.com/articles/بين-التجربة-الفكرية-والذاتية-قراءة-نسوية-لوضع-المرأة-العربية-مع-د-ميادة-كيالي-10095

حيث كانت لحظة التعارف مع العزيزة د. **ماريز** فرصةً ثمينةً للغوص في تقاطعات تجربتينا الذاتيتين، ولمس أوجه التشابه في جوانب واسعةٍ من حياتنا العملية.

د. حسام الدين درويش:

لنوضح سياق هذا اللقاء الذي انطلق، منذ يومين، حين التقينا ثلاثتنا لأول مرة، وكان الأمر مدهشاً، حيث كان هناك كثير من القواسم المشتركة بينكما، سواء في التجارب الشخصية، أو في كونكما شخصيتين عامتين في المجال المعرفي والفكري، وأيضاً في كون كل واحدة منكما تشتغل ضمن مؤسسة. وقد تحدثنا، حينئذٍ، عن تعرض الأنثى، لأنها أنثى، لخبراتٍ متشابهةٍ مع كثيرات، رغم اختلاف الظروف. وتحدثنا أيضا عن مسألة النسوية، وكيف أن للنسوية معاني متعددة، وأن الإنسانة قد تكون نسويةً بمعنى ما، وغير نسويةٍ بمعنى آخر، وأن النقد الموجَّه للنسوية ينبغي أن يكون نسائيّاً ونسويّاً، لكي يكون مناسباً وفعَّالاً. وقد شجعت على أن يكون النقد للنسوية من داخلها؛ لأنه حينها يكون أكثر مصداقيةً ومقبوليةً.

سيتضمن هذا الحوار حديث كلّ واحدةٍ منكما عن نفسها بصفتها امرأةً، وإنسانةً، وشخصيةً عامةً، ومفكرةً، ولها دورٌ في المجال العام، ومؤسسةً ومديرةً لمؤسسةٍ. والسؤال العام الذي ننطلق منه يتعلق بوضع المرأة بشكلٍ عامٍّ، من دون تهويلٍ أو دراما، في العالم العربي، مثل لبنان، تونس، المغرب، سوريا، الجزائر،

وإلى أيّ حدٍّ من المناسب، معرفيّاً، الحديث عن أوضاع النساء في العالم العربي بعموميةٍ، أو الأخذ في الحسبان اختلاف تلك الأوضاع بين البلاد والسياقات المختلفة؟

ما رأيك، د. ماريز في وضع المرأة في العالم العربي بوجهٍ عامٍّ؟ وهل يمكن الحديث عنه بهذه العمومية، أم لا بد من تخصيصٍ أكثر لوضع المرأة في هذا البلد أو ذاك، وفي تلك الطائفة/ المنطقة، الطبقة، ...إلخ، أو تلك؟

د. ماريز يونس:

شكراً دكتور **حسام**، وأودّ أن أبدأ بالشكر أيضاً لـــ «**مؤمنون بلا حدود**» على هذه الاستضافة، وللدكتورة **ميادة** التي سعدت بالتعرف إليها على المستويين الشخصي والإنساني، كامرأةٍ وكباحثةٍ، وقد وجدتُ بيننا قواسم معرفيةً وإنسانيةً مشتركةً كثيرةً. وأشكرك، أيضاً، دكتور **حسام**، على هذا الحوار الذي، كما هو معتادٌ في نقاشاتك، يتبلور فيه المعنى بشكلٍ عميقٍ وفعّالٍ، وأتمنى وأتوقع أن تكون له مخرجاتٌ مفيدةٌ.

بالنسبة إلى وضع المرأة في العالم العربي، برأيي لا يمكن الحديث عن «المرأة» ككيانٍ موحدٍ أو واحدٍ، لا على المستوى العالمي ولا العربي. وهذا ما تؤكده المدرسة التقاطعية في الفكر النسوي، حيث ترفض اختزال النساء في قالبٍ واحدٍ أو تصورٍ نمطيٍّ، وتُصرّ على أن المرأة ليست هويةً جاهزةً، بل واقعٌ معقدٌ يتشكل في تقاطعاتٍ بين الجندر والطبقة والانتماء الجغرافي

والديني والسياسي. النساء لسن تجربةً واحدةً، بل طيفٌ واسعٌ من الذوات المعرفية والتجارب التاريخية، تتشكّل ضمن شبكاتٍ من القوى والسلطات. وفي السياق العربي، يتضاعف هذا التعدد بسبب تنوع البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونتيجة التوتر بين التقليدي والحديث، وبين التحولات التي طرأت على مجتمعاتنا من جهةٍ، واستمرار المنظومات الأبوية الراسخة من جهةٍ أخرى. ولهذا، فإن فهم وضعية المرأة لا يمكن أن يُبنى، فقط، على منطق الجندر أو الحقوق القانونية، بل يجب أن يتأسس على تحليل البنية الشاملة التي تصوغ موقع النساء في كل مجتمعٍ.

وبرأيي، رغم هذا التعدد البنيوي، هناك مسارٌ واضحٌ من النضال والاشتباك الذي خاضته النساء العربيات في العقود الأخيرة، وقد أنتج هذا المسار تحولاتٍ حقيقيةً. لا أتحدث، هنا، عن تفاصيل التقدم، بل عن نقلةٍ نوعيةٍ في صورة المرأة العربية اليوم: لم تعد محصورةً في الفضاء المنزلي أو في الهامش الثقافي، بل أصبحت فاعلةً، وحاضرةً، ومؤثرةً في مجالات كثيرة: في الإعلام، والتعليم، والفكر، وريادة الأعمال، والسياسة. وهناك حالات تفوق نسائيٍّ ملحوظٍ، خاصةً في التعليم والبحث العلمي. لكن، هذا لا يعني أن مشروع المساواة قد تحقق؛ لأننا إذا فرّقنا بين تحصيل الحقوق الفردية، وتفكيك البنية التي تمنع استحقاق هذه الحقوق جماعيّاً ومؤسسيّاً، ندرك أن المعركة لم تُحسم. فالمشكلة، كما أراها، ليست في وجود نساءٍ في مواقع قرارٍ أو في

مناسباتٍ رمزيةٍ، بل في أن المنظومة البطريركية لا تزال هي الحاكمة. هي التي تصوغ شروط الاعتراف، وهي التي تضع المرأة، دائماً، في موقع إثبات الذات وفق معايير يحددها الرجل أو النظام العام.

وهنا أعود إلى ما أراه شخصيّاً جوهر المسألة: لا يتعلق الأمر بمشاركةٍ رمزيةٍ هنا، أو تمثيلٍ ظرفيٍّ هناك، بل القضية هي إعادة النظر في بنية العلاقة بين النساء والمؤسسات، والنساء والدولة، والنساء والهوية الجمعية؛ لأننا إذا لم ننتقل من الحضور الشكلي إلى الفاعلية البنيوية - أي إلى إعادة توزيع السلطة داخل الفضاء العام - فإن كل إنجازٍ سيبقى هشّاً. أضف إلى ذلك أن هذا التقدم ليس خطيّاً ولا تراكميّاً بالضرورة. وقد رأينا منذ العام 2011، ومع تصاعد النزاعات والصراعات، كيف تعرضت النساء لارتداداتٍ قاسيةٍ. كثيرٌ من النساء أُعدن قسراً إلى أدوار البقاء والنجاة والرعاية، في لحظة طوارئ اجتماعيةٍ تعيد إنتاج السلطة الذكورية من باب الاستثناء. في لحظة الحرب أو الانهيار، تُقصى النساء من السياسة والفكر، ويُعاد تهميشهن بوصفهن «مسؤولات عن النجاة»، وليس عن إعادة بناء الدولة أو المعنى.

لذلك، وبرأيي، نحن بحاجةٍ، اليوم، إلى خطاب نسويٍ عربيٍّ يعيد مراجعة ذاته باستمرار، لا فقط في أدواته النضالية، بل في عمق رؤيته النقدية، أيضاً. خطابٌ لا يكتفي بتكرار المطالب، بل يسائل جذور المنظومة الذكورية، ويتجاوز موقع الضحية إلى موقع

الشريكة في بناء المسار العام. وهذا ما تؤكده معظم الحركات النسوية الراديكالية اليوم: النسوية ليست مجرد مطالب حقوقيةٍ، بل مشروعٌ تحرّريٌّ جذريٌّ، يعيد تفكيك الهيمنة وإعادة بناء المجتمع من منظورٍ تشاركيٍّ عادلٍ.

د. حسام الدين درويش:

شكراً جزيلاً. بعد أن منحتنا الدكتورة ماريز بارقة أمل، ودَفعة تفاؤلٍ، بحدوث تقدّمٍ، أضافت، هنا، نقطةً مهمّةً، هي أن التقدم ليس حتمياً. لقد قالت إن هناك تراجعاً في بعض الأحيان. ما رأيكِ د. ميادة؟ إلى أيّ مدى يمكن القول إن وضع المرأة، في العالم العربي، يشهد تحسناً وتقدماً مستمرّاً؟ أم إن الأمر أشبه بخطوةٍ إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف، أو خطوتين إلى الأمام، وخطوةٍ إلى الوراء، أو حتى ثلاث خطواتٍ إلى الوراء في بعض المناطق، لا سيما أنها ركّزت على المناطق التي تشهد نزاعاً؟ طبعاً، من المعروف أن الضحايا الذين يفقدون حياتهم في الحروب غالباً ما يكونون رجالاً، ولكن المرأة تتأثر، أيضاً، تأثراً سلبيّاً هائلاً، وهذا ما يوجب الحديث عن وضع المرأة بشكل عام. ويمكنكِ أيضاً أن تنطلقي من تجربتك الشخصية.

د. ميادة كيالي:

مساء الخير، وأجدّد ترحيبي بالعزيزة الدكتورة **ماريز**، وبكل من يعمل معنا هنا في مقر مؤسسة «**مؤمنون بلا حدود**» في بيروت.

بدايةً أود أن أؤكد ما ذكرته الدكتورة **ماريز** حول تأثير الحروب

في المرأة، وأضيف أنّ المرأة ليست، فقط، من تتأثر بالحروب، بل إنَّ التاريخ يشير، أيضاً، إلى أنَّ المرأة كانت أول من استُعبد عبر العصور السحيقة خلال تلك الحروب، فبينما كان يُقتل الرجال على الجبهات ويتم التخلص أيضاً من الأسرى منهم، كانت تُؤخذ النساء والأطفال كأسرى وغنائم. وهذا هو الأساس الذي تأسست عليه تبعية المرأة وعبوديتها، لاحقاً.

لا شك أنَ التقدم الذي شهده العالم في العقود الأخيرة، خصوصاً مع انتشار وسائل التواصل الحديثة، قد ساهم في رفع وعي النساء بشكلٍ كبيرٍ، ومكّنهنّ من الاطلاع على تجارب نضاليةٍ ونجاحاتٍ لنساء في مناطق مختلفةٍ، ما عزّز من شعورهن بالقوة والقدرة على التغيير. ولم يعد الأمر يتطلب وقتاً طويلاً لنسمع قصص نساءٍ في الغرب أو مناطق أخرى. فالتواصل صار سريعاً ومباشراً، وهذا يلعب دوراً كبيراً في الدفع باتجاه تحولاتٍ إيجابيةٍ. لكن، من جهةٍ أخرى، تؤدي الحروب والصراعات في منطقتنا إلى هدم ما تحقق، بل تعيد المرأة إلى نقطة الصفر؛ إذ تتحمل أعباء الحرب المادية والمعنوية، من فقدان الأحباء، إلى التشوهات الجسدية، إلى الأيتام، إلى الانتهاكات الجسدية والنفسية في السجون والمعتقلات. لهذا السبب، لا يمكن الاكتفاء بآليات النضال التقليدية التي تركز على الحقوق السياسية والاجتماعية فحسب، بل ينبغي، أيضاً، العمل على إنشاء خلايا عملٍ متخصصةٍ، تتولى معالجة أبعاد هذه الكوارث الإنسانية وتأثيراتها العميقة في النساء.

وأودّ أن أضيف، هنا، نقطةً مهمةً قد لا تظهر بشكلٍ واضحٍ في بعض النقاشات، وهي أن تأثير النزاعات والحروب لا يقتصر على الأبعاد المباشرة فقط، بل يمتد، أيضاً، إلى إعادة ترتيب الأدوار داخل الأسرة والمجتمع، ما يفرض على المرأة أعباءً إضافيةً وأدواراً جديدةً لم تكن متوقعةً. ففي كثيرٍ من الأحيان، تصبح المرأة المعيل الوحيد، والمدافع عن العائلة، وصانعة القرار في غياب الرجال، وهذا يخلق تحدّياتٍ معقدةً، لكنها، في الوقت ذاته، تولد نوعاً من القوة والمرونة التي لم تكن تُقدر في السابق. غير أن هذه القوة تأتي، دائماً، مصحوبةً بتكاليف نفسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ كبيرةٍ تحتاج إلى دعمٍ مؤسساتيٍّ شاملٍ لا يقتصر على التشريعات فقط، بل يشمل، أيضاً، الحماية النفسية، والتعليم، والتمكين الاقتصادي، والرعاية الاجتماعية. هذه الأبعاد غالباً ما تغيب عن النقاش التقليدي، وهي، في رأيي، أساسيةٌ لإعادة بناء المرأة والمجتمع بعد الكوارث.

د. حسام الدين درويش:

الحديث عن «النساء»، أفضل من الحديث عن «المرأة» بصيغة المفرد. وعموماً، لم يصل وضع النساء حتى الآن إلى المساواة الإنسانية المنشودة، لا في المجتمع ولا في الدولة ولا في القوانين. في المقابل، حين نتحدث مع أو عن شخصياتٍ ناجحةٍ، يبدو كما لو كان في الأمر تناقضٌ. فكل واحدةٍ منكما امرأةٌ ناجحةٌ، لها حضورٌ في المجال العام، ومفكّرةٌ، وقد حصلت على الدكتوراه،

وقدّمت أبحاثاً. هل يمكن الحديث عن خصوصيةٍ سلبيةٍ (أو إيجابيةٍ) للمرأة حتى في وضعٍ مثل وضعيكما، أم إن هذه الخصوصية تزول عند فئاتٍ معينةٍ من المجتمع؟

د. ميادة كيالي:

شكراً على هذا السؤال المهم. صحيحٌ أنني والدكتورة **ماريز** ناجحتان في مجالاتنا، وهذا إنجازٌ نعتز به، لكن ينبغي التأكيد أن نجاحنا لا يعني أن الحديث عن وضع المرأة في مجتمعاتنا مبالغٌ فيه. فالنجاح بين الرجل والمرأة ليس مقارنةً عادلةً أو متكافئةً؛ لأن الظروف والعوائق التي تواجهها المرأة تفوق بكثيرٍ تلك التي يواجهها الرجل. نحن ناجحاتٌ، نعم، لكن هذا النجاح كان ثمنه باهظاً ونتاج ثقلٍ كبيرٍ في حياتنا. وأنا شخصيّاً، لكي أتمكن من الاستمرار في عملي والنجاح فيه، دفعت ثمناً مضاعفاً في حياتي العائلية، حيث كان عليّ وحدي أن أتولّى تربية أولادي ورعايتهم، وأن أتحمل المسؤولية الكاملة، من دون أن أسمح بأيّ تقصيرٍ أو فشلٍ، سواء في البيت أو في عملي. ولم يكن لديّ خيارٌ سوى النجاح؛ لأنَّ الفشل لم يكن ممكناً، لا في تربية أولادي، ولا في العمل الذي أمثله وأديره. هذه الضريبة التي دفعتها، ودفعتها غيري من النساء الناجحات، لا يراها الكثيرون، ولا تُقارن بالعقبات التي قد يواجهها الرجل في مسيرته المهنية أو الحياتية. لذلك، وعلى الرغم من نجاحنا، يبقى الواقع، بالنسبة إلى معظم النساء، معقّداً ومليئاً بالتحديات التي تتجاوز مجرد تحقيق إنجازاتٍ شخصيةٍ. وهذا

هو ما يجب أن يُفهم ويُناقش، عندما نتحدث عن وضع المرأة في مجتمعاتنا.

أما عن البيئة المحيطة، فهي بلا شك ذات تأثيرٍ كبيرٍ. فمنذ بداياتي، خلال مراحل الدراسة وحتى تخرجي مهندسةً مدنيةً، نشأت في بيئةٍ عائليةٍ متوازنةٍ، وأجدني، دائماً، أذكر ذلك باعتزازٍ. كانت عائلتي تمثل حالةً استثنائيةً في زمنٍ كان المجتمع فيه يفرض أدواراً جندريةً محددةً، ويغرس تبعية المرأة. هذه البيئة الخاصة التي نشأت فيها كانت أشبه بمصل مناعةٍ؛ إذ اكتسبت، من خلالها، قدرةً على مواجهة ومقاومة محاولات الإخضاع والتهميش التي كانت تلاحقني لاحقاً في حياتي. ومع تقدم الحياة، وانتقالي إلى مراحل مختلفةٍ، أصبح الطريق أكثر وعورةً. لا شك أن المرأة التي تسعى إلى تحقيق ذاتها، وبناء حياتها، وإثبات وجودها، تواجه، دائماً، عقباتٍ متزايدةً، خصوصاً حين تتحول إلى أمٍّ. أن تكون طالبةً شابّةً في أسرةٍ داعمةٍ، يختلف، كليّاً، عن أن تكون أمّاً تتحمل مسؤولياتٍ مضاعفةً. في مجتمعاتنا، تُحمّل المرأة، دائماً، ذنب أي تقصيرٍ في دورها، ويُعدّ تركيزها على ذاتها أنانيةً تضرّ بأطفالها. يُنتظر منها أن تضع نجاح العائلة، وتربية الأبناء وتلبية احتياجاتهم، على رأس أولوياتها، وهذا الضغط لا يُمارَس بالقوة نفسها على الرجل. فهو، على الرغم من مسؤوليته الأسرية، يستطيع مواصلة مسيرته المهنية، وتحقيق النجاح، دون أن تُطرح عليه أسئلةٌ مماثلةٌ أو يُحاسب على تقسيم وقته.

وفي هذا السياق، أكرر، دائماً، ما اختصرته **فرجينيا وولف** في جملة واحدة، عندما تحدثت عن المرأة والكتابة، قالت: «**حتى تُبدع المرأة تحتاج إلى غرفة تخصّها، ومبلغٍ من المال**». وهذا يعني ضرورة وجود استقلاليةٍ حقيقيةٍ تمكن المرأة من الجلوس والعمل على تطوير ذاتها بحريةٍ. والواقع يكشف أن المرأة، بمجرد الزواج، تبدأ في صنع المستحيل لتحقيق نجاح عائلتها وزوجها، فتضع طموحاتها جانباً. حتى لو كانت حاصلة على تحصيل علميٍّ عالٍ، غالباً ما تصل إلى حدودٍ معيّنةٍ، بينما يواصل الآخرون التقدم. وفي مرحلةٍ ما، قد تجد نفسها فقدت الخبرة والتراكم المعرفي الضروري للاستمرار، وهذا هو التحدي الحقيقي الذي تواجهه. هذه التجربة، بكل تفاصيلها، هي التي عشتها شخصيّاً. ومع ذلك، بقي إيماني قويّاً بقوة المرأة، وعقلها، وقدرتها على التفكير، وهي مساويةٌ، تماماً، للرجل في هذه الجوانب. هذا الإيمان هو ما دفعني إلى أن أتعامل مع كل مرحلةٍ من حياتي بكل ما تتطلبه من صبرٍ وتحدٍّ، ثم أنتقل إلى مرحلةٍ أخرى بحزمٍ أكبر. لكن التحدي الذي لا ينفك يتكرر هو التساؤلات المتكررة: «من أنتِ حتى تقودي مركزاً للدراسات؟ من أنتِ حتى تقودي باحثين ومفكرين؟ من أنتِ حتى تنجزي بحثاً علميّاً؟» هذه التساؤلات هي التي تثقل كاهل المرأة، بينما الرجل لا يشعر بها؛ لأنه يُعدّ أمراً طبيعيّاً أن يكون ناجحاً في الصفوف الأولى، مديراً ومالكاً للمسؤولية الكاملة. أما المرأة، فهي مضطرةٌ، دائماً، إلى إثبات ذاتها وسط هذه الضغوط والتحديات.

د. حسام الدين درويش:

الدكتورة ماريز: أنتِ في مكانةٍ، إن لم تُحسدِي عليها، فإن كثيراً من الرجال يغبطونكِ عليها، بل يحلمون بها. فهل من المعقول أن نتحدث عن وضعٍ سلبيٍّ تتعرضين له بصفتكِ أنثى؟ هل كانت هناك خصوصياتٌ ما، بحكم كونكِ أمّاً، أو زوجةً، أو ابنةً لأسرةٍ معينةٍ، أو لبيئةٍ معينةٍ؟ هذه الخصوصيات قد تكون عوائق أو عوامل مشجعةً. والآن، بعد أن وصلتِ إلى هذه المكانة التي تمضي دائماً نحو الأعلى، هل ما زالت هذه الخصوصيات تُشكّل عائقاً، أو أنها خفّت وأصبحت من الماضي؟

د. ماريز يونس:

برأيي، من المهم هنا أن نُميّز بين ما يمكن تسميته بالإنجاز الفردي، والواقع البنيوي الذي تُنتَج فيه هذه الإنجازات. نعم، قد أكون وصلتُ إلى موقعٍ يُنظر إليه من الخارج كموقع قوةٍ أو استثناءٍ، وقد يرى البعض أن هذا الوصول يُنهي التحديات، لكن الحقيقة مختلفةٌ تماماً. وما وصلتُ إليه تحقق بجهدٍ شخصيٍّ شاقٍّ وطويلٍ، عبر مسارٍ من التمكين الذاتي، لا عبر بنيةٍ تسهّل الارتقاء. وهذا التمكين، في السياق العربي، يظل استثناءً أكثر مما هو قاعدةٌ. ومن ثمَّ، لا يمكن القول إنني تخلصت من العوائق البنيوية، أو من تأثير الشروط الثقافية والاجتماعية، لمجرد أنني بلغت موقعاً معيناً. بالعكس، ما زالت البنى من حولي – السياسية منها والثقافية – تمارس مقاومةً ناعمةً أحياناً، وصلبةً أحياناً أخرى، لامتدادي كامرأةٍ فاعلةٍ في المجال العام.

لا أتحدث هنا عن الماضي، بل عن الحاضر. فحتى اليوم، أواجه تمييزاً مبطناً، ونظراتٍ تُشكّك في شرعية حضوري، وتربط بين أنوثتي وموقعي العلمي أو الإداري. كثيراً ما يُقرأ حضوري على نحوٍ يُضعف من مصداقيتي، وكأنني «أنثى ناجحة» لا «باحثة مؤثرة» أو «قائدة مؤسساتية». وعلى المستوى البنيوي، ورغم كل ما حققته من إنجازات، لا أستطيع القول إنني استطعت أن أُغيّر جوهر المنظومة أو أن أهزّ البنية الذكورية التي تحكم المؤسسة؛ لأن المسألة لا تتعلق، فقط، بذاتٍ تُحقّق، بل بمنظومةٍ تُنتج وتُعيد إنتاج أشكال السيطرة والتمييز، عبر اللغة، والسياسات، وآليات اتخاذ القرار. ولهذا، أنا أؤمن أن التمكين الفردي، مهما بلغ من النضج والفاعلية، يبقى غير كافٍ إذا لم يُواكِبه نضالٌ جماعيٌّ مُنظمٌ، يشتبك مع البنية بوعيٍ نقديٍّ، ويضغط باتجاه تفكيكها. خذ، مثلاً، هذا التفصيل الذي أراه عميق الدلالة: أنا اليوم أترأس الشبكة الدولية لدراسة المجتمعات العربية، وأقود اجتماعاتٍ دوريةً مع ممثلين لأكثر من 80 مؤسسة أكاديمية وبحثية في العالم العربي وخارجه. هذه الاجتماعات مخصصةٌ، عادةً، للقيادات العليا: رؤساء جامعات، عمداء، مدراء مراكز أبحاث. ومع ذلك، في كلّ مرةٍ، لا تتجاوز نسبة النساء الحاضرات 10%. فقط 10%. أما الباقون، فهم رجالٌ.

وقد أجد نفسي، مراراً، المرأة الوحيدة على طاولة القرار، تحيط بي أسماءٌ ثقيلةٌ في مواقعها، لكنها جميعاً ذكوريةٌ. هذا ليس

تفصيلاً، بل مؤشّرٌ هيكليٌّ يُظهر أن النساء، رغم التقدم في الحضور، لم يبلغن بعد موقع القرار. هناك «سقفٌ زجاجيٌّ» غير مرئيٍّ، لكنه صلبٌ، يُبقي المرأة في موقع التنفيذ، أو في الهامش، ويمنعها من التمركز الحقيقي في فضاء القيادة. وما يزيد الأمر تعقيداً أن القيادة، في مخيال المؤسسات العربية، لا تزال ترتبط بصفاتٍ «رجوليةٍ»: الحزم، السيطرة، الحسم، الهيمنة. في حين يُطلب من المرأة في موقع القيادة أن تُثبت، دائماً، أنها «لا تتصرف كامرأةٍ»، أو أنها تتجاوز «أنوثتها»، لتثبت جدارتها. وكأن المرأة إذا قادت بأسلوبٍ حازمٍ، اتُّهمت بأنها فقدت أنوثتها، وإن قادت بلغةٍ تشاركيةٍ أو وجدانيةٍ، شُكِّك في قدرتها على القيادة. وهذا، برأيي، شرطٌ بنيويٌّ مُعجِزٌ؛ لأنه يُبقي المرأة محاصَرةً بين صورتين: إما أنها «غير مناسبة» للقيادة؛ لأنها «أنثى»، أو تتهم بالذكورة؛ أي إنها «تحوّلت إلى رجل»؛ لأنها تتقن القيادة. وهذا ما يُفرغ النساء من شرعيتهن كامرأة- قائدة، ويجعل كل تجربةٍ قياديةٍ نسويةٍ محفوفةً بالدفاع المستمر، لا فقط عن الفكرة أو المؤسسة، بل عن شرعية الحضور نفسه، أيضاً.

د. حسام الدين درويش:

أصوغ السؤال بطريقةٍ أخرى: إلى أيّ حدٍّ يمكن لنجاح امرأةٍ ما - ونحن هنا نتحدث عن نموذجين ناجحين - أن يُسهم في نجاح أخرياتٍ؟ أي هل يمكن لهذا النجاح أن يفتح المجال، ويمنح الإمكانية، ويقدّم إثباتاً على قدرة المرأة، ويشجّع أخريات على

التقدم؟ أم إنه، من جهةٍ أخرى، يبقى إشارةً خاطئةً أو «علامةً كاذبةً»؟ فمثلا نجاح رئيسٍ أمريكيٍّ أسود لا يعني أن وضع السود في أمريكا أصبح جيّداً، بل قد يعطي انطباعاً زائفاً عن وضعهم. فهل يمكننا القول، هنا أيضاً، إن نجاح امرأةٍ ما قد يكون بمنزلة استثناءٍ يؤكد القاعدة، ولا ينفيها؟ أي بدلاً من أن يُثبت أن المجال أصبح مفتوحاً للنساء، يبيِّن أن النظام لا يزال ذكوريّاً، وأن النجاح الفردي لا يعبّر عن القاعدة. فإلى أي حدٍّ، تشعرين أنتِ - دكتورة ماريز - أن نجاحك كامرأةٍ أسهم في تشجيع وتحفيز أخريات، ويعبر عن واقع النساء، أم إن الأمر لا يعدو كونه استثناءً لا يعكس الواقع عموماً؟

د. ماريز يونس:

نعم، النماذج النسائية الناجحة تلعب دوراً مهمّاً وحيوياً في تحفيز النساء الأخريات، وتُسهم في كسر الصور النمطية حول ما يمكن أن تكونه المرأة. هذا لا يعني، طبعاً، أن نجاح امرأةٍ واحدةٍ يعني أن النظام تغيّر، أو أن الطريق أصبح مفتوحاً. لكن هذا النجاح الفردي يمكن أن يكون نافذةً تُطلّ منها أخريات على إمكانياتٍ كانت تبدو مغلقةً أو بعيدةً. وأنا، شخصيّاً، أؤمن كثيراً بهذا الأثر. ليس، فقط، لأنني أؤدي دوراً أكاديميّاً في الحقل العلمي، بل، أيضاً، لأنني قررت، منذ البداية، ألا أحصر نفسي داخل الجماعة العلمية الضيقة. اخترقت هذا الإطار، وذهبت نحو الفضاء العام؛ لأنني مقتنعةٌ أن قضية المرأة - وغيرها من القضايا الإنسانية - لا

يمكن أن تُغيَّر من داخل المقالات المحكمة أو المؤتمرات النخبوية فقط، بل تحتاج، أيضاً، إلى خطابٍ حيٍّ، يتوجّه إلى النساء والرجال في مجتمعاتنا، ويطرح الأسئلة الكبرى أمام جمهورٍ عامٍّ.

أعرف أن البعض لا يرى فائدةً في مخاطبة الجمهور العام، ويرى أن المعرفة يجب أن تبقى في فضائها «التخصصي». أما أنا، فأؤمن أن المعرفة الحقيقية هي التي تُنتج أثراً، والتي تُحرّك وعياً خارج القاعات الأكاديمية. ولهذا، حاولت، دائماً، أن أجمع بين المسارين: المسار الأكاديمي والمعرفي، والمسار النضالي الحيّ، الذي يخاطب الواقع، ويتفاعل معه. وهناك أمثلةٌ عديدةٌ عمليةٌ نذكر أهمها:

على المستوى الإعلامي: أطلقت برنامجاً تلفزيونيّاً بعنوان «لأني أنثى»، حاولت، من خلاله، تبسيط المعرفة حول النوع الاجتماعي، وتحويلها إلى قصصٍ تعكس يوميات النساء وقضاياهن المعيشة. وشكل هذا المنبر صوت النساء الذي يجمع بين مختصين في قضايا النوع الاجتماعي والعلوم الإنسانية والاجتماعية من جهةٍ، وناشطاتٍ وناشطين في الفضاء العام، بهدف تحليل تلك القصص، ومناقشتها، من قبل كل الفاعلات والفاعلين في هذا المجال.

على المستوى الجامعي: ألاحظ تأثيري المباشر في طالباتي وطلابي. بعضهم التحق، فعلاً، بشبكة دراسات المرأة. وبعض طالباتي أصبحن باحثاتٍ ومناضلاتٍ في مساراتهن، وانخرطن في المبادرات النسوية، أو قدن مشاريع مجتمعيةً نابعةً من قضاياهن.

أما على مستوى بناء النماذج: نحن لا نطرح أنفسنا، فقط، كنماذج فرديةٍ ناجحةٍ، بل نحاول أن نُنتج نموذجاً جماعيّاً يشمل الباحثات، والمناضلات، وأن نخلق منصاتٍ ومساحاتٍ تُسهم في نقل المعرفة وتثمينها وتداولها. لهذا، أعتقد أن النموذج النسائي الناجح يمكنه أن يكون أداةً لتغيير الوعي، إذا لم يُستثمر كعلامةٍ استثنائيةٍ للتغطية على الواقع، بل كمدخل لفتح نقاشٍ أوسع حول التمكين، والمشاركة، والعدالة الجندرية.

في المقابل، نعم، هناك خطر أن يتحوّل هذا النموذج إلى «إشارةٍ كاذبةٍ»، تماماً كما حدث في مثال انتخاب رئيسٍ أسود في أمريكا. فنجاح امرأة واحدة، أو عشر، لا يعني أن النظام أصبح عادلاً. فالمشكلة ليست في وجود نساءٍ ناجحاتٍ، بل في سقف النظام الذي يحدد من يمكنه أن ينجح، وأين، وكيف. ولهذا، لا بد أن يكون كل نجاحٍ فرديٍّ رافعةً جماعيةً، لا وسيلةً لإخفاء عمق التفاوت. والتحدي الأكبر، في رأيي، هو أن نحمي هذا النجاح من التوظيف الرمزي، وأن نُبقيه مرتبطاً بنضالٍ طويل النفس، يسعى إلى تغيير البنية، لا فقط لصناعة الرموز.

د. حسام الدين درويش:

لا أعلم إن كنت سأفشي سرّاً، لكن هو في الحقيقة ليس سراً. هناك مشروعٌ لديكِ، د. ماريز، لإبراز نماذج نسائيةٍ، وتقديمها وتقديرها. وهذا المشروع، بحد ذاته، إجابةٌ مسبقةٌ: وجود هذه النماذج، وإبرازها، يُمكن أن يكون له دورٌ إيجابيٌّ وتشجيعيٌّ.

د. ميادة، أذكر أنك، منذ تأسيس «مؤمنون بلا حدود»، قلت إنّ مجرّد وجودي، كامرأةٍ ناجحةٍ في هذه الصيغة، شكّل دافعاً مشجعاً للآخرين والأخريات للانضمام إلى المؤسسة، ورأوا فيها مساحةً منفتحةً ومتعددةً. ومن ثمَّ، من تجربتك، ومن هذه الواقعة، يمكن القول إن نجاح المرأة أو حضورها في المجال العام يمكن أن يكون دافعاً ومشجعاً لنساءٍ (ورجال)، للمشاركة والانخراط في هذا الفضاء، ولتفهّمٍ أوسع لوضع المرأة، وتفكيك العقبات التي تقف أمامها، أليس كذلك؟

د. ميادة كيالي:

بلا شك، من المهم جدّاً أن نحول نضالنا إلى نموذج يُحتذى به، يستمدّ منه الآخرون قوته ودافعه. هذا النموذج يتجسد في أدوارٍ متنوعةٍ: كمدرّسةٍ، قائدةٍ، مؤسسة مركز دراساتٍ، باحثةٍ، طبيبةٍ ...إلخ. كلها نماذج تلهم وتفتح آفاقاً جديدةً. وبالنسبة إلي، حين أسست مركز الدراسات في الإمارات، قبل سنواتٍ من تأسيس «**مؤمنون بلا حدود**»، كان همّي الأساسي بناء شبكة تواصلٍ بين الباحثين والمفكرين في الوطن العربي. ولاحقاً، حين بدأت فكرة «**مؤمنون بلا حدود**» تتبلور، حاولنا طرح تصوراتنا عن المشروع من خلال المشاركة في أنشطةٍ ثقافيةٍ في دولٍ عربيةٍ عديدةٍ، مثل لبنان، وتونس، والمغرب، ومصر، حيث التقينا شريحةً واسعةً من المفكرين، وأعربنا عن رغبتنا في تأسيس فضاءٍ فكريٍّ مفتوحٍ ومتعددٍ. وكان من العوامل الإيجابية التي ساهمت في قبول الكثيرين

الانضمام إلى المشروع، وجودي كامرأةٍ في الفريق. قال كثيرٌ منهم إن وجود «**ميادة**» أعطاهم انطباعاً بالانفتاح والتعددية، وكان ذلك سبباً في خوضهم التجربة. لاحقاً، وبعد انطلاقة المؤسسة، بدا واضحاً اهتمامنا بقضايا الدين، وهي، من دون أدنى شكٍّ، كانت القضايا الأكثر اشتباكاً مع قضايا المرأة، وفتحت النقاش حول أوضاعها في مجتمعاتنا المختلفة. وكان هذا الاشتغال غير المباشر لصالح المرأة، حيث قدمت المؤسسة، ولا تزال، فرصةً بارزةً للمفكرات والباحثات المتميزات اللاتي أسهمن بشكلٍ جادٍّ في الإنتاج البحثي على مستوياتٍ متعددةٍ: فلسفة، دراسات قرآنية، الإسلام السياسي، السياسة، السوسيولوجيا، وغيرها. حتى على مستوى الجهاز الإداري، كان حضور المرأة واضحاً، وكذلك في الأقسام البحثية والأكاديمية، مما عكس حرصنا على تمكين المرأة في كل المستويات.

د. حسام الدين درويش:

دكتورة ميادة، أعرف أنك، أسهمتِ، حتى على الصعيد الشخصي والعائلي، بحضورك ونجاحك وعلاقاتك، في نجاح أفراد من أسرتك (الكبيرة)، حيث كنت عاملاً محفزاً وداعمةً لأخريات في السلوك، في النجاح، في المسار العائلي والمهني والحياتي. فالتأثير لا يكون فقط في المجال العام، بل حتى في الأشخاص القريبين منا. أنا، شخصيّاً، أعرف كيف يمكن أن نتأثر بالأشخاص القريبين منا ونؤثر فيهم.

د. ميادة كيالي:

نعم، بالتأكيد، لم يكن تأثير نجاحي محصوراً في المجال العام، فقط، بل كان له، أيضاً، حضورٌ قويٌّ وملموس على مستوى العائلة والأشخاص المقربين. من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، والظهور في الندوات واللقاءات، وحتى عبر قناتي على اليوتيوب، توسعت دائرة هذا التأثير بشكل كبيرٍ ومتنوعٍ. وأرى في كلّ صبايا العائلة نموذجاً رائعاً؛ فالكثير منهن، بعد الزواج والإنجاب، عُدن إلى استكمال دراستهن أو اتخذن مساراتٍ مهنيةً جديدةً، وأصبحن يردّدن لي بأنهن يردن أن يصبحن مثل خالتهن أو عمتهن. هذا الشعور لا يمنحني السرور والفخر فقط، بل يضع، أيضاً، على عاتقي مسؤوليةً كبيرةً وواجباً عميقاً. فالرحلة التي نخوضها، نحن النساء، ليست سهلةً، وكل منا يمر بأوقاتٍ يشعر فيها بالإرهاق والتعب، خاصة في مسيرة نضالٍ مستمرةٍ بلا هوادةٍ. لكن تذكُّر هؤلاء الصبايا اللواتي يؤمنّ بقوتي وصلابتي يجعلني أتراجع وأقول لنفسي: هذه مسؤوليةٌ عظيمةٌ جدّاً.

أتذكر موقفاً قال لي فيه طبيب العائلة: «على الرغم من أن الجميع يلجأ اليوم إلى الأدوية المهدئة في المحطات الصعبة والاستحقاقات الكبرى، أنتِ لا يمكن أن نراك تفعلين ذلك، أنتِ تقاومين، ولا تسمحين لنفسك بالاستسلام أو الانسحاب مهما كانت الظروف». كان هذا الفهم والتحليل دقيقاً جدّاً لشخصيتي. لطالما قلت في نفسي: كيف لي أن أطلب من أخريات أن يكنّ

قويات ويصمدن، وأنا في لحظة ضعفٍ أسمح لنفسي بالهدوء أو الانسحاب، وأقول: تعبت؟ لا، هذا غير مقبولٍ. يجب أن أكون قدوة في الثبات والقوة، ليس من أجل نفسي فقط، بل، أيضاً، لأن وجودي يؤثر ويتحرك في حياة كثيرات حولي، وأشعر أنني مسؤولة عن نقل هذه القوة والعزيمة إليهن.

د. حسام الدين درويش:

دكتورة ماريز، أنتِ، بوصفك امرأةً وإنسانةً وشخصيةً عامةً، ولديك خبرةٌ، وربما معاناةٌ، في هذه المسائل، أسّستِ الشبكة الدولية لدراسة المجتمعات العربية، وحين نظمت الشبكة، بالتعاون مع منتدى تفاكر للحوار والثقافة، ثلاث ندواتٍ عن سوريا، قلتِ فوراً: يجب أن نقيم ندوةً عن المرأة، ضمن السلسلة. في رأيك، إلى أي حدٍّ العمل المؤسساتي مهمٌّ؟ فجهود الأفراد أو وجود نماذج قد لا تكون مؤثرةً (بالدرجة الكافية). وأنتِ، كذلك، لديك دراساتٌ وأبحاثٌ ومشاركاتٌ، وبرنامج «لأني أنثى». يمكنك أن تتحدثي عن الجانبين، سواء تعلق الأمر بالمرأة كموضوع للبحث، بغرض فهم وضعها، أو بأهمية العمل المؤسساتي في هذا الخصوص.

د. ماريز يونس:

أعتقد أن تناول قضايا النساء لها خصوصيةٌ معينةٌ، (بوصفها قضيةً ما زالت ساخنةً). ومن ثم، لا يمكن للمعرفة أن تبقى هدفاً في ذاتها، ولا يمكن للنضال أن يصمد من دون أرضيةٍ معرفيةٍ

وسياقٍ مؤسساتيٍّ يعزز تماسكه. ولهذا كان تأسيس شبكة دراسات المرأة خياراً استراتيجياً بالنسبة إليّ، ليس، فقط، كمنصةٍ علميةٍ، بل كفضاءٍ يُعيد تعريف العلاقة بين الفكر والممارسة، بين النظرية والواقع، بين الأكاديمي والنضالي. وما حاولنا فعله، في الشبكة، هو بناء منصةٍ تتجاوز الفصل التقليدي بين الحقول: أن تكون مرجعيةً علميةً رصينةً، لكنها، في الوقت ذاته، منفتحةٌ على الحركة الاجتماعية النسوية، وقادرةٌ على احتضان التعدد المرجعي والفكري، حتى داخل الحقل النسوي نفسه. وهذا، بالضبط، ما يُميّز هذه الشبكة عن المؤسسة الأم؛ أي الشبكة الدولية لدراسة المجتمعات العربية (إيناس)، التي تضم مؤسساتٍ ومراكز بحثيةً متخصصةً حصرياً، بينما نحن اخترنا أن نفتح المجال أمام تفاعل المعرفي بالنضالي، فحاولنا جمع المؤسسات العلمية ومراكز البحث مع المؤسسات والجمعيات النضالية ومنظمات المجتمع المدني على منصةٍ واحدةٍ.

وقد تجلّى هذا الخيار في إطلاق برامج نوعيةٍ، مثل «أطروحات جندرية» الذي كان بمنزلة جسر تداولٍ بين المؤسسات الأكاديمية من جهةٍ، والحركات النسوية والمجتمع المدني من جهةٍ أخرى. نحن بحاجةٍ إلى هذا الجسر؛ لأن المعرفة النسوية في العالم العربي تعاني من غياب منصات تثمينٍ وتأريخٍ. كثيرٌ من الأصوات النسائية، مهما بلغت قيمتها الفكرية، تُطوى أو تُهمّش؛ لأنها لا تجد من يحتضنها ويُراكمها في إطارٍ مؤسسيٍّ واضحٍ. في المقابل، نجد آلافاً

من منظمات المجتمع المدني التي تعمل على قضايا النساء، لكنها، في الغالب، لا تُنتج معرفةً مُمنهجةً أو لا تمتلك الأدوات والمنصات التي تُمكّنها من التراكم العلمي. وهنا يأتي دور العمل المؤسساتي، كأداة تنظيمٍ، وكحاضنةٍ لرأس مالٍ رمزيٍّ وثقافيٍّ يُعطي هذه المعارف مكانتها وشرعيتها. فالمعرفة، حين لا تُؤرّخ وتُصنّف وتُكرّس في مؤسساتٍ، تظل متفرقةَ، وغير مرئيةٍ، وغير معترفٍ بها، حتى ضمن الحقل العلمي ذاته. ومن هنا أقول: نعم، الجهد الفردي مهمٌّ، لكن من دون مظلةٍ مؤسساتيةٍ، يظل هذا الجهد عرضةً للتآكل، ولا يُحدث أثراً بنيوياً. قضايا النساء لا تُختزل في نموذجٍ ناجحٍ، ولا تُختزل في لحظة نضالٍ، بل تحتاج إلى بُنىٍ مؤسساتيةٍ نسويةٍ فكريةٍ تُراكم، وتُنقّح، وتُفعّل، بما يجعل من النضال النسوي مشروعاً معرفيّاً دائماً، لا مجرد رد فعلٍ عاطفيٍّ أو ظرفيٍّ.

د. حسام الدين درويش:

لتسليط الضوء على المعرفة أو الأبحاث أو النصوص التي كتبتِها في هذا الموضوع؛ أي موضوع المرأة، أو المسألة النسوية، هل اقتصر الأمر على تأسيس الشبكة، أم كانت هناك محاولةٌ لتنظيم ندواتٍ أو تعاونٍ من أجل إنتاج معرفةٍ؟ وهذا ما سمّيناه النسوية الأكاديمية؛ أي إنتاج معرفةٍ رصينةٍ، لا تكتفي بكونها مسألةً نضاليةً، بل تحاول تقديم قراءةٍ معرفيةٍ رصينةٍ وموضوعيةٍ لهذه المسألة.

د. ماريز يونس:

أول دراسةٍ أنجزتها كانت حول «هجرة النساء الكفؤات إلى الخليج العربي»، وصدرَت عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. كانت هذه الدراسة لحظةً تأسيسيةً، لم أتناول فيها الهجرة كحركةٍ اقتصاديةٍ أو ديموغرافيةٍ فحسب، بل قرأتها، أيضاً، كـــفعلٍ اجتماعيٍّ مقاومٍ، يعيد رسم خريطة تموضع النساء في شبكات السلطة والمعرفة. المرأة، تاريخياً، كانت هجرتها تابعةً: مرافقةً لزوجٍ، أو تحت رعاية أسرةٍ. لكن في هذه العينة - نساء أكاديميات لبنانيات هاجرن إلى الإمارات، سلطنة عمان، السعودية، والبحرين - رأيت مشهداً مغايراً تماماً: نساء يخترن المغادرة بقرارٍ فرديٍّ، يستقللن مادياً ورمزيّاً، ويخضن معركة التحقق الذاتي خارج سياقات السيطرة التقليدية. وقد كشفت المقابلات عن مفارقاتٍ عميقةٍ: فالمرأة التي وجدت صعوبةً في الترقّي داخل النظام الطائفي اللبناني، استطاعت، في بيئةٍ خليجيةٍ منضبطةٍ ثقافياً، لكنها عقلانيةٌ إداريّاً، أن تصعد بناءً على كفاءتها. واللافت أن بعض المؤسسات الخليجية أتاحت لهؤلاء النساء فرصاً مهنيةً كان من المستحيل أن يحصلن عليها في بلدهن الأم، حيث التقدّم غالباً ما يكون رهينة العلاقات الزبائنية والانتماء الطائفي.

هنا ظهر لي مفهوم «العبور الرمزي للمركز»: أي إن المرأة التي هاجرت، لم تهرب، بل أعادت تعريف ذاتها خارج المنظومة التي كانت تحاصرها، ونجحت في بناء رأس مالٍ رمزيٍّ جديدٍ منحها

مكانةً وشرعيةً. النجاح لم يكن، فقط، في الترقّي المهني، بل في تجاوز عقدٍ اجتماعيٍّ يُقيد النساء من الداخل. وبالطبع، لم يكن هذا العبور سهلاً. فالنساء واجهن في دول الخليج أسئلةً نمطيةً، مثل: «هل أنتن من المنطقة الفلانية في لبنان؟» - وهي إشارةٌ إلى وصمةٍ جندريةٍ تلاحق اللبنانيات، وترهن حضورهن بصورٍ مسبقةٍ. وكان على هؤلاء النساء أن يُعِدن التفاوض مع هذه الصورة، وأن يُبرزن ثقافتهن المحافظة، واحترافيتهن، في الوقت نفسه.

كل هذا يعني أن المعرفة النسوية لا تُنتَج من فراغٍ. إنها نتاج تأملٍ في الواقع، وتحليلٍ دقيقٍ للتحوّلات البنيوية التي تطرأ على حياة النساء في ظروفٍ متغيرةٍ. ولهذا، فإن التجربة النسوية الحقيقية، كما أراها، هي تلك التي تُترجم في دراساتٍ معمّقةٍ، تُنتج قراءةً جندريةً للمجتمع والسياسة والثقافة، دون الوقوع في خطاب الضحية أو خطاب الهوية المغلقة.

د. حسام الدين درويش:

ثمة تعليقان سريعان، حول هذه المسألة:

أولاً، مسألة الاستشهاد بالتاريخ، لإثبات عدم كفاءة النساء في هذا الجانب أو ذاك. ففي لقاء مع بوبي فيشر، الذي يعتقد بعض الناس أنه أفضل لاعب شطرنجٍ في التاريخ، كان فيشر يقول، ببراءةٍ وسذاجةٍ، وهو يضحك ويبتسم، إن النساء لا يصلحن للعب الشطرنج. قالوا له: «لماذا؟»، قال: «حتى الآن، لم تربح أي امرأةٍ مباراةً ضد أي رجل». بالنسبة إليه، كان هذا دليلاً. سألوه: «هل

أنت مستعدٌ أن تلعب ضدهن؟» قال: «لا مشكلة لدي، لكن أظن أنهن لا يرغبن في اللعب ضدي». وبالفعل، كل من لعبت ضده سابقاً خَسِرت. وعندما قيل له: «هل أنت misogynist؟» كارهٌ للنساء؟ لم يفهم الكلمة، فسألهم: «ماذا تعني هذه الكلمة؟» قالوا له: «أي إنك تكره النساء». قال: «لا، مطلقاً، لكن هذا هو رأيي، أن المرأة مكانها في البيت. وأما الأمور الفكرية، فليست من شأنها». بعد هذا اللقاء، جرى توثيق حالاتٍ لنساء لعبن الشطرنج مع أبطال العالم وربحن؛ أي إن عدم حصول ذلك سابقاً لم يكن نتيجة قصور في المرأة، بل نتيجة ظروفٍ منعت ذلك. وعندما تتغير هذه الظروف، يمكن أن تظهر نتائج مختلفةٌ.

ثانياً، دكتورة ماريز، أنت لم تذكري اسم المنطقة المرتبطة بالوصمة الجندرية المذكورة. وأذكر، هنا، أن الفيلسوف الدنماركي كيركيغورد، الذي كان ضد المذهبية في الفلسفة؛ أي أن يكون للفيلسوف مذهبٌ فلسفيٌّ شموليٌّ، قد ثار على مذهب هيجل؛ لأنه اعتقد أن هذا المذهب يدّعي أنه يعرف كل الحقائق، فقال كيركيغورد ساخراً: «أنا لديّ سرٌّ في حياتي لا يعرفه أحد، لا (مذهب) هيجل ولا غيره»، وقد انشغل باحثون كثر، لاحقاً، بالبحث عن هذا السر، وزعم كثيرون منهم أنهم عرفوا السر الذي لم يعد سرّاً. وأخشى أن ينشغل المتابعون لهذا الحوار بمحاولة معرفة أو تخمين اسم تلك المنطقة، ويكون ذلك على حساب متابعتهم لهذا الحوار أو الموضوع.

فلنبقَ في الموضوع نفسه؛ دكتورة ميادة، أولاً: إلى جانب كونك ناشطةً في العمل المؤسساتي، من خلال مؤسسة «سراج» ومؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، والتي سنتحدث عنها لاحقاً، فإن لك أيضاً عملاً، دعيني أسمّيه فرديّاً، هو كونك باحثةً. ولديك كتاباتٌ إبداعيةٌ، لكن قبلها لديك «المرأة والألوهة المؤنثة في حضارة وادي الرافدين»، و«هندسة الهيمنة على النساء: الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة». إذن، أنت اشتغلتِ أكاديميّاً وبحثيّاً ومعرفيّاً في موضوع المرأة. لماذا اخترتِ هذه المواضيع؟ لماذا اخترتِ دراسة المرأة، ولا سيما التاريخ القديم؟ ما مدى أهمية العودة إلى التاريخ في فهم وضع المرأة الحالي؟

د. ميادة كيالي:

كنت دائماً أشعر، كامرأةٍ، أنني إنسانٌ مكتملٌ، تماماً، كأيٍّ من إخوتي الشباب، بل ربما أكثر استقلاليةً. لم أشعر بفارقٍ في المقدرة بيني وبين أيّ زميلٍ درس معي في كلية الهندسة، أو أي شابٍ عمل معي، إلا بالاجتهاد والمواهب. كنت أشعر بقوةٍ كامرأةٍ وكإنسانة. وعشتُ مثالاً حيّاً في والدتي، التي ربّت عائلةً كاملةً، وعملت بقوةٍ وصمودٍ، وساندت والدي في مرضه، حتى أطلقوا عليها لقب «المرأة الحديدية». كانت رغبتي، في البداية، هي استكمال حلمٍ غائبٍ، رغبت فيه، وحلمت به، والدتي، وهو أن تراني أحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة، وأكون معيدةً في الجامعة. كان هذا حلمها. كانت تمتلك نظرةً ثاقبةً، وتثق بي كما

تثق بنفسها. لم أحقق لها ذلك، بسبب تفرغي للأمومة، وهذا يعيدنا إلى بداية الحوار، حين قلت إن المرأة ونجاحها وطموحاتها تبقى مرتبطةَ بمسارٍ موازٍ، هو مسار الأمومة، هذا المسار أبعدني عن الهندسة، وألغاها من حياتي المهنية، وإن بقي تأثيرها فاعلاً في قراراتي.

من خلال عملي في إدارة المجال البحثي في مؤسسةٍ أسستها لبنة لبنة، تكونت لدي رغبةٌ عميقةٌ في مواصلة البحث في مجال العلوم الإنسانية. واخترتُ دراسةً تجمع بين عناصر ثلاثةٍ؛ العمل، الأولاد، الطموح والحلم. فكان اختياري لدراسة تاريخ الحضارات القديمة. وعند الإعداد لبحثٍ تمهيديٍّ لرسالة الماجستير، اكتشفت مساري اللاحق؛ فقد كان البحث عن مكانة المرأة في الحضارة السومرية، وهناك اكتشفت كنزاً حقيقيّاً. كانت تلك المرأة تلعب كل الأدوار ببراعةٍ؛ كانت الحاكمة والشاعرة «شكسبير العالم القديم»، التي كانت أول من يوقع أشعاره في التاريخ، وكانت الكاتبة، ومسؤولة أموال القصور، والقاضية، وصاحبة العمل والتجارة، والمال، والأملاك.

كل تلك الروايات التي عثرت عليها، تدلّ بوضوحٍ على أنَّ المرأة في التاريخ القديم كانت تحتلّ مكانةً عاليةً ومرموقةً، ولم تكن تقل مطلقاً عن مكانة الرجل اليوم. لم تكن تشبه مكانتها في عصرنا الحديث، في المجتمعات عموماً التي لا تزال مجتمعاتٍ أبويةً، وإن تفاوتت نسبتها، ولا أتحدث عن مجتمعاتنا العربية

فحسب، بل حتى الغربية منها لازالت هيمنة النظام الأبوي فيها قائمةً. وحين عايشت مكانة المرأة السومرية من خلال ذلك البحث، واكتشفت تاريخاً مختلفاً لها، شعرت بسعادةٍ كبيرةٍ، وكأن الموضوع جاءني من تلقاء نفسه، فقررت أن أواصل فيه. اكتشفت أننا نعاني ليس فقط من جهل بأنفسنا، بل أيضاً من جهلٍ بتاريخنا. نحن بحاجةٍ إلى إعادة قراءة التاريخ وتأويله من جديدٍ؛ لأن هناك مصادر كثيرةً للتاريخ، خاصة بعد الاكتشافات الأثرية التي ساهمت كثيراً في تغييره. مثالٌ على ذلك، اكتشاف الكتابة السومرية عام 1872، فحين نقارن التنظيرات قبل هذا التاريخ مع تلك التي بعده، نجد تغيراً جذريّاً؛ فعند فك شيفرة الكتابة المسمارية، ظهرت نصوصٌ تتحدث عن الملكات، وتمت ترجمة الأشعار والأساطير التي تتناول الإلهات. تم اكتشاف وجود مجتمعاتٍ مطريركيةٍ أو أموميةٍ كانت المرأة فيها هي الزعيمة، سواء على المستوى الأسطوري أو الواقعي. فكلّ الدراسات أثبتت وجود ارتباطٍ وثيقٍ بين الجنس الحاكم على الأرض والجنس المتخيَّل للإله.

هناك حقائق مشرقةٌ في التاريخ علينا أن نعمل على استعادتها؛ لأن التاريخ، كما نعلم، يُكتب غالباً من قبل المنتصرين. وكان الرجال يرون تاريخ المرأة هامشيّاً وغير جديرٍ بالذكر، أو مقتنعين بأنهم الأصل وبداية الكون، وأن القضية تخصهم وحدهم. وهذا انعكاسٌ واضحٌ للمجتمع البطريركي الأبوي الذي نعيش فيه. ومن الباحثات اللاتي أكدن هذا المعنى، الباحثة الأمريكية **غيردا ليرنر**،

التي كانت السبب في إنشاء كرسي دراسات تاريخ النساء في الجامعات الغربية، بعد عملها لعشرات السنين على حضارات وادي الرافدين. وقد أكدت أن ما ينقصنا ليس المصادر التاريخية التي هي كثيرةٌ، بل الحاجة إلى إعادة دراستها وتأويلها. وهذا بالذات ما حاولتُ القيام به في بحثي؛ إعادة التأويل، وتحليل المعطيات وتجميعها بطريقةٍ جديدةٍ. كان هذا المشروع، بالنسبة إليّ، تعبيراً عن فكري ورغبتي في البحث عن جذور القوة في التاريخ، فوجدتها، وقلت: لماذا لا نستعيد هذه الجذور ونكمل فيها؟ «التاريخ ليس، فقط، ما يُروى، بل، أيضاً، ما نستطيع أن نعيد اكتشافه لنُعيد كتابة قصتنا؛ لأن معرفة جذور قوتنا في الماضي مفتاح تمكيننا في الحاضر».

د. حسام الدين درويش:

مثيرٌ ومهمٌّ، دائماً، هذا الربط بين الشخصي والعام. أعرف أن اهتمامك بالموضوع ما زال مستمراً. وثمة بحثٌ تشتغلين عليه، حاليّاً، وهو عن «وارثات فاطمة المرنيسي»، بمناسبة الدعوة التي تلقيتِها للمشاركة في المعرض الدولي للنشر والكتاب المنظم في الرباط 2025. وللأسف، لم تتمكني من تلبية الدعوة، لكن كان هناك وعدٌ بالاستمرار في كتابة البحث. وعلى الرغم من كونكِ باحثةً وكاتبةً، فإنك لم تسيري في هذا المجال بالقدر الذي كنتِ ترغبين فيه، بسبب عملك الإداري. فإلى أي مدى ترين أن عملك الإداري حال دون المضي أكثر في المجال البحثي؟

د. ميادة كيالي:

كانت فرصةً مهمةً، حين دُعيت إلى المشاركة في تلك الندوة ضمن فعاليات معرض الرباط الدولي للكتاب للعام 2025، وكما تعلم، كانت تحت عنوان «**وارثات سرّ فاطمة المرنيسي**». وقد لفت انتباهي هذا العنوان كثيراً، كما أشرتُ في مقابلةٍ سابقةٍ، حيث أعجبتني دقة اختيارهم كلمة «وارثات» بدلاً من «وريثات». فالوريثة هي مفعولٌ لها، تستلم ميراثاً قد يكون وصلها بالصدفة أو الحظ. أما الوارثة، فهي فاعلةٌ، تجتهد في حمل هذا الإرث، وتتحمل همّ السؤال، وتواصل المسيرة بروح التحدي والمسؤولية.

لا أجرؤ على مقارنة إنتاجي الفكري بما قدمته **فاطمة المرنيسي**، فهي منارةٌ فكريةٌ، بحد ذاتها، لكنني أشعر بعمق الانتماء إلى هذا الإرث، وبأنني، بطريقةٍ أو بأخرى، أساهم في إخراجه إلى النور. هذا الإنتاج المعرفي الذي أشرف عليه الآن، وأسهر على نشره، هو امتدادٌ لمنهجٍ فكريٍّ أصيلٍ، يجعلني وارثةً حقيقيةً لهذا السر العظيم، وهو، في الوقت نفسه، دافعٌ دائمٌ للاستمرار في البحث والكتابة في قضايا المرأة وقضايا التجديد الفكري.

لا شك أنني واجهت تحدياتٍ كبيرةً في الموازنة بين المسار الأكاديمي والعمل الإداري؛ إذ إن إدارة دار النشر ومتابعة تفاصيل كل إصدارٍ يسرقان منّي كثيراً من وقت البحث والدراسة. مع ذلك، أتمسك بإرادةٍ وعزيمةٍ قويةٍ لأواصل المسيرة، وآمل أن أقدم المزيد

من الإنتاج البحثي قريباً. وهذا يعيدنا، دوماً، إلى النقطة الأساسية التي طرحتها سابقاً، بأنَّ نجاح المرأة في تحقيق تراكمٍ معرفيٍّ مستدامٍ مرتبطٌ بقدرتها على حمل أكثر من مسؤوليةٍ في آنٍ واحدٍ، وأنَّ هذه المسؤوليات المتعددة ليست عبئاً فقط، بل هي، أيضاً، مصدر قوةٍ وإبداعٍ.

د. حسام الدين درويش:

قبل أن أنتقل إلى مسألة التمييز بين النسويات التي تحدثنا عنها، مثل النسوية المعرفية، النسوية النضالية، النسوية الأكاديمية، وغيرها؛ في سيرتك الذاتية، تذكرين أنكِ ساهمتِ من خلال مؤسسة «مؤمنون بلا حدود». في إصدار مئات الكتب والإصدارات، وهي، بحد ذاتها، مسألةٌ عظيمةٌ. إلى أي مدى كان هذا الهم النسوي، أو الموضوع النسوي، حاضراً في عملك في «مؤمنون بلا حدود»، سواءٌ من الناحية الإدارية أو الفكرية؟

د. ميادة كيالي:

شكراً دكتور **حسام**، أعود لأؤكد، كما أشارت د .**ماريز**، أهمية البناء المعرفي لقضايا المرأة، وليس الاقتصار على النضال الميداني فقط. وبالنسبة إلى «**مؤمنون بلا حدود**»، ربما لم تخصص قسماً خاصّاً بالدراسات النسوية فقط، ولكن من خلال الكم الكبير والمتنوع من الدراسات، كانت القضايا النسوية حاضرةً بوضوحٍ، سواءٌ من حيث المحتوى أو من خلال البحوث التي أجرتها نساءٌ باحثاتٌ في المؤسسة. ومع ذلك، لا يمكن إغفال

وجود فجوةٍ واضحةٍ في كمية الإصدارات التي أنتجتها النساء، مقارنةً بالرجال، لذلك كان من الطبيعي أن أدعم الأقلام النسائية، وأرحب بها، وأوفر لها مساحةً أوسع.

وفيما يخص النسوية الإسلامية، والتي يمكن أن نطلق على المجددات بالدين الإسلامي هذه التسمية، أقرّ بأنهن مغيباتٌ إلى حدٍّ كبيرٍ على مستوى المؤسسات، ومن ضمنها «**مؤمنون بلا حدود**». أعترف بذلك بكل صدقٍ. فعلى سبيل المثال، في مشروعٍ بحثيٍّ من أربعة أجزاءٍ حول التجديد الفكري الديني أصدرناه منذ عدة أعوامٍ، لاحظت أن أسماء المراجع والأعلام الذين شملتهم الدراسات هم، في الغالب، رجالٌ. هذا الواقع دفعني إلى إطلاق سلسلةٍ من الأبحاث التي تهدف إلى تسليط الضوء على النساء اللاتي قدمن إسهاماتٍ فعليةً في مجال التجديد، وخصوصاً في القضايا النسائية. ونحن، اليوم، بصدد إعداد ورقةٍ تأطيريةٍ شاملةٍ لهذا الموضوع.

لا بد من الإشارة إلى الإشكالية المتعلقة بالنسوية الإسلامية، حيث تواجه رفضاً كبيراً من بعض النسويات الأخريات اللاتي لا يعترفن بوجودها أصلاً. هذا التناقض قائمٌ، وأنا أختلف مع هذا الموقف؛ إذ أرى أن هناك نساءً بذلن جهوداً كبيرة في دراسة التراث والنصوص، ورفع مستوى النساء المهمّشات اللواتي يخضعن لسلطة الدين. لذلك، لا يمكن استبعاد إسهاماتهن من النضال النسوي، ولا يجب تجاهلها. بالإضافة إلى ذلك، تعاني هؤلاء النسويات من

رفضٍ واضحٍ من قبل التيارات التقليدية التي ترفض تفرد النساء بالتأويل والتشريع، ولا تعترف بآرائهن في القضايا التي تمسهنّ بشكلٍ مباشرٍ. وأنا الآن أعدّ استكتاباً لمجموعة من الأبحاث التي تبرز مفكراتٍ قدمن إسهاماتٍ حقيقيةً ومهمةً في هذا المجال. أما موضوع اختلاف النسويات، فهو، بالطبع، جديرٌ بالنقاش، فنحن نعلم أن النسوية ليست قالباً واحداً، بل هي متنوّعةٌ، وتختلف حسب المجتمعات والسياقات الثقافية والاجتماعية التي تنتمي إليها.

د. حسام الدين درويش:

من بين الأعمال التي صدرت، عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، بخصوص وضع المرأة، نذكر مثلاً، كتاب «فخ المساواة»، وهو تذكيرٌ دائمٌ بالمرأة والرجل. وكذلك كتاب سماح حمدي عن «المرأة ومنزلتها لدى محمد قطب»، ثم كتاب «خطاب المرأة: تساؤلات راهنة وأدوات فكرية». لكن كما ذكرنا، ثمة الكثير من الأعمال التي لا تذكر المرأة حرفيّاً، لكنها تتناول هذا الموضوع بشكلٍ أو بآخر.

ومن الأشياء التي انتبَهتُ إليها، أثناء استماعي إلى كليكما، مسألة التوازن المعرفي، أو الرصانة المعرفية. لاحظت وجود تمييز بين النسويات. أنتِ، د. ماريز، ميزتِ بين النسوية الأكاديمية، والنسوية النضالية، أو ما شابه. وتشاركنا في التمييز بين النسوية الإنسانية والنسوية النسائية؟ بمعنى، النسوية الإنسانية تعد قضية المرأة جزءاً من قضايا إنسانيةٍ عامةٍ، دون تحزبٍ ضد الرجل أو

شيطنته، أو أن تكون نسوية نساءٍ فقط. السؤال ببساطة: ما مفهوم النسوية عندك؟ ماذا تعني النسوية بالنسبة إليك؟ هل هناك عدة مفاهيم تتبنين أحدها، أو هل تختلفين مع مفاهيم أخرى، حين تتحدثين عن النسوية كاتجاهٍ؟ ماذا تعني النسوية؟ ما المفهوم العام، وما المفهوم الخاص، بالنسبة إليك؟

د. ماريز يونس:

بشكلٍ عفويٍّ، كما قلنا أمس في اللقاء، بالنسبة إليّ، النسوية حركةٌ إنسانيةٌ تهدف إلى إزالة العوائق البنيوية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمنع المرأة من أن تكون إنسانةً. فالمرأة، بوصفها إنسانةً، لا تزال محرومةً من حقوقها وخياراتها التي تمكّنها من ممارسة إنسانيتها، بحريةٍ واستقلالٍ. بهذا المعنى، لا أرى أن النسوية تُبنى على مجرد التقابل أو المواجهة مع الرجل، بل على مساءلة النظام الثقافي والسياسي الذي ينتج هذا الاختلال في الحقوق والتمثيل. لذلك، النسوية، بالنسبة إليّ، ليست أيديولوجيا نساءٍ ضد رجالٍ، بل هي مشروعٌ تحرريٌّ شاملٌ يعيد تعريف الإنسان من موقع المرأة المهمّشة. هي نداءٌ للعدالة من الداخل، من قلب البنى التي اختزلت الإنسانية في نموذجٍ ذكوريٍّ واحدٍ. الرجل، في هذه الرؤية، ليس خصماً، وإنما شريكٌ في التحرر من البنية نفسها التي تؤذيه بشكلٍ آخر. فالمسألة ليست صراعاً بين الضحايا، بل تحالفاً ضد النظام الذي ينتج التمييز والتهميش، ويعيد إنتاجهما، في كل المجالات.

أما ما يسمى بالنسوية النضالية أو الخطاب الصدامي، فأراه نتيجةً حتميةً لتراكم القهر، لكنه لا يمكن أن يكون أفقاً دائماً. لقد وقعت بعض الحركات النسوية في أسر العداء للرجل، ظنّاً منها أن تحرير المرأة يتحقق عبر انتزاع امتيازاته لا عبر تفكيك الجذور العميقة للتمييز. لكن الرجل، نفسه، حين يُحاصَر في أدوارٍ قسريةٍ - كالوصي، أو المعيل الوحيد، أو رمز الشرف العائلي - تُسلب إنسانيته أيضاً. لذلك، لا بد من تجاوز الثنائية المختزلة رجل/ امرأة نحو مساءلة النظام الذي يُنتج هذا التقابل أصلاً.

وفي السياق اللبناني والعربي، تظهر هذه البنية التمييزية، بوضوحٍ، في النظام الطائفي والأهلي، الذي يقيّد المرأة، ويعطل إمكان قيام دولةٍ مدنيةٍ قائمةٍ على المساواة والمواطنة. وإذا استطاعت المرأة أن تتحرر من الشعور بالتهديد من الرجل، وأن ترى فيه شريكاً لا خصماً، يمكن أن تنشأ حركةٌ إنسانيةٌ موحدةٌ تتخطى الانقسامات الجندرية والطائفية من أجل بناء مجتمعٍ عادلٍ. المرأة قادرةٌ على لعب دورٍ محوريٍّ في هذا التحوّل، لكن بشرط ألا تحصر نضالها في مواجهة الرجل، بل في تفكيك البنى التي تقيّد الطرفين معاً، وتمنع تحقق العدالة للجميع.

وباختصارٍ، النسوية التي أؤمن بها ليست، فقط، مطلباً بالمساواة الشكلية، بل هي، أيضاً، مشروعٌ لتحرير الإنسان من كافة أشكال التمييز، أكان على أساس النوع أو الدين أو الطبقة أو غيرها. إنها دعوةٌ لإعادة تعريف العلاقات الاجتماعية على قاعدة

العدالة والكرامة، لا على قاعدة الهيمنة أو الانتصار لجنسٍ ضد آخر.

د. حسام الدين درويش:

دعيني أعود إلى التمييزات، فهي ضروريةٌ، كما نقول، الإسلام إسلاماتٌ والنسوية نسوياتٌ. لنركز على ثلاث مسائل: واحدةٌ منها هي النسوية الأكاديمية، وهي المعرفة الأكاديمية التي تتناول موضوع المرأة أو تحاول تقديم معرفةٍ رصينةٍ حولها؛ أي الدراسات والأبحاث النسوية. أما النسوية النضالية، فهي الجمعيات والمؤسسات التي تنشأ للدفاع عن حقوق المرأة والنضال من أجل إنصافها. والنسوية الثالثة هي ما يسمى نسوية المجتمع المدني، وهي بين الخدمية والنضالية، قد يكون لها نتاجٌ معرفيٌّ، لكنها أساساً نضالٍ واتصالٍ مباشر مع النساء في العالم العربي. كان هناك نقدٌ موجهٌ للنسوية الأكاديمية بأنها بعيدةٌ عن الواقع، ولا تعرف عنه شيئاً، لكن أنت قدمتِ نقداً مضادّاً للنسوية الأكاديمية، على الأقل للنضالية منها، بأنها أحاديةٌ وتختزل المرأة أو تضعها في مواجهةٍ مع الرجل فقط. أما نسوية المجتمع المدني فهي، بمعنىً آخر، جمعياتٌ تخدم الجمعيات أكثر مما تخدم المرأة نفسها. أيضاً ذكرتِ أن هناك أحياناً استيراد وصفاتٍ جاهزةٍ لتطبيقها على المجتمع، دون مراعاة خصوصية هذا المجتمع. هذا كان نقداً غنيّاً، وكان هناك وعدٌ أن تكتبي في هذا الموضوع.

دعينا نستبق الكتابة، شفهيّاً، لنضع عناوين عريضةً؛ إلى أي

حد نحن بحاجةٍ إلى هذا التمييز بين النسويات وأنواعها المختلفة، أو إلى تعاونٍ بين الأطراف المختلفة، من دون حالة الاصطدام؟ وبصراحةٍ، عندما يأتي النقد منك، بوصفك امرأةً، يكون له وقعٌ مختلفٌ عما لو أتى مني؛ فقط لأنني رجل. هذه التمييزات هي العناوين الرئيسة للنص الذي ترغبين في كتابته لاحقاً؟

د. ماريز يونس:

أنت تقول إن هناك نسويةً نضاليةً ونسويةً أكاديميةً، وأنا كنت أقول، منذ البداية، إنني لا يمكن أن أكون أكاديميةً، من دون أن أكون مناضلةً. فالقضية التي أتحرك في إطارها، وهي قضية المرأة، لم تُحسم بعد، لا على مستوى الحقوق ولا على مستوى الوعي المجتمعي، ومن ثمَّ، نحن لسنا أمام لحظة ما بعد النضال، لكي نفصل الأكاديمي عن النضالي. نحن في قلب المعركة، معركة الإنسان وكرامته، ولذلك لا معنى لأكاديميةٍ تُحلّق فوق الواقع، بينما النساء يُهشّمن، كل يومٍ، في واقعٍ اقتصاديٍّ وسياسيٍّ وثقافيٍّ يزداد تعقيداً.

من هذا المنطلق، أرى أن الحركة النسوية ليست تصنيفاً يُوضع على رفٍّ بين تياراتٍ أكاديميةٍ ونضاليةٍ ومجتمعيةٍ، بل هي مشروعٌ تحوّليٌّ متكاملٌ، فيه الفكري والنضالي متداخلان. لا أستطيع أن أكون منظّرةً نسويةً إذا لم أكن أسمع أصوات النساء، وأتفاعل مع قضاياهن اليومية. فالمعرفة لا تُنتج من برجٍ عاجيٍّ، بل من التماس الحيّ مع الحياة. وفي الوقت نفسه، لا يمكن أن ننتج حركةً تغييريةً

إن لم تكن مسنودةً برؤيةٍ معرفيةٍ متماسكةٍ قادرةٍ على تفكيك البنى الثقافية والاقتصادية التي تعيد إنتاج القهر والتهميش. لكن ما يحدث، اليوم، هو تفكك هذا التكامل. فهناك فجوةٌ تتسع بين الأكاديميات والمناضلات؛ لأن النسوية الأكاديمية أصبحت محكومةً بإكراهات النشر واللغة النظرية، بينما النسوية النضالية تم اختزالها في تنفيذ مشاريع قصيرة الأمد بتمويلٍ خارجيٍّ، وهي محكومةٌ بأجنداتٍ لا تترك مجالاً للنقد أو الحوار. وأنا أتحدث، هنا، من تجربةٍ شخصيةٍ، لا أعمل ضمن «شبكة دراسات المرأة» كمؤسسةٍ ممولةٍ، بل كمجموعةٍ من الباحثات المستقلات، نعمل ضمن جمعيةٍ مدنيةٍ تطوعيةٍ، نحاول تقديم مشاريع نحصل بها على تمويلٍ من منظماتٍ دوليةٍ، لكن الواقع هو أن هذه المشاريع تتجزأ إلى ورشاتٍ وتدريباتٍ ومناصرةٍ مؤقتةٍ لقضايا جزئيةٍ، وغالباً لا يُسمح لنا كباحثاتٍ بالنقاش أو تطوير الرؤية.

هذا النمط من العمل يؤدي، برأيي، إلى تفريغ الحركة النسوية من طابعها البنيوي والتحويلي. لقد شهدنا، منذ التسعينيات، مساراً واضحاً من التجزئة، ليس فقط في قضايا المرأة، بل في كل الحقول التي كانت، في السابق، مرتبطةً بالمشاريع الكبرى التي تبنّتها النقابات أو الأحزاب أو الحركات التغييرية. فتم تفكيك قضية المرأة من ارتباطها بقضايا التمييز والعنصرية والطبقية، وأصبحت تُعالج، كملفٍ إداريٍّ أو كتمكينٍ فرديٍّ، وتحوّل مفهوم «التمكين» إلى كلمة سرٍّ تفتح أبواب التمويل، لكنه، غالباً، لا يعكس حاجات

النساء في مناطق المهمشين، أو في سياقات النزاع، أو في بيئاتٍ تعاني من تآكل الدولة.

التمكين، كما يُفهم في الغرب، يعني، غالباً، تمكين النساء من الطبقة المتوسطة المتعلمة للوصول إلى مواقع القرار. وهذا ليس خاطئاً، لكن لا يمكن إسقاطه، تلقائيّاً، على نساء الأرياف، أو على عاملات المنازل، أو على اللاجئات، أو على من فقدن الأمن الغذائي، في ظل الأزمات الاقتصادية والنزاعات المسلحة. حين تأتينا الأجندات الجاهزة، وتقول: «نريد مشروعاً حول مشاركة النساء في البلديات»، أو «تمثيل النساء في البرلمانات»، فهذا أمرٌ مهمٌّ، لكنه لا يشمل المعاناة اليومية لغالبية النساء اللواتي لا يملكن حتى بطاقات هويةٍ، أو لا يملكن حرية التنقل، أو من يتم تزويجهن قسراً، أو من فقدن أبناءهن في الحروب. إضافةً إلى ذلك، تأتي الأزمات الإنسانية والنزاعات لتُعمّق هذا التفاوت. هناك قضايا حقيقيةٌ تتعلق باللاجئات، بالنساء الناجيات من العنف، باللواتي فقدن معيلهن، باللواتي يعشن تحت أنظمةٍ أهليةٍ أو طائفيةٍ تقيد خياراتهن. لكن هذه القضايا، غالباً، ما تُستثنى من أولويات الجهات المانحة التي تبحث عن نتائج قابلةٍ للقياس خلال ستة أشهرٍ أو سنةٍ. لا أحد يسأل: من هي المرأة التي تعمل لأجلها؟ ما حاجتها؟ ما صوتها؟ بل هناك خطابٌ يُفرض، ومؤشراتٌ جاهزةٌ، وعقودٌ تنفيذيةٌ تُعامل فيها الناشطة كموظفةٍ، لا كصاحبة مشروع تحررٍ.

لقد شهدنا، مع الوقت، اختزالاً متسارعاً للحركة النسوية إلى «**أنجزة**» Ngoization أي إلى آليةٍ تنفيذيةٍ مربوطةٍ بتمويلٍ خارجيٍّ، تسير وفق منطق السوق، لا منطق التحرر. والنتيجة أن الحركات فقدت روحها التطوعية، وتحوّلت إلى مشاريع مهنيةٍ. وأنا أطرح هذا النقد من الداخل؛ لأني جزءٌ من هذا المسار، لكني أحاول، دائماً، أن أقاوم هذا الاختزال، وأن أعمل على مشروعٍ أكثر عمقاً، يدمج بين المعرفة والعمل الميداني، ويعيد بناء الثقة بين الباحثة والمناضلة، بين النظرية والتجربة.

لهذا السبب، أطلقت، بالتعاون مع بعض الزميلات والزملاء، مبادرةً من خلال شبكة دراسات المرأة، تحت عنوان «إعادة التفكير في الخطاب النسوي العربي». نحتاج، اليوم، إلى وقفةٍ نقديةٍ صادقةٍ؛ لأن الخطاب بات يدور حول نفسه، ويعيد إنتاج مفاهيم مستوردةٍ، دون مساءلتها، ويتجاهل أسئلة الواقع العميق. نحن نحتاج إلى خطابٍ جديدٍ، لا يختزل المرأة في التمكين أو الكوتا، بل يفكر فيها بوصفها إنسانةً حاملةً لمشروعٍ تحرريٍّ يتجاوز النوع، ليشمل النظام بأكمله. نحتاج إلى نسويةٍ لا تعادي الرجل، ولا تتماهى مع السوق، بل تستعيد دورها الجذري، كقوة تغييرٍ مجتمعيٍّ، تبدأ من المهمشين، وتبني رؤيتها معهم، لا عنهم.

د. حسام الدين درويش:

أتفق معك، على الرغم من وجود اختلافاتٍ. فمهما كانت المعرفة رصينةً، لا يمكن أن تكون عمياء أو بلا هدفٍ. لماذا نكتب

أو ننشر أو نتحدث أصلاً؟ هل، فقط، لننشر؟ كلا، بل لأن وراء هذه المعرفة غاياتٌ معياريةٌ تهدف إلى تحسين المجتمع وتنويره. أرى أن هناك تزامناً بين النضال والمعرفة، حيث يحدد النضال هدف المعرفة الأكبر، الغايات البعيدة، دون أن يؤثر ذلك، بالضرورة أو سلباً، في مضامينها، لتصبح أحاديةً أو عملاً أيديولوجيّاً ضيق الأفق. المعرفة من دون نضالٍ أو أيديولوجيا تكون عمياء، ولا تحدد سبب وجود المعرفة، في المقابل، الأيديولوجيا أو النضال من دون معرفةٍ تكون جوفاء، وسطحية، ولا تستند إلى أساسٍ. أوافق على الفصل الذي قمت به بين النضال والمعرفة، لكن يمكننا التحدث عن تزامنٍ بينهما، حيث يقوم كل منهما بوظيفته، حيث تكون هناك نزاهةٌ معرفيةٌ، بغض النظر البعد النضالي/ الأيديولوجي. وهناك تطلعٌ كبيرٌ لأن يُكتب هذا البحث ويُنشر، وليُقرأ ويُناقش على نطاقٍ واسعٍ. لكن الخروج عن المألوف قد يعرضك للتكفير، وبقدر ما هو خطابٌ مهمٌّ صريحٌ، يجب أن يكون دعوةً للتفاكر والتفكير معاً، وليس، فقط، مجرد صدامٍ.

د. ماريز يونس:

دعني أعود إلى نقطةٍ أراها محوريةً، في فهم العلاقة بين المعرفة والنضال، وهي تتصل بتمايز «الزمن المعرفي» عن «الزمن النضالي». حين قلت، سابقاً، إنني لا أستطيع أن أكون أكاديميةً، من دون أن أكون مناضلةً، لم يكن قصدي الخلط بين المستويين، أو إدخال الذات النضالية في صلب إنتاج المعرفة التأملية

الموضوعية، بل على العكس، أؤمن بأهمية الحفاظ على شروط إنتاج معرفةٍ نسويةٍ رصينةٍ، تقوم على التحليل والتأمل، لا على ردود الفعل أو الانفعالات اللحظية.

لذا أُميّز بين زمن النضال، حيث أكون في اشتباكٍ حيٍّ مع الواقع: أنظّم، وأواجه، وأرفع الصوت؛ وزمن البحث، حيث أفسح المجال للتراجع خطوةً إلى الوراء، لا بغرض الانفصال عن الواقع، بل لتأمله وتفكيكه، بمنأى عن ضغط الحدث أو الخطاب التعبوي. ففي لحظة البحث، لا أكتب مدفوعةً بالغضب، بل أسعى إلى فهم البنية التي تُنتج هذا الغضب؛ أفكك السياقات، وأنتج معرفةً قادرةً على الصمود أمام الزمن والنقد، وتغني النضال، من دون أن تكون مجرد صدىً له. أما في لحظة التوعية، أو الظهور الإعلامي، أو العمل الميداني، فثمة مسؤولياتٌ أخرى تتعلق بالوصول، والتحفيز، وإثارة التساؤلات، لا بتقديم إجاباتٍ نهائيةً. في هذه اللحظات، أستحضر النفس النضالي بوعيٍ كاملٍ، لا كبديلٍ عن المعرفة، بل كمكملٍ لها، وهو ما ترجمته في برنامج «لأني أنثى»، الذي يندرج ضمن العمل النضالي بالاستناد إلى خلفيةٍ معرفيةٍ تراكميةٍ، ساهمت في إثراء النقاش، وتحقيق الهدفين المعرفي والنضالي المجتمعي معاً. لهذا، لا أضع حدوداً صلبةً بين النضال والمعرفة، بل فاصلاً زمنيّاً، ووعياً منهجيّاً، يحفظ لكلٍّ منهما طبيعته ووظيفته، ويمنع أن تطغى حرارة النضال على برودة التحليل.

د. حسام الدين درويش:

أنتِ، دكتورة ميادة، استخدمت كلمة «نضال»، والنضال فيه طابعٌ معياريٌّ مثل الأيديولوجيا؛ أي إنني أسعى إلى تحقيق هدفٍ معينٍ. إلى أيّ حد لديك رغبةٌ في تقديم معرفةٍ رصينةٍ، لا يمكن اختزالها في تأييد أو معارضة فكرةٍ أو طرفٍ ما؟ النضال هو السعي إلى تحقيق غايةٍ عمليةٍ، والمعرفة الرصينة مقاربةٌ تهدف إلى فهم الواقع وتحليله، بغض النظر عن موقفنا منه. ويمكن أن يكون هناك نفَسٌ نضاليٌّ، في أي معرفةٍ رصينةٍ، لكن الغرض منها، والموجّه لها، هو المعرفة؛ أي الوصف والفهم والتحليل، وأن تُسمع الأصوات المختلفة، طالما أنها تقدّم معرفةً رصينةً. وأنتِ لديك خبراتٌ شخصيةٌ مع نسويات ونسويين، مع مؤسساتٍ وأطراف ومجموعاتٍ. ومن الطبيعي أنك تختلفين مع بعضهم، أحياناً، وتتفقين معهم، أحياناً أخرى. من خلال هذا الثلاثي - النفس النضالي، كإنسانة، وكمديرة «مؤمنون بلا حدود» - أنت تهدفين إلى تقديم معرفةٍ رصينةٍ، بغض النظر عن اتفاقك أو اختلافك، مع تلك المعرفة. ومن خلال خبرتك مع النسويات والأطراف النسوية، سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات أو جماعات، كيف تفهمين هذه المسألة وتتفاعلين معها، سواء كإنسانةٍ أو كشخصية عامةٍ أو كمديرة مؤسسةٍ؟

د. ميادة كيالي:

موضوع النضال، برأيي، لا يمكن فصله عن الأكاديمية

والبحث. فالأمر لا يقتصر على تنظيرٍ مجردٍ، بل يتطلب ممارسةً فعليةً على الأرض. فعندما أتحدث مع نساء عن مفاهيم التحرر والاستقلالية، أسأل نفسي دائماً: هل مارستُ هذه المفاهيم؟ وهل تحملتُ تبعات استقلاليتي وقراراتي الجريئة؟ هذا هو جوهر النضال الحقيقي. لذلك، من الضروري أن يُطوّر النضال على المستوى المعرفي والأكاديمي، وأن يُبنى على فهمٍ عميقٍ للحقوق والعدالة، ولتصور الإنسان الكامل الذي ينبغي أن تكون عليه المرأة. وفي الوقت نفسه، لا يمكننا أن نغفل خصوصية وضع المرأة في مجتمعاتنا، التي تختلف، في ظروفها الثقافية والاجتماعية والسياسية، عن تلك التي شهدتها الموجات النسوية في الغرب. ففي حين أن الموجات النسوية قد تخطت أشواطاً ومحطاتٍ عديدةً، نحن، ربما، لا زلنا في الموجة الأولى أو الثانية وحتى الثالثة، التي تتميز بصراعاتٍ ومناكفاتٍ مع الذكر نفسه، حيث يسعى النضال إلى إعادة تشكيل العلاقة معه. وإذا ما وصلنا إلى الموجة الرابعة، التي تركز على قضايا مثل الاعتداء على النساء والأطفال، نجد صعوبةً في تطبيقها على مجتمعاتنا العربية، التي ما تزال هذه القضايا فيها مغمورةً ومكبوتةً، حتى وإن كان هناك تفاهمٌ نظريٌّ حول المساواة بين الطفل والطفلة، إلا أن التطبيق يواجه معوقات كبيرة بسبب الأعراف الاجتماعية.

على الصعيد الأكاديمي، أفرق بين نضالي كإنسانةٍ وكفردٍ، ودوري المؤسسي. فأنا، خارج إطار المؤسسة، يمكنني أن أكون

مناضلةً قويةً مدافعةً عن الأفكار بقوةٍ وعنفوانٍ. أما داخل المؤسسة، فهي فضاءٌ أكاديميٌّ يحتاج إلى التزامٍ بالمناهج العلمية والرصانة الفكرية. ومؤسستي، «**مؤمنون بلا حدود**»، ليست جهةً تعمل، مباشرةً، على أرض الواقع بالمشاريع الاجتماعية، بل هي مؤسسةٌ بحثيةٌ وأكاديميةٌ. وهذا الجانب أحتفظ به بعيداً عن نضالي الشخصي، الذي يغذيني ويعزز وجودي كمدافعةٍ عن قضايا المرأة وأفكارها بلا شكٍّ، لكن دون أن أكون متطرفةً أو منفعلةً ضد الرجل. كذلك، أتحلّى بطول النفس، لأحمي هذا الصرح الذي ساهمت في تأسيسه، وأؤمن بأن الجمع بين البحث الرصين والنضال الحقيقي هو السبيل الوحيد للتغيير الفعلي، وليس مجرد شعاراتٍ أو مشاريع مؤقتةٍ.

د. حسام الدين درويش:

السؤال الأخير الذي يمكن أن نفكر أو نتفاكر فيه معاً: بالنسبة إلى الوضع النسوي، أو المسألة النسوية، أو مسألة النساء، بشكلٍ عامٍّ، إلى أيّ حدٍّ يمكن أن نقول إن الاتجاه النسوي يجب أن يُؤصَّل محلياً، سواء معرفيّاً أو ثقافيّاً، من دون إلغاء الخصوصية المحلية للكونية؟ فأنتِ، دكتورة ماريز، شددتِ كثيراً على مسألة الخصوصية، ولكن ثمة خوفٌ من أن تلغي الخصوصية الكونية، «في النهاية». نحن بشرٌ يفترض أن تكون لنا حقوقٌ متساويةٌ مع البشر الآخرين، بغض النظر عن الوضع الثقافي أو السياسي أو الاقتصادي أو غيره.

أترك لك حرية اختيار المثال الذي ترينه مناسباً؛ إلى أي حد

يمكن إنتاج معرفةٍ رصينةٍ تساعد النضال النسوي والنسائي، من ناحية كونية القيم، حيث نبقى نتحدث عن حقوق الإنسان لكل إنسان، مع مراعاة الخصوصيات المحلية؟ منذ قليل، كانت الدكتورة ميادة تتكلم عن الموجة الثالثة أو الرابعة، وأن هناك أشياءً قد تكون أساسيةً، وأشياء أخرى يختلف عليها ثقافيّاً، فما رأيك في ذلك؟ وكيف يجب أن نعمل على تحقيقه؟

د. ماريز يونس:

بالنسبة إليّ يعدّ سؤال الخصوصية والكونية من الأسئلة الأكثر إلحاحاً في مسار الفكر النسوي، خاصةً حين نعمل في سياقاتٍ عربيةٍ متعددة البنى والهويات والمعاني. فعلى الرغم من المفاهيم الكونية التي انطلقت منها الحركة النسوية، كالعدالة والكرامة الإنسانية، والحق في السلامة الجسدية والنفسية، والحرية، ولا تزال تُشكّل قيماً كونية، لكنها، برأيي، تكتسب فعاليتها حين تُؤصَّل في السياقات التي تُمارَس فيها. ومن هنا، جاء مشروعنا «إعادة التفكير في الخطاب النسوي العربي» الذي أطلقتُه شبكة دراسات المرأة، بوصفه دعوةً مفتوحةً لتطوير خطابٍ يتجاوب مع تعقيدات المجتمعات المحلية. ولا يستورد هذا المشروع نماذج جاهزةً، بل يُعيد مساءلتها. نناقش فيه إمكانيات تفكيك الخطابات الأحادية، واستعادة التنوع الفكري والسياسي والثقافي داخل النسوية العربية، بما يشمل النساء في الأحياء الشعبية، والقرى، واللاجئات، والناشطات المحجبات، والنسويات الإسلاميات، وكل من تمّ

تهميشهن من النماذج الغربية أو الخطابات المركزية. نحن لا نُقصي، بل نبني فضاءً تفاوضيّاً يَسَع الجميع.

ولإيضاح الفرق بين التبنّي الواعي والنسخ الأعمى، أستحضر مثالاً حيّاً يتعلّق ببرامج «الخطوط الساخنة» في بعض الدول العربية، المخصّصة لمساعدة النساء المعنّفات. رغم أنها تُمثّل محاولةً إنسانيةً لمساندة الضحايا، فإنها كثيراً ما تفتقر إلى بنىً قانونيةٍ وثقافيةٍ تُرافق هذه الاستجابة الأولية بمسار حمايةٍ شاملٍ. المرأة التي تهرب من منزلها، بسبب العنف، تحتاج إلى شبكة أمانٍ قانونيةٍ واقتصاديةٍ واجتماعيةٍ تحفظ كرامتها وتُوفّر لها بدائل حقيقيةٍ. في غياب هذه الحماية، تعود الكثيرات إلى بيئة العنف نفسها، أو يواجهن أزماتٍ أشد. بينما في نماذج عديدةٍ من التجربة الغربية، تترافق حماية المرأة مع سياساتٍ مجتمعيةٍ شاملةٍ تُعيد بناء الوعي، وتُفكك أسباب العنف من جذورها، لا تُغطي أعراضه. ونحن لا نستغني عن هذه الأدوات، بل نُعيد تصميمها، وفق واقعنا. نُدرك أن العنف لا يُعالج، فقط، باستجاباتٍ طارئةٍ، بل بمساءلة الثقافة المنتجة له، وبإصلاح البنى السياسية، والتربوية، والدينية، التي تشرّعه أو تصمت عليه.

وفي السياق السياسي، يظهر التحدي الأكبر في العلاقة مع تيارات الإسلام السياسي والصراعات حول السلطة والتأويل. في بيئةٍ كهذه، يصبح من الحيوي أن ينفتح الخطاب النسوي على مقارباتٍ نسويةٍ نابعةٍ من المرجعيات الثقافية للمجتمع. مثلاً، النساء

المحجبات والناشطات ضمن إطارٍ ملتزمٍ يشعرن بالإقصاء غالباً، على الرغم من امتلاكهن أدوات قراءةٍ للعدالة والمساواة تنبع من منطقٍ مختلفٍ، لكنه لا يتعارض، بالضرورة، مع القيم الإنسانية. حين نُخاطب هؤلاء من داخل تجربتهن، نُوسّع الخطاب النسوي، ونمنحه قدرةً أكبر على التأثير. النسوية، في هذه الحال، تُصبح مشروعاً يخاطب الواقع، ويستثمر في تنوّعه، بدلاً من فرزه وتصنيفه. ومن هنا تنبع أهمية التفاوض مع التيارات السائدة، لا بمعنى التنازل، بل بمعنى إدراك المشهد بكل تعقيداته، وصياغة لغةٍ جديدةٍ قادرةٍ على فتح مساحاتٍ مشتركةٍ مع المختلفين.

نحن أمام لحظةٍ معرفيةٍ تتطلب مراجعةً عميقةً: ما هو «التمكين» في بيئةٍ زبائنيةٍ؟ ما معنى «الحرية» في مجتمعٍ يُعلّق شرفه على جسد المرأة؟ ما وظيفة «الكوتا» إذا كانت تُعيد إنتاج واجهاتٍ رمزيةٍ بلا أثرٍ فعليٍّ؟ هنا تصبح المعرفة الحيّة، لا المستوردة، هي الأداة الوحيدة لصياغة خطابٍ عادلٍ. لهذا، أؤكد أن العدالة الكونية لا تُبنى فوق الخصوصيات، بل من خلالها. نحتاج إلى خطابٍ نسويٍّ عربيٍّ تشاركيٍّ متجذّرٍ، قادرٍ على الانتماء إلى العالم، من دون أن يفقد صوته الخاص.

د. حسام الدين درويش:

بحكم علاقتنا الطويلة نسبيّاً، دكتورة ميادة، أظن أنه إذا كان بإمكاني الحديث عن نسويةٍ لديك، فهي نسويةٌ من دون أيديولوجيا نسويةٍ، نسويةٌ ليست أحاديةً ولا اختزاليةً؛ أي لا تختزل المرأة في

كونها امرأةً فقط، وإنما تؤكد أنها إنسانةٌ، مع عدم نفي كونها امرأة، وأنها تختلف عن الرجل، وبالتالي هي امرأةٌ وأنثى، لكن من دون اختزالها في كونها ذلك. فهي امرأةٌ بكامل معنى الكلمة، بكامل أنوثتها، لكنها أيضاً إنسانةٌ، وليست مجرد ضحيةٍ، والآخر هو المجرم. واختزال الإنسان نفسه في ضحيةٍ ينفي ذاته، وينفي كونه كان فاعلاً. دعيني أقول: من أين لك هذا؟ بمعنى أنني أعرف نساءً يمارسن أقوى وأجمل شكلٍ ممكنٍ للنسوية (الإنسانية)، من دون تنظيرٍ نسويٍّ؛ ومن دون أن تتحول إلى أيديولوجيا ضد هذا أو مع ذاك، وبعضهن لديهن، غالباً، حذرٌ، وأحياناً نفورٌ، من الانضمام إلى أيّ جماعاتٍ نسويةٍ، تأخذ شكل جماعاتٍ نسائيةٍ. وأرى أن هناك توازناً هائلاً لديك من ناحية تأكيد أهمية هذه المسألة، والتشديد على ضرورة معالجتها والانتباه إليها، ومركزيتها، من ناحيةٍ، وعدم تبني ردّات فعلٍ متشنجةٍ ضد الآخر، كالنزعة النسوية المعادية للرجل أو اعتبار المرأة معادية للرجل، إلى آخره، من ناحيةٍ أخرى. فمن أين لك هذا؟

د. ميادة كيالي:

في النهاية، الإنسان عليه أن يعوّد نفسه على المراجعة المستمرة، والنقد الذاتي، والصدق مع الذات، فذلك أمرٌ في غاية الأهمية، وأن يضع في حسبانه الطرف الآخر، الذي قد تكون له وجهة نظرٍ صحيحةٌ ومبررةٌ. أعود هنا إلى تجربتي مع أولادي، الذين يعلمونني ويغيرونني، في كل يوم. أحياناً، أعتقد أنني أقوم

بواجباتي على أكمل وجهٍ معهم، لكن، في أحيانٍ أخرى، أكتشف أن فهمي لهم، أو تعاملي معهم، مبنيٌّ على تصوراتٍ قد تكون خاطئةً، أو قائمةً على نوعٍ من الهيمنة. وهذا الأمر مشابهٌ، تماماً، للعلاقة بين الرجل والمرأة، حيث قد يعتقد الرجل أنه يؤدي دوره بشكلٍ جيدٍ، لكنها تراه بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً.

الحوار المفتوح والصريح هو السبيل الوحيد لتقريب المسافات، وبناء تفاهمٍ متبادلٍ. نحن، كنساءٍ، لم نعتد أن نتحدث بصراحةٍ عن احتياجاتنا، أو عمّا ينقصنا، مع توقع أن يفهمنا الرجال تلقائيّاً. هذه مشكلةٌ حقيقيةٌ؛ فالرجال بحاجةٍ إلى معرفةٍ واضحةٍ بما نفتقده وما نحتاجه بالفعل. وكم هو جميلٌ أن نفتح باب الحوار مع الآخر، ونقول له: «أنا هكذا»، وأن نستمع منه، أيضاً، لما ينقصه، وما يحبّه، وما يضايقه. حتى مع أبنائنا، ينبغي ألا نترك الأمر على افتراض أن عليهم فهم الآخر، دون كلامٍ واضحٍ، أو أن يفهم هو الآخر، دون أن نعبر عن أنفسنا، بل يجب أن يكون هناك حوارٌ حقيقيٌّ وصادقٌ نبحث من خلاله عن حلولٍ مشتركةٍ. وأنا أؤمن، بشدةٍ، أن المرأة عندما تتحرر فعلاً من التبعية، فإن ذلك ينعكس، إيجابياً، على الرجل من حولها، ويُسعده بوجودها إلى جانبه. حين تكون العلاقة بينهما متكافئةً، تُنتج أسرةً صحيةً، ومتماسكةً، وقويةً.

د. ماريز يونس:

بالنسبة إليّ، لن أتحدث على المستوى الشخصي، بل سأجيبك على المستوى العام. لا يمكن للحركة النسوية، بصفتها حركةً

إنسانيةً تسعى لتحقيق العدالة والمساواة، أن تُنجز مشروعها التاريخي دون حضور الرجل، بل دون قياداتٍ من الرجال في الصفوف الأمامية. فكما شارك الرجل في قيادة حركات التحرر الكبرى ضد الاستعمار والتمييز العنصري، فإن موقعه في الحركة النسوية ليس خياراً رمزيّاً، بل ضرورةٌ نابعةٌ من مشروعية نضالها نفسه؛ لأنه هو، أيضاً، من المعنيين بإعادة بناء الإنسان، وهو أحد الأطراف المطالبة بتفكيك النظام الأبوي الذي يُميز ضد المرأة والرجل معاً. هذه ليست، فقط، مسؤوليةً، بل مصلحةٌ أيضاً.

مثلاً، أنا أسألك د. **حسام**: لماذا أنت لست قياديّاً في حركتنا النسوية؟ نحن نحتاج إلى أمثالك، ممن يمتلكون الوعي والقدرة على الحضور كقادةٍ ومناصرين، لا كمراقبين أو متعاطفين عن بُعد. لا يكفي أن تعلن أنك ضد العنف، بل يجب أن تكون في الصفوف الأمامية في هذه الحركة الإنسانية. ومن ناحيةٍ أخرى، ثمة ممارسةٌ إقصائيةٌ من بعض النساء داخل الحركات النسوية، وهنا نتساءل: ما معنى أن يستمر الحوار ضمن دائرةٍ نسائيةٍ مغلقةٍ نعيد فيها إنتاج قناعاتنا لبعضنا البعض، في حين يُقصى الرجل، سواء بوصفه خصماً أو متهماً، من دون أن يُمنح فرصة الفهم والمساءلة والمشاركة؟ فأنا، مثلاً، عندما أطلب من زملائي الرجال المشاركة في مداخلةٍ ضمن مؤتمرٍ أو ندوةٍ حول النوع الاجتماعي، يعتذر معظمهم باعتبار أن «هذا موضوع يخص النساء»، ويجيبون: «هيدا موضوع نسوي ما بفهم فيه»، وكأن هذا العلم له جنسٌ واحدٌ.

كذلك الأمر بالنسبة إلى ورشات التمكين. نحن نحتاج إلى أن يُدعى الرجل، خصوصاً الشاب، إلى ورشات التمكين. فكيف يمكن أن نعمل على تغيير الذهنية المنتجة للعنف والتمييز، ونحن نتحاور، فقط، مع ضحايا هذا العنف والتمييز؟ ماذا نستفيد، مثلاً، أنا **ود. ميادة** إذا تبادلنا وجهات النظر نفسها، وأغلقنا الحوار؟ من هنا، يجب أن تطال برامج التوعية والتمكين الذكور أيضاً، لا بوصفهم معنّفين محتملين، بل بوصفهم شركاء في إنتاج العدالة. يجب أن يُمنح الشباب المجال لفهم موضوع النوع الاجتماعي، وكيف تنتج المنظومة الذكورية التمييز، وتمارسه على الجنسين، بهدف التحرر مع المرأة، لا منها. ولهذا، فإن إشراك الرجال ليس تنازلاً، بل جزءٌ من تفكيك المنظومة من داخله. أما المصلحة الثانية للحركة النسوية، فهي ترتبط بالمجال السياسي: هناك ضرورةٌ لإشراك الرجال في قنوات القرار، خصوصاً أن غالبية البرلمانات ما تزال خاضعةً للهيمنة الذكورية. لا يمكننا الدفع بقوانين عادلةٍ لصالح النساء، دون بناء تحالفاتٍ مع رجالٍ يؤمنون بالمساواة ويشغلون مواقع التأثير. فالتغيير السياسي لا يتم من الخارج فقط، بل من الداخل، وبشراكةٍ كاملةٍ، أيضاً.

د. حسام الدين درويش:

هذه المصلحة أصبحت من ضمن المبادئ، وليست مسألةً نفعيةً فقط. سنترك الإجابة عن بعض الأسئلة أو التساؤلات العالقة إلى لقاءاتٍ قادمةٍ. شكراً جزيلاً لكما، دكتورة ماريز، ودكتورة ميادة، وبالتأكيد، ستكون لنا لقاءاتٌ أخرى.

خاتمة

د. عبد السلام شرماط

أفضت حوارات الدكتورة **ميادة كيالي** إلى بلورة رؤية فكرية وإنسانية متكاملة، انبنت على تأمّلٍ عميقٍ في معنى الذات والكتابة والأمومة والولادة والنشر. فقد انطلقت الدكتورة ميادة من قناعة راسخة تفيد أن البحث عن الذات لم يكن رحلة فردية مغلقة، بل مساراً تأويلياً أعاد وصل الإنسان بتاريخه ومحيطه الثقافي. ورأت أن الذات لم تتجسد ككيانٍ ثابت، بل تخلقت عبر التجربة والمعاناة والانفتاح على الآخر، فغدت الكتابة لديها فعلاً كاشفاً يعيد بناء الذات من شتاتها، ويمنحها صوتاً يتكلم من قلب التجربة الإنسانية. وقد تعاملت د .**ميادة كيالي** مع الكتابة بوصفها ممارسة وجودية تتجاوز البوح الشخصي لتتحول إلى فعل مقاومة ضد التلاشي، وإلى أداة تمنح التجربة معناها. فالكتابة، في تصورها، لم تكن نقلاً للذاكرة بقدر ما كانت ولادةً ثانية للكائن، استعاد بها الإنسان ذاته

عبر اللغة. ومن خلال هذا الفعل الخلّاق، استطاعت أن تحوّل الألم إلى إمكانية للفهم، وأن تنقل ما هو خاصّ إلى أفقٍ كوني أوسع، تُقرأ فيه التجربة الفردية كجزءٍ من حركة الحياة الكبرى.

أما الأمومة، فقد شكّلت في فكرها محطة مركزية؛ إذ لم تنظر إليها كدور اجتماعي فحسب، بل كخبرة وجودية أعادت المرأة إلى جسدها ووعْيها، وإلى عمق إحساسها بالزمن، أيضاً. ورأت أن الأمومة مثلت لحظة اكتمال واختبار، يتقاطع فيها الألم بالعطاء، وتنبثق الحياة من رحم الصبر والانتظار. وبذلك، التقت تجربة الأمومة بالكتابة عندها في جوهرٍ واحدٍ؛ لأن كلتيهما ولادة: الأولى تمنح الحياة، والثانية تمنح المعنى. لقد جعلت د. **ميادة** من الأمومة والكتابة معاً مساراً لتحويل التجربة إلى فكر، والجسد إلى وعي. ومن هذه الرؤية العميقة انبثق وعيها بدور المرأة في الحياة، لا بوصفها كائناً هامشياً أو تابعاً، بل بوصفها قوة خالقة تحفظ توازن العالم، وتمنح للوجود معناه الإنساني. فالمرأة، في تصورها، ليست مجرد فاعل اجتماعي، بل هي أصل التجربة الإنسانية ومصدر تجددها المستمر؛ فهي التي تحتضن الحياة وتعيد إنتاجها في كل مستوياتها: في التربية، في العمل، في الفكر، وفي الكتابة. ومن خلال هذا الوعي، أكدت د .**ميادة** أن حضور المرأة في الحياة ليس حضوراً بيولوجياً فحسب، بل حضور معرفي وأخلاقي، يثري الإنسانية برؤيتها للعطاء، والرحمة، والقدرة على تحويل الألم إلى جمال. وهكذا يصبح إسهام المرأة في الحياة

امتداداً طبيعياً لفعل الأمومة والكتابة معاً؛ أي لفعل الخلق في أرقى صوره.

ومن بين الجوانب المؤثرة في مشروعها، برز دور الأمّ في تجربتها بوصفه منبعاً أولياً للوعي والحس الإنساني. فقد كانت الأمّ، كما عبّرت في بعض نصوصها الحوارية، نموذجاً أصيلاً للحضور الصامت، والقدرة على الاحتضان، والاحتمال الهادئ للألم. هذا الحضور الأمومي في حياتها ترك أثراً عميقاً في وعيها بالكتابة والحياة معاً؛ إذ أدركت من خلاله أن العطاء لا يُقاس بالكلام، بل بالفعل، وأن الصبر أحد أشكال القوة الخفية. ومن هنا، استلهمت من والدتها فكرة الوجود كاحتضان، والكتابة كامتداد لذلك الاحتضان في اللغة. لقد كانت الأمّ بالنسبة إليها معلّمتها الأولى في الصبر والمعنى، ومرآتها التي انعكس فيها مفهوم الخلق الإنساني في أبسط وأعمق صوره. ومن هذه التجربة استمدت د. **ميادة كيالي** وعيها بأن الأم ليست فقط من تمنح الحياة، بل من تزرع في الآخر القدرة على تحويل الألم إلى معرفة، والغياب إلى حضور دائم.

وفي تناولها لتجربة الولادة، لم تكتفِ د. **ميادة** بالجانب الجسدي، بل نظرت إليها كحدث روحي يختبر فيه الإنسان حدود ضعفه وقدرته على التجدد. وقد رأت في الألم الذي يرافق الولادة رمزاً للتحول الإنساني؛ إذ يولد الجسد من جديد، وتولد معه الذات في شكل آخر من الوعي. وهكذا تحوّلت تجربة الولادة عندها إلى

استعارة للكتابة نفسها، حيث يصبح النص جسداً جديداً يتكوّن من وجع التجربة ومن رغبة البقاء. ثم جاء اهتمامها بالنشر ليتوّج هذا المسار الفكري؛ إذ رأت أن نشر الكتاب لم يكن نهاية التجربة، بل امتداداً لها في الفضاء الثقافي. فقد وجدت في النشر فعلاً وجودياً يربط بين الكاتب والمجتمع، ويحوّل النص من ملكية خاصة إلى مجال للتداول والحوار. ومن خلال هذا الفهم، سعت إلى تأسيس فضاء معرفي حيّ، يتجاوز البعد التجاري إلى الإسهام في بناء الوعي، مؤكدة أن الكلمة لا تكتمل إلا حين تُقرأ ويعاد إنتاج معناها في أفق الجماعة.

لقد أسهمت هذه الرؤية المتكاملة في إرساء تصور إنساني يجعل من الفكر امتداداً للتجربة، ومن التجربة مادةً للتفكير. فالدكتورة **ميادة كيالي** كانت قد جعلت من الكتابة والأمومة والولادة والنشر حلقات متصلة في مسارٍ واحدٍ، يهدف إلى مصالحة الإنسان مع ذاته ومع وجوده. وبذلك، تحوّل مشروعها إلى شهادة فكرية على إمكانية الجمع بين المعاناة والمعنى، بين الجسد والروح، وبين ما يُعاش وما يُفكَّر فيه. ولقد خلصت حواراتها إلى أن الإنسان لا يكتمل إلا حين يكتب تجربته، وأن الكتابة كانت، في نهاية المطاف، شكلاً من أشكال الحياة المستمرة بعد الألم.

التعريف بالمشاركات والمشاركين

أ. بشرى فرج الأحمدي

عضوة هيئة تدريس في جامعة طيبة بالمدينة المنورة، بكالوريوس أدب إنجليزي، ماجستير مناهج وطرائق تدريس اللغة الإنجليزية. كاتبة لها إصداران، وناشطة ثقافية أقامت العديد من الدورات والندوات في مؤسسة منصة 23 أبريل للتدريب على الكتابة ونشر ثقافة القراءة.

د. حسام الدين درويش

كاتبٌ وباحثٌ ومحاضرٌ في قسم لغات وثقافات العالم الإسلاماتي، في كلية الفلسفة، في جامعة كولونيا الألمانية. حاصلٌ على درجة الدكتوراه في الفلسفة، تخصّص الهيرمينوطيقا، من جامعة بوردو 3 في فرنسا، بدرجة مشرّف جدّاً مع تهنئة لجنة التحكيم (أعلى درجةٍ أكاديميةٍ ممكنة)، وعمل باحثاً ومحاضراً في عددٍ من الجامعات ومراكز البحث الألمانية، منها قسم الفلسفة في جامعة ديسبورغ-إسِن، ومركز الدراسات المتقدمة في الإنسانيات

والعلوم الاجتماعية «علمانيات متعددة: ما وراء الغرب، ما وراء الحداثات»، وقسم الدراسات الدينية، في جامعة لايبزيغ، وقسم التاريخ، في جامعة إرفورت. كما شغل، لأكثر من عامين، منصب المستشار، والمدير الأكاديمي للندوات والحوارات والفعاليات الفكرية، في مؤسسة مؤمنون بلا حدود. إلى جانب ذلك، نظَّم عشرات الندوات والورشات والمؤتمرات، وأدار عشرات الحوارات، الأكاديمية وغير الأكاديمية، ويشارك، بانتظامٍ، في مؤتمراتٍ وورشاتٍ وندواتٍ دوليةٍ. وهو رئيس مجلس إدارة منتدى تفاكر للحوار والثقافة في ألمانيا، وعضوٌ في هيئاتٍ ومؤسساتٍ بحثيةٍ وثقافيةٍ عربيةٍ وأوروبيةٍ، ومساهمٌ فاعلٌ في مبادراتٍ فكريةٍ تهدف إلى تعزيز الحوار بين الثقافات والفلسفات والمجتمعات المختلفة. تتمحور أبحاثه حول الفلسفة المعاصرة، والفكر العربي الحديث، والدراسات الإسلامية والدراسات الثقافية. أصدر عشرة كتبٍ بالعربية، وثلاثة كتبٍ بالفرنسية، إضافة إلى عشرات الدراسات، المنشورة في كتبٍ جماعيةٍ، ومجلاتٍ محكمةٍ، والترجمات باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية. كما قام بإعداد وتحرير (وتقديم) أحد عشر كتاباً باللغة العربية، في مجالات الفلسفة، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والفكر العربي، والدراسات الثقافية والدينية والإسلامية. ومن أبرز كتبه، باللغة العربية: **درويشٌ بين القدر والمصير: في الفلسفة والثورة** (2024)، **في فلسفة الاعتراف وسياسات الهوية: نقد المقاربة الثقافوية للثقافة**

العربية الإسلامية (2023)، **في المفاهيم المعيارية الكثيفة: العلمانية، الإسلام (السياسي)، تجديد الخطاب الديني** (2022)، **المعرفة والأيديولوجيا في الفكر السوري المعاصر** (2022)، **نصوصٌ نقديةٌ في الفكر السياسيِّ العربيّ والثورة السورية واللجوء** (2017)، **إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور** (2016). يجمع، في مسيرته، بين البحث الأكاديمي المتخصص، والعمل المؤسسي، والجهد الثقافي العام، سعياً إلى بناء جسورٍ، بين الفلسفة الغربية والفكر العربي والإسلامي، بين المعرفة الأكاديمية والنقاشات الثقافية في المجال العام، لإغناء الحوار النقدي في القضايا الفلسفية والفكرية الراهنة.

د. ساري حنفي:

أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية في بيروت، ومدير مركز الدراسات العربية والشرق أوسطية ورئيس برنامج الدراسات الإسلامية فيها. شغل منصب رئيس تحرير المجلة العربية لعلم الاجتماع إضافات (2007-2022)، ورئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتماع (2018-2023)، كما كان نائب رئيس وعضو مجلس أمناء المجلس العربي للعلوم الاجتماعية (2012-2016). وهو مؤسس ومدير البوابة الإلكترونية «أثر» حول الأثر الاجتماعي للبحث العلمي، ومدير سابق لمركز شمل للاجئين والشتات في رام الله. عمل أستاذاً زائراً في جامعات بواتييه (فرنسا)، بولونيا ورافينا (إيطاليا)، وباحثاً زائراً في معهد كريستيان مكلسون (النرويج)

ومعهد الدوحة. تتوزع اهتماماته البحثية بين السوسيولوجيا السياسية، سوسيولوجيا المعرفة والدين، قضايا الهجرة واللاجئين، والعدالة الانتقالية، وله رصيد واسع من المقالات والدراسات، وأحد عشر كتاباً مؤلفاً أو محرراً. حصل على جائزة عبد الحميد شومان (2015) وجائزة الكويت في العلوم الاجتماعية (2015)، كما نال الدكتوراه الفخرية من جامعة سان ماركوس في بيرو، وانتُخب زميلاً مدى الحياة في الأكاديمية البريطانية. من أبرز كتبه: **بين عالمين** (1996)، **سوريا المهندسون** (1997)، **عبور الحدود وتبدل الحواجز** (2008)، **سلطة الإقصاء الشامل** (2009/ 2012)، **اللاجئون الفلسطينيون (2010/ 2013)**، **حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي** (2010)، **بروز النخبة الفلسطينية المعولمة** (2011)، **البحث العربي ومجتمع المعرفة (2015)**، **الدولة العربية القوية والضعيفة** (2019)، **نحو إعادة بناء الدراسات الإسلامية** (2019)، **علوم الشرع والعلوم الاجتماعية: نحو تجاوز القطيعة** (2020) وأحدث مؤلفاته **ضد الليبرالية الرمزية: نداء لسوسيولوجيا حوارية** (2025).

د. ماريز يونس:

أستاذة علم الاجتماع في الجامعة اللبنانية، حاصلة على شهادة الدكتوراه في التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وتتركز اهتماماتها البحثية على المجتمع المدني، والشباب والحركات الاجتماعية، وقضايا النساء في العالم العربي. تشمل إسهاماتها إعداد سلسلة

دراساتٍ وطنيةٍ مكونةٍ من ستة كتبٍ حول الشباب في البيئات المهمشة بالتعاون مع الجامعة الأمريكية في لبنان، إضافةً إلى أعمالٍ بحثيةٍ متعددةٍ تناولت الحركات الاحتجاجية الشبابية والرقمية، والهجرة النسائية إلى الخليج العربي. ساهمت في إعداد الخطة الثقافية العربية الشاملة للعام 2021 الصادرة عن منظمة الألكسو، التي كرّمَتها بمنحها وسام الريادة والقيادة في البحث العلمي والاجتماعي. كما حررت العديد من الكتب الأكاديمية، وكان آخرها كتاب قضايا التحول في المجتمعات العربية الراهنة. أسست وترأست كل من «الشبكة الدولية لدراسات المجتمعات العربية»، التي تضم نحو 80 مركزاً بحثياً من داخل العالم العربي وخارجه، و«شبكة دراسات المرأة»، مسهمة بذلك في تعزيز الشراكات البحثية والحوار المعرفي بين مراكز البحث على المستويين الإقليمي والدولي. كما أشرفت على سلسلةٍ من المؤتمرات الإقليمية والمنتديات الدولية لمراكز البحث والمؤسسات العلمية، من أبرزها مؤتمر «القوى العالمية الكبرى والشرق الأوسط»، «الشباب والهجرة والهوية في العالم العربي» و«اللقاء الإقليمي لخبراء العلوم الاجتماعية والإنسانية»، ومنتدى «الأزمات الراهنة في العالم العربي، التجارب والنماذج». كما شاركت في تطوير برامج تدريبيةٍ لطلاب الدكتوراه والباحثين الشباب، كان آخرها «الجامعة الصيفية» حول قضايا التحول في العالم العربي في تونس. وإلى جانب عملها البحثي والأكاديمي، ساهمت في تعزيز

الإعلام الاجتماعي الملتزم، من خلال إعداد وتقديم البرنامج التلفزيوني «لأني أُنثى»، حيث تناولت قضايا النساء في العالم العربي، من خلال حواراتٍ مع باحثين وناشطين من العالم العربي.

د. ميادة كيالي

باحثةٌ وكاتبةٌ سوريةٌ، بدأت مسيرتها المهنية في مجال الهندسة المدنية، حيث عملت لمدة ثماني سنواتٍ في مختبراتٍ ومؤسساتٍ هندسيةٍ في دمشق، قبل أن تتحول إلى الدراسات الإنسانية، فحصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه في الحضارات القديمة، ما أتاح لها مزج المنهج التحليلي الهندسي مع الدراسة النقدية للفكر والتاريخ والحضارات، وتطوير رؤيةٍ متعددة التخصصات تجمع بين التحليل التاريخي والاجتماعي والفكري. تشغل، حاليّاً، منصب مديرة مؤسسة سراج للأبحاث والدراسات في هيئة أبو ظبي للإعلام، والمديرة العامة لمؤسسة مؤمنون بلا حدود في بيروت والشارقة، حيث أسهمت في إنتاج ونشر أكثر من 400 إصدارٍ من الكتب والأبحاث الأكاديمية في مجالات الفلسفة والفكر والدراسات الدينية، مع تركيزٍ خاصٍّ على ترجمة الأعمال الكبرى، والتعريف بالمشاريع الفكرية العربية الحديثة، بما يعكس حرصها على ربط التراث بالفكر المعاصر، وتسهيل وصوله إلى جمهورٍ واسعٍ من الباحثين والمهتمين. لها مؤلفاتٌ إبداعيةٌ وأكاديميةٌ تتناول موضوعات الفكر والدين والثقافة، من بينها: **أحلام مسروقة** (2010)، **رسائل وحنين** (2013)، **المرأة والألوهة المؤنثة**

(2015)، **هندسة الهيمنة على النساء: الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة** (2018)، **في ظلال الياسمين** (2023)، **وجسد مقيم في سرير: حكاية عن الحب والأمومة والنجاة** (2025)، تعكس هذه الأعمال اهتماماتها بمقاربة قضايا المرأة والدين والثقافة، عبر تاريخها وفكرها المعاصر، مع التركيز على فهم الأطر الاجتماعية والسياسية التي تؤثر في تجارب الأفراد والجماعات. إضافةً إلى نشاطها الأكاديمي والنشري، تشارك في العمل المؤسسي والفعاليات الفكرية والثقافية، فهي عضوٌ في اتحاد الناشرين اللبنانيين والإماراتيين والعرب، وأشرفت على سلسلةٍ من الحوارات الفكرية عبر منصة «**مؤمنون بلا حدود**»، التي لاقت اهتماماً واسعاً وتغطيةً إعلاميةً معتبرةً، كما كان لها حضورٌ في البرامج الحوارية والإعلامية، عبر قنواتٍ، مثل: الحرة، الغد، الشارقة، الفجيرة، سوريا، وأورينت. وتدير، كذلك، قناةً على يوتيوب تقدم، من خلالها، لقاءاتٍ فكريةً وحواراتٍ ثقافيةً مع مفكرين وباحثين، جامعةً بذلك بين البحث الأكاديمي والنشاط الإعلامي والتواصل الثقافي، لتوسيع دائرة النقاش حول الفكر والفلسفة والدين والثقافة في العالم العربي، والمساهمة في تعزيز الحوار النقدي والمناهج البحثية متعددة التخصصات.